



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٠٨١٥



مركز الدراسات الإسلامية
شعبة الدراسات الاجتماعية

١٠٠٢٨٠١

التعريب في مصر الإسلامية
وأثره في الحياة الفكرية حتى بداية العصر الفاطمي

بحوث

ناهد حسن اسماعيل القصير

مقدم لنيل درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية
بإشراف الأستاذ الدكتور / علي حسني الخيوطلي

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

١ مقدمة
٦ تعهيد : احوال مصر قبل الفتح الاسلامى

الباب الاول

١٢ العوامل المؤثرة فى التمريب فى مصر الاسلامية

١٣	١- موقف المصريين من الفتح العربى وأثره فى اقبالهم على
٣٢	الاسلام والتمريب
٤٢	٢- القبائل العربية الوافدة على مصر
٥٦	٣- اثر بناء القسطنطينية فى اتخاذها مركزا للتمريب
٧٧	٤- انتشار الاسلام فى مصر وأثره فى التمريب
٩٤	٥- موقف اللغة العربية من اللغتين اليونانية والقبطية
١٤٨	٦- أثر سياسة الضرائب فى انتشار الاسلام والتمريب
	٧- ثورات المصريين وأثرها فى التمريب

الباب الثانى

١٦٣ مظاهر التمريب وآثاره فى الحياة الفكرية

١٦٤	١- تمريب الدواوين وأثره فى انتشار اللغة العربية فى مصر
١٧٧	٢- اثر التمريب فى قيام المدرسة العلمية الاسلامية
٢٠١	٣- دور الذميين المصريين فى الحياة الفكرية العربية
٢٢٦	٤- دور الصحابة والتابعين فى التمريب وفى النهضة الفكرية
٢٣٥	٥- دور الموالى فى النهضة العلمية
٢٤٢	٦- أثر التمريب فى ظهور الفكر العربى ودوره فى الحياتيين
٢٥٧	السياسية والاجتماعية فى مصر
٢٧٢	٧- دور التمريب فى نهضة الدراسات اللغوية والنحوية
	٨- ديوان الرسائل ودوره فى تدعيم التمريب فى مصر الاسلامية
٢٩٠ المصادر الاصلية
٣٠٨ المراجع العربية الحديثة
٣١٥ المراجع الاجنبية المترجمة الى اللغة العربية
٣١٨ المراجع الاجنبية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يدرس هذا البحث التعريب في مصر الاسلامية وأثره في الحياة الفكرية ، حتى بداية العصر الفاطمي . وقد رأيت ان اتجه ببحثي الى ابراز صفحة مشرقة من صفحات تاريخ مصر الخالدة ، فدرس المسالك التي سلكها التعريب الى القطر المصري ، حتى اصبحت مصر اقلية بارزا من اقاليهم العالم العربي الاسلامي ، ثم لدرس وسائل التعريب والعوامل المؤثرة فيه ، ومظاهره ثم آثاره الفكرية .

كان الاسلام في القرن السابع الميلادي أعظم الحركات الاصلاحية في العالم . جمع ، مبر جميع المصور فالاسلام حضارة شاملة تصلح لكل انسان ، ولكل بيئة ، ولكل عصر . ولم تنجح اللغة العربية في تحقيق وحدة العرب ولم تخلق منهم امة واحدة ، بل تفرقت الى عدة لهجات حتى اصبحت بعض اللهجات وكأنها لغات مستقلة . وتنوعت الحياة السياسية في الجزيرة العربية ، فأينا الدولة في اليمن والمدينة المستقلة في الحجاز ، والقبيلة في البادية . وتغلبت البداوة على معظم العرب وأثرت في فكرهم وعاداتهم وتقاليدهم وفي حياتهم الاجتماعية والاقتصادية وكان لسان العربي أنشط من عقله ، ولذا اشتغل في الجاهلية بالعلوم الادبية واللغوية ، أكثر من اشتغاله بالعلوم العقلية ونجح الاسلام في خلق امة عربية موحدة ذات حضارة واحدة .

والاسلام هو الدين العالي وحضارته تتصف بالعالمية والانسانية وقد بدأ الرسول عليه الصلاة والسلام بتحقيق عالمية الدين الاسلامي ، فكانت كتبه الى ملوك وأمراء الدول المعاصرة ومنهم المقوقس نائب الامبراطور البيزنطي في حكم مصر . وكان من بين الهدايا التي أرفق المقوقس بها رده الى الرسول الكريم ، ماريه القبطية التي أنجب منها ابنه ابراهيم . وشر الرسول عليه الصلاة والسلام بفتح مصر وأوصى بالقبط خيرا .

وتابع الخليفةان الاولان ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب سياسة الرسول الكريم في تحقيق عالمية الدين الاسلامي فكان فتح مصر في عهد الخليفة الثاني

عمر ، على يد القائد العربي عمرو بن العاص ، فبدأت مصر تدخل التاريخ
الاسلامى من أوسع أبوابه .

شاء الله تعالى ان يختار خاتم رسله وأنبيائه من بين العرب ، كما شاءت
حكيمته السامية ان ينزل آخر الكتب السماوية باللغة العربية . وجاء ذكر مصر فى
القرآن الكريم عدة مرات بما كرمها وشرفها على كثير من الاقطار والبلاد . وكانت
مصر هى الارض الخصبة للمقيدين المسيحية واليهودية ، وطش على أرضها موسى
وعيسى طيبهما السلام ، ثم وجد الاسلام واللغة العربية مجالات فسيحة على
ارض مصر وبين أهلها . كما قد راى المصريون الحضارة العربية الاسلامية حق قدرها
فالشعب المصرى عريق فى الحضارة ويستطيع استيعاب الحضارات العالمية
وهضمها وتقبلها .

لم يكن الفتح العربى لمصر غزواً أو توسعاً اقليمياً بل كان تحقيقاً لمالمة
الاسلام من جهة وانقاذاً لشعب مصر من مظالم البيزنطيين . وتحريراً للمصريين
من الاضطهاد الدينى وتطويراً للحياتين الاجتماعية والاقتصادية . فقد حصل
الاسلام منه مبادئ الخالدة من حرية واخاء ومساواة وعدالة . وكان المصريون قد
سمعوا بسياسة العدل والتسامح التى اتبعها الفاتحون العرب فى بلاد الشام ،
ولذا لقي جيش عمرو بن العاص ترحيباً من المصريين .

ويحتل بدراس الارض التى ألقى فيها الفاتحون العرب بذور الاسلام والعروة
ويقتضيه البحث هذا الغرس الطيب فى مراحل نموه المختلفة حتى ازهر وأنعم
فتركت مصر وراءها الماضى البيزنطى الرومى القرونى بما صحبه من تخلف
حضارى ومظالم سياسية لتبدأ تاريخها العربى الاسلامى بما اتصف به من حضارة
زاهرة وتقدم علمائى ونهضة فكرية .

اتبعت النهج الموضوعى ، مع المحافظة على التسلسل الزمنى ولم يُجيب
بمحتل على أسس زمنية ، بحيث يُجمل لكل من عصر الولاة او العصر الطولونى

أو العصر الاخشيدي بابا خلاصه به بل رأيك تقسم البحث الى موضوعات لكل موضوع وحدته الفكرية وتكامله العلمي وخصائصه المتميزة مع دراسة جوانب كل موضوع ففى هذه المصور الثلاثة .

وقد واجهت عدة مشكلات علمية فالموضوع متسع الاطراف ، متشابك الاحداث ، والتعريب يعض متبعا سنة الحياة والتطور والارتقاء ، بدون توجيه مقصود او قوة دفع مرسومة ، فقد انضج كل من الاسلام واللغة العربية لعنصر الاختيار وقبل المصريون عليهما فى حرية تامة مع بعض المؤثرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فالحياة متشابكة متداخلة فى عناصرها المختلفة المتعددة . والتعريب له دوافع ومظاهر ونتائج كثيرة متنوعة فكان علينا ان نلم بها كلها بقدر الامكان ، مفصلين الحديث عن أبرزها وأهمها ، مجملين الدراسة للموضوعات الثانوية والفرعية .

وقد رأيت ان قسم بحثنا الى بابين كبيرين مع تفريعهما الى عدة موضوعات ، اذ لم نشأ تفتيت المادة العلمية ، كما اردنا المحافظة على تكامل التعريب ففى دوافعه ومظاهره وآثاره الفكرية وقد بدأ البحث بتمهيد شمل دراسة موجزة عن حالة مصر قبيل الفتح العربى ودرس الباب الاول العوامل المؤثرة فى التعريب وما صاحبه من انتشار الاسلام . وقد تناولنا فى هذا الباب عدة موضوعات متنوعة قد درسنا موقف المصريين من الفتح العربى ، واثار هذه المواقف فى اقبالهم على احتياق الاسلام وعلى التعريب . ورأينا القبايل العربية الوافدة على مصر ، ثم درسنا اثر قيام مدينة الفسطاط فى اتخاذها مركزا للتعريب وكيف اصبح جامع عمرو بن العاص اول جوامع مصر والقارة الافريقية - مركز اشعاع الاسلام والمصوبة ثم تتبعنا خطوات انتشار الاسلام واثاره بالتالى فى انتشار اللغة العربية ، ثم درسنا اثر اقبال المصريين على تعلم اللغة العربية فى اتساع حركة التعريب ، كما درسنا موقف اللغة العربية من اللغتين اليونانية والقبطية واثار كل مسن سياسة الضرائب وثورات المصريين فى التعريب .

ودرس الباب الثانى من هذا البحث مظاهر التعريب وآثاره فى الحياة الفكرية ودرسنا فى هذا الباب عدة موضوعات ، فرأينا اثر تعريب دواوين

الحكومة في مصر الاموى في انتشار اللغة العربية في مصر ثم اثر التعريب في قيام المدرسة العلمية الاسلامية وتبعتها دور الذاهيين المصريين في الحياة الفكرية العربية وأبرز دور الصلابة والتابعين والقضاة في التعريب وفي النهضة الفكرية. كما كان للموالى دورهم المؤثر أيضا في النهضة العلمية. كما أدى تعريب مصر الى ظهور فكر صوفي كان له اثره في الحياتين السياسية والاجتماعية في مصر. ثم درسنا دور التعريب في نهضة الدراسات اللغوية والنحوية، ثم شهدنا ديسوان الرسائل الذي قام بدور مؤثر في تدعيم حركة التعريب في مصر الاسلامية وتوضح تفاصيل هذه الموضوعات في فهرس الرسالة.

اطلعت على كثير من المصادر الاصلية والمراجع الحديثة العربية والافرنجية دونها في حواشي البحث في قائمة المصادر والمراجع في نهاية الرسالة. والحقيقة ان كثرة المادة العلمية وتناقضها وتضاربها احيانا، كانت من مشاكلنا العلمية. وقد اهتم المؤلفون الاقدمون المسلمون بصفة عامة والمصريون بصفة خاصة بالنهضة الفكرية العربية في مصر وأمدونا بكثير من الحقائق والمعلومات. كما ان اساتذة جامعاتنا المصرية قدموا لمكتبنا العديد من الابحاث القيمة.

وفي ختام هذه المقدمة، أتقدم بجزيل الشكر ووافر الامتنان لاستاذي المشرف الاستاذ الدكتور على حسنى الخرسوطلى على كريم رعايته وحسن عنايته فقد اعطاني الكثير من علمه وجهده ووقته. جزاء الله تعالى عن الدراسات الاسلامية خير الجزاء.

كما اتقدم بمعظم الشكر وبالغ الامتنان للمؤرخ الاجل الاستاذ الدكتور محمد جمال الدين مور، استاذ الاساتذة، والمؤرخ الجليل المصطفى الدكتور احمد السرايى على تفضلهما بقبول مناقشة رسالتي، حفظهما الله تعالى ومعهما بالصحة والعافية وجعلهما ذخرا لكل الدارسين والباحثين.

ويعد • نهضة بن عورة مشقة من صور تاريخ مصر • العربية الإسلامية •
أقدمها لكل مسلم • وعربي • ومصري • لتكون الطائر والتدوئة والأسوة • لنمضي
على طريق الاجداد • نحو الزيد من الأمجاد • والله عز وجل ولي
التوفيق •

تمهيد

أحوال مصر قبل الفتح العربي الاسلامي

كانت لاهوال مصر السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ، قبيل الفتح العربي الاسلامي اثرها الواضح في موقف المصريين من هذا الفتح ، ثم من استقرار العرب الفاتحين ، ثم من ^{اقبالهم} على اعتناق الاسلام والتعرب لغويا وخصريسا .

تحولت مصر الى ولاية رومانية ثم بيزنطية ، منذ انتصار اغسطس قيصر على كليوباترة في موقعه (أكثيوم) سنة ٣١ ق. م . واستيلائه على مصر ، والقضاء نهائيا على دولة البطالمة فيها . (١) ولم يختلف الوضع في مصر في العهد البيزنطي (٢٨٤ - ٦٤٠ م) عما كان عليه في العهد الروماني (٣١ ق. م - ٢٨٤ م) فقد عانت مصر في المهددين على الملوك - من الاضطهاد الديني والمظالم الاجتماعية والاقتصادية . فضلا عن اهمال الرومان والبيزنطيين لمرافق البلاد .

انقسم سكان مصر الى ثلاث فئات هي : المصريون ، والبيزنطيون ، واليهود ، الى جانب اقلية اخرى اجنبية .

اما المصريون ، فقد عاشوا حياة ضئيلة ومشفقة ، نتيجة كثرة الضرائب الغروضة عليهم ، حتى ان كثيرا من الفلاحين هجروا اراضيهم وقواهم بعد عجزهم عن سداد الضرائب . (٢)

وكان الفلاحون ينقسمون الى طبقتين كبيرتين ، الاولى منها هي طبقة مزارعي الضياع الكبيرة ، وهم ارباب ملتصقون بالارض ولهم مخدمون بخدمة اصحاب هذه الضياع .

(١) الخريوطي : مصر العربية الاسلامية ص ٧

(٢) Nile : A History of Egypt Under Roman Rule, Vol. 5, P. 118 - 119.

والطبقة الثانية تضم المزارعين الأحرار ، وهم إما ملاك لقطع صغيرة من الأرض أو مستأجرون لدى ملاك متوسطين . وكان هؤلاء أيضا يرتبطون بالأرض ويحظرون عليهم مفاد رتبها ، رغم تقاعسهم رسميا وظاهريا بالحرية . (١) وعلى أكتاف هؤلاء الفلاحين التمساء أخرى كبار الملاك وكنوا طبقة من النبلاء الاقطاعيين بدأت تظهر في القرن الرابع الميلادي وبلغت أقصى قوتها في القرن السادس للميلاد . وفقدت هذه الطبقة - بحكم مصالحها - مرتبطة بالحكومة البيزنطية منذة لبرغياتها ، وحامية لمصالحها في مصر . (٢) ومن هذه الطبقة النبيلة ظهرت بعض الأسر الكبيرة . وقد حرصت هذه الأسر على إخضاع من جاورها من الفلاحين الأحرار للسيطرة البيزنطية ، حتى أصبحوا بمثابة أقتان للأرض . وأصف هؤلاء الفلاحين البؤساء بالجهل والقصور الفكري وإن اشتهروا بعمق تدبيرهم وثقواهم وخضوعهم التام لكنيسة الاسكندرية .

طاني المصريون من فداحة الضرائب وكان الإمبراطور يحدد سنويا مقدار هذه الضرائب في رسالة يبعثها إلى نائبه في حكم مصر ويقوم الحاكم بتحديد الضرائب على الأقاليم والقرى . (٣) ومن أهم الضرائب ضريبة القمح ، حيث تقدم كل قرية سنويا قدرا محددًا من القمح ويرسل الحاكم القمح إلى العاصمة البيزنطية . (٤) ثم كانت هناك ضريبة الرؤوس تفرض على المصريين الذين تتراوح أعمارهم بين أربع عشرة سنة وستين سنة . (٥) كما فرض البيزنطيون تقديم الهدايا للإمبراطور . وضرائب مختلفة على التجارة والدخل والمبيعات والتركات والمقود والحيوانات . وطاني المصريون من مظالم جباة الضرائب وبلغوا إلى حاية كبار الموظفين المدنيين والمسكرين فكان المالك الصغير عندما يعاني من الضرائب يلجأ إلى أحد جيوانه الأقوياء لحمايته على أن يتنازل له عن أرضه ويؤجرها له كمستأجر . (٦)

(١) بل : مصر من الاسكندرية الأكبر حتى الفتح العربي (ترجمة عبد اللطيف احمد على ومحمد عواد حسين) ص ٢٤٣

(٢) Diehl: L'Egypte Chretienne et Byzantine, P.403. (٢)

(٣) Milne : Op. Cit. P. 118 - 119. (٣)

(٤) Hardy: The Large Estates of Byzantine Egypt, P.7. (٤)

(٥) Milne : Op. Cit. P.121. (٥)

(٦) بل : مصر من الاسكندرية الأكبر حتى الفتح العربي ص ٢٣٥-٢٣٦

وعانى المصريون أيضا من الاضطهاد الديني نتيجة الخلاف العذهي ، وكانت المسيحية قد انتشرت في مصر قبل انتشارها في الامبراطورية الرومانية التي احتفظت بوثنتها ولقى المصريون المسيحيون كثيرا من مظاهر الاضطهاد وخاصة في عصر الامبراطور دقلديانوس (١) ، وبدأ فرار المصريين الى الصحراء وفناء الاديوية (٢) حتى تولى الامبراطور ثيودوسيوس فجعل المسيحية دين الدولة الرسمي ، وقام خلاف بين اثنين من كبار رجال الدين المسيحي في الاسكندرية هما (اثناسيوس) و (اريوس) حول طبيعة المسيح وتدخل الامبراطور (قسطنطين) في الخلاف وعقد اجتماعا في (نيقية) لانهاء الخلاف ، وأدان مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م (اريوس) وسجنه ونفى اتباعه ، وتحددت العقيدة الارثوذكسية باعتبار المسيح من نفس مادة الاب ، أي ان صفة الالهية مستمدة من الاب . (٣)

تولى اثناسيوس بطريركية الاسكندرية وتمصب لمذهب نيقية ، ولكن الامبراطور البيزنطي أدرك ان قرارات مجمع نيقية تتعارض مع آراء معظم رجال الكنيسة والرياسة فبدأ ينحاز الى الاريوسية وانقلب على انصار مذهب نيقية ، وأمر البطريك اثناسيوس بان يعيد اريوس الى الكنيسة فرفض فقهر الامبراطور نفيه ، مما أدى الى اضطراب الاسكندرية وهرب اثناسيوس الى الصحراء . (٤) وبدأ تدخل الدولة في شئون الكنيسة وأصبح للامانة حقوق مدنية ومنها فرض الضرائب كمعونة للكنيسة . (٥)

ومنذ ذلك الحين سيطر بطاركة الاسكندرية على الاحوال الداخلية في مصر وحرصوا على استغلال كنيستهم واحتضان شعبيهم كما قام صراع بين الاساقفة واتباعهم واستمرت هذه الصورة من سنة ٣٨٥ الى ٤٥١ م . (٦)

(١) يسمى عصر هذا الامبراطور (عصر الشهداء) نتيجة قتل كثير من المصريين وهدم الكنائس (ساهورين العققع : سير البطاركة الاسكندريين ج١ ص ٤٧-٤٨)

(٢) بل : تفرد المرجع ص ٢١٧ وما بعدها ، العربي : مصر البيزنطية ص ٢٤٩

Milne : Op. Cit. P. 89.

(٣)

(٤) العربي : مصر البيزنطية ص ٥٣

(٥)

Milne : Op. Cit., P. 89.

(٦) العربي : مصر البيزنطية ص ٥٣

وفى سنة ٤٥١م^(١) عقد مجمع خلقيدونية لاقرار صيغة جديدة للعقيدة المسيحية ، وقرر الاساقفة المجتمعون ان للمسيح طبيعتين ، كما أصدر قرارات بابطال مذهب العقيدة الواحدة ، وتم خلق (ديسقورس) بطريرك الاسكندرية ممسكاً ادى الى غضب المصريين^(٢) ورفض المصريون قبول (برثوروس) بطريركاً ، فأرسل البيزنطيون كتبة عسكرية لارغام المصريين على قبوله^(٣) ورفض المصريون قرارات مجمع خلقيدونية وبدأت روح انفصالية استقلالية عن الدولة البيزنطية .

ومعد سنة ٤٥١م انفصل الاقباط عن الكنيسة البيزنطية تحت شعار الاعتقاد بالطبيعة الواحدة كما اطلق المصريون على أعتابهم في المذهب اسم (الملكانيين) باعتبار المذهب الملكي الامبراطوري^(٤) وزاد انتشار اللغة القبطية والادب القبطي في اعاق مصر بدلا من اللغة اليونانية والثقافة اليونانية^(٥) وبدأ صراع بين المصريين اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة والبيزنطيين اصحاب مذهب الطبيعتين . واستمر الصراع حتى الفتح العربي لمصر .

اليهود : تركر اليهود منذ العصر البطلمي في مدينة الاسكندرية ، وكانت لهم جاليات اخرى في بعض مدن مصر السفلى ، وكذلك في القيوم . وفي البهنسا ، وأقام اليهود في أحياء خاصة بهم وتحول بعض اليهود الى المسيحية مع احتفاظهم بأسمائهم القديمة^(٦) واشتغل معظم اليهود بالتجارة سواء في داخل مصر او مع دول حوض البحر المتوسط وجنوا ثروات ضخمة^(٧) كما اشتغل بعضهم اليهود بالزراعة والاعمال اليدوية في مدن مصر^(٨) وأبدي اليهود عداء

(١) في عهد الامبراطور ماركيان ٤٥٠-٤٥٧م

(٢) نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية (ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد) ص ١٠٤-١٠٥

(٣) بتشر : تاريخ الامة القبطية وكنيستها ج ٢ ص ٥٨-٥٩

(٤) Hardy: The large Estates of Byzantine Egypt, P. 21.

(٥) المبرني: مصر البيزنطية ص ٧٤

(٦) The Jewish Encyclopedia, Vol. 5, P. 60.

(٧) Milne : Op. Cit., P. 98 - 99.

(٨) Goitein : Jews and Arabs, Their Contacts through the Ages. P. 7.

للمسيحية والمسيحيين ، مما عرضهم دائما للعقاب والعذاب ، حتى ان البطرك كيرلس امر سنة ٤١٥ م بطردهم من الاسكندرية واغلاق معايدهم واستباحهم بيوتهم ، وتصرف اليهود لمذبحة كبيرة . (١)

وكان عداء المصريين لليهود مظهرًا من مظاهر عدائهم للروم . اذ كان الهجوم على اليهود اسلم عاقبة لهم من الهجوم على الروم . (٢) غير ان الكراهية العنيفة المتأصلة في نفوس اليهود ضد النصارى وجدت الفرصة للانتقام اثناء الفزو الفارسى للشام ومصر (٦١٥-٦١٨ م) فانتفضوا اليهود وفتكوا بالنصارى ودسروا كنائسهم وأحرقوها . فلما انتصر هرقل على الفرس وخلص الشام ومصر من الفرس (٦٢٧ م) طلب منه نصارى الشام ومصر ان يمكثهم من الانتقام من اليهود وذلك على الرغم من العهد الذى منحوا اياهم بحمايتهم . ولما اشتد ضغط النصارى عليه اجابهم الى طلبهم . وأمر باجلاء اليهود عن بيت المقدس وعدم عدتهم اليه ابدا . (٣) وانتفض النصارى الفرصة وهاجوا اليهود فى كل من مصر والشام ووقعت مذبحة طامة لليهود سنة ٦٣٠ م قتل فيها كثير منهم ، ولم يفلت من القتل والتعذيب الا ^{الذين} الذين هربوا أو اختفوا فى الصحارى والكهوف . (٤)

ولكن اليهود استعادوا قوتهم ومركزهم حتى بلغ عددهم بعد ذلك بمصر سنوات اى قبيل الفتح العربى لمصر ^{أربعين} ألفا فى الاسكندرية وحدها كما ^{سأهموا} بماولهم بقسط كبير فى الجزية التى دفعتها مصر لبيت مال المسلمين . (٥)

البيزنطيون : كونت الجالية البيزنطية طبقة ارسقراطية فى مصر ، اذ كانت هى الطبقة الحاكمة . فقد تركزت فى ايدى البيزنطيين معظم الوظائف الكبرى ، فكانوا هم حكام الاقاليم وقواد الفرق العسكرية ومنهم من كان ينتخب اعضاء (مناصب) الاسكندرية) ومن الطبيعي ان تتركز معظم ثروة البلاد فى ايديهم نظرا لسيطرتهم

(١) المرقى : مصر البيزنطية ص ٢٥١

(٢) بل : مصر من الاسكندرية والاكبر حتى الفتح العربى ص ١٢٦

(٣) تبلر : فتح العرب لمصر ص ١١٩

(٤) بتشر : تاريخ الامة القبطية وكتبتتها ج ٢ ص ١١٩

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٢



(١)

على الاقتصاد المصري واشتغالهم بالتجارة الخارجية ما زاد من نفوذهم وسلطانهم وكان ذلك على حساب التجار المصريين الذين قل اشتغالهم بالتجارة الخارجية الى حد ما ، بعد ان كانت السفن المصرية تشق مجاب البحر المتوسط وتنافس تجارة واسطة . (٢)

عاش البيزنطيون في مصر حياة كلها بذخ وترف ، واتخذوا قصورا فخمة وحمامات رائعة ما زالت اطلالها قائمة في الاسكندرية كما سكن البيزنطيون كثيرا من مدن مصر وخاصة الفيوم . (٣) وحرصت الحكومة البيزنطية على حرمان المصريين من الالتحاق بالخدمات البيزنطية في القرنين السابقين للفتح العربي حينما اشتد الصراع بين المصريين والبيزنطيين ما ادى الى حرمان المصريين من الخببرات العسكرية بمصر ففقد فنون القتال . (٤)

وامتلك البيزنطيين البيزنطية الملكية في الاسكندرية ايضا واسطة ، كانت تصدر كميات ضخمة من القمح كما مارست نشاطا تجاريا واسعا وصدرت المصنوعات المصرية الى الدولة البيزنطية نتيجة امتلاكها اسطولا تجاريا كبيرا كما امتلك البطركه ديوات ضخمة بينما اعدت الكنيسة المصرية على التبرعات والاحسان . (٥)

(١) الميرني : مصر البيزنطية ص ٢٥١

(٢) بتشر : تاريخ الامة القبطية وكتيباتها ج٢ ص ٩٦

(٣) غير على بوردات يونانية ترجع الى المهد البيزنطي تحمل اسما يونانية في Diehl : Op. Cit. P. 499.

النجوم

(٤) بتشر : تاريخ الامة القبطية وكتيباتها ج٢ ص ٩٦

(٥) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٤٤ · P.156 Hardy : Christian Egypt

الباب الأول

المواصل المؤثرة في التمريب في مصر الاسلامية

- ١- موقف المصريين من الفتح العربي وأثره في إقبالهم على الاسلام
والتمريب
- ٢- القبائل العربية الوافدة على مصر
- ٣- أثر بناء القسطنطينية في اتخاذها مركزا للتمريب
- ٤- انتشار الاسلام في مصر وأثره في التمريب
- ٥- موقف اللغة العربية من اللغتين اليونانية والقبطية
- ٦- أثر سياسة الضرائب في انتشار الاسلام و التمريب
- ٧- ثورات المصريين وأثرها في التمريب

١- موقف المصريين من الفتح العربي - وأثره في أقبالهم على الاسلام والتعريب

كتاب الرسول الى القوقس :

الاسلام هو الدين العالي ومحمد عليه الصلاة والسلام هو رسول الله الى العالمين . وقد عرف الرسول الكريم عالمية العقيدة الشرا التي يدعو اليها ، ولذا ما كاد يوقع صلح الحديبية في العام السادس بعد الهجرة ، الذي ينص على هدنة مع قريش تستمر عشر سنوات حتى يبدأ النبي صلى الله عليه وسلم تحقيق عالمية الاسلام فكانت كتبه الى ملوك وامراء الدول ومنهم القوقس حاكم مصر . (١)

بعث الرسول عليه الصلاة والسلام ططب بن ابي بلتقة اللخمي السبي القوقس نائب الامبراطور البيزنطي في حكم مصر وكان يقيم في الاسكندرية ، فسلمه ططب كتاب النبي وقد جاء فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى القوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى . فاما بعد ، فانني اذكرك بداية الاسلام ، فاسلم تعلم ، واسلم يحبك الله اجرك مرتين ، يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا : اشهدوا باننا مسلمون . " (٢)

أحسن القوقس استقبال ططب واكرمه وشير المؤرخ ابن عبد الحكم (٣)

الى الحوار بينهما حول الرسول عليه الصلاة والسلام وصفاته ، ونستنتج من هذا الحوار ان القوقس كان يعلم مسبقا بظهور نبي جديد ولكنه كان ينتظر ظهور دعوته في بلاد الشام لا في الجزيرة العربية . واظن القوقس لططب ترحيبه باعتناق الاسلام الا انه يخشى معاوضة القبط له ، ثم طلب القوقس من ططب الا يتحدث الى المصريين بما كان بينهما من حوار وخاصة عن ميله الى اعتناق الاسلام .

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج٣ ص ٢٥٩ وما بعد ها .

ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٤١

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٤١-٤٢

(٣) المصدر السابق .

ويمكننا ان نستنتج من الروايات التاريخية ان المقوقس كان حريصا دائما على مصالحه السياسية ، فهو يخشى على نفوذه ومركزه وهو يرضح لمارضة قومه —
للدين الجديد . فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام حين تسلم كتاب المقوقس —
" ضمن الخبيث بملكه ، ولا يبقا لملكه " . (١)

بحث المقوقس كتابا الى الرسول عليه الصلاة والسلام جاء فيه : " لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام ، انا بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو اليه ، وقد علمت ان فيها قد بقي وقد كنت اظن انه يخرج بالشام . وقد اكرمت رسولك وبحثت اليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وبكموة ، وأهديت اليك بخلعة لتركبها ، والسلام " . (٢)

بشر الرسول عليه الصلاة والسلام بفتح مصر واوصاهم بقبط مصر خيرا . وهناك احاديث نبوية شريفة ذكرها كتاب الحديث والمؤرخون ومنها ان الرسول الكريم قد قال : " انكم ستفتحون ارضا يذكر فيها القيروط فاستوصوا باهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما " . وقال عليه الصلاة والسلام ايضا " انكم ستكونون اجنادا وان خير اجنادكم اهل المغرب منكم فاتقوا الله في القبط لا تأكلوهم اكل الخضر " . (٣)

الفتح العربي لمصر:

بحث الخليفة عمر بن الخطاب عمرو بن العاص على رأس الجيش العربي الاسلامي لفتح مصر ، بعد ان انتهى من فتوحات الشام . وبلغ المقوقس خبر قدوم عمرو بن العاص فأسرع الى حصن بابليون وبدأ اعداد القسوات (٤) العسكرية لمواجهة جيش عمرو . وكان حاكم حصن بابليون من الروم يسمى (الاعمق)

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢٦٠ - ٢٦١

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٤٣

(٣) المصدر السابق ص ٢ - ٣

(٤) المصدر السابق ص ٥٣ - الكتدي : الولاة والقضا ص ٨

واراد المقوقس الا تبلغ المصريين اخبار انتصارات العرب في الشام وتخذل الروم امام الفاتحين فبعث رسالا الى الحدود المصرية لمنع دخول القادمين من بلاد الشام حتى لا ينقلوا اخبار الانتصارات العربية فيضفوا الروح المعنوية . (١)

بدأ القتال بين العرب الفاتحين والروم عند (القوما) لمدة شهر وانتصر المسلمون . (٢) وتشير بعض الروايات التاريخية الى مساعدة قبط القوما لمعمر بن الحارث وذكرا انه كان بالاسكندرية أسقف للقبط يسمى (ابو ميامين) لما بلغه اخبار قدوم عمرو بن الحارث على رأس الجيش الاسلامي كتب الى القبط يهزمهم بقرب زوال الحكم البيزنطي في مصر وطلب من القبط مساعدة العرب . (٣) والواقع ان (ابو ميامين) هذا هو الاب (بنيامين) بطرك القبط اليمانية في مصر السدي بادر بالخروج من الاسكندرية عند قدوم المقوقس اليها حاكما لمصر وطركا للملكانيين فيها . وقد لجأ هذا البطرك الى بعض اديرة الصعيد .

ونستخلص من كتابات المؤرخين عن أولى مواقع الفتح العربي ان المقوقس لم يبادر بارسال نجدة لاهل القوما عندما علم بحصار العرب لهم . ويصور (بتلر) (٤) موقف المقوقس بأنه أول خيانة ارتكبها في حق دولته ويذهب الى انه كان يرس الى فصل الاسكندرية عن القسطنطينية بالاتفاق مع العرب المسلمين ومساعدتهم ضد الدولة البيزنطية . كما ان المقوقس — فيما بعد — لم يهتم ايضا بارسال نجدة الى ابنته ارمانوسه في بلبيس حتى نجح العرب في فتح هذه المدينة .

(١) الواقدي : فتوح الشام ج٢ ص ٦٤

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٤ — ابن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٥

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٢ — ٥٣

(٤) بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٨٨ — ١٨٩

تقدم عمرو بن العاص في الاراضى المصرية دون اى مقاومة تذكر حتى وصل الى بلبيس حيث دار القتال لمدة شهر تقريبا حتى فتحها المسلمون^(١) وينفرد الواقدي^(٢) بالاشارة الى تقدم (يوقنا) صاحب حلب على رأس بعض الجنود حتى وصل الى بلبيس حيث ارمانوسه ابنة المقوقس كما ارسلت ارمانوسه الى ابيها تخبره بتقدم الجيش العربى ، وتطلب منه الاستعداد لمواجهة العرب وجميع المقوقس كبار رجال الدولة وسألهم المشورة فاقترحوا عليه ارسال جيش الى ارمانوسه لمساعدتها ضد العرب الى جانب الاستنجد بجيرانه لمناصرته وجمع الجيش من جميع مدن مصر استعدادا لمواجهة الجيش العربى ولكن المقوقس رفض مشورتهم واعلمهم بانه مهما استمد فلن يقوى على مناهضة العرب وانه من الحكمة ان يرسل الى ابنته كتابا يطلب فيه منها التلطف فى معاملة (يوقنا) ومن معه من الجنود العرب ومنحهم الامان وارسالهم اليه لتطيب خاطرهم .

فلما علمت بذلك ارمانوسه ارسلت الى يوقنا تخبره بما كتب ابوها اليها . ودار قتال بين الجيش العربى وجند ارمانوسه انتهى بانتصار العرب واسرهم لارمانوسه واحسن عمرو بن العاص معاملتها وارسالها معززة مكرمة الى ابيها المقوقس فى صحة قيس بن سعد الذى قال للمقوقس فى حديث طويل له معه : " ايها الملك لا بد لنا منك ولا ينجيك منا الا الاسلام او الجزية او القتال " فوجه المقوقس بمرض الامر على قومه وهم وثوقه بعدم استجابتهم لامر من هذه الامور الثلاثة لانهم قوم غناد ولان قلوبهم قاسية من اكل الحرام^(٣) .

ثم مضى عمرو بن العاص على رأس جنده دون مقاومة تذكر حتى وصل الى قرية (أم دنين)^(٤) حيث اشتد القتال وواجه عمرو مقاومة عنيفة جعلته يطلب المدد من الخليفة عمر بن الخطاب الذى سارع بجنده^(٥) وتبدل هذه المقاومة

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٤ - الكندى الولاية والقضاء ص ٨

(٢) الواقدي : فتوح الشام ج ٢ ص ٢٦

(٣) الواقدي : فتوح الشام ج ٢ ص ٢٧ - ٢٠

(٤) أم دنين قرية بمصر بين القاهرة والنيل اختلطت بمنازل القاهرة

(٥) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص (٢٥١) وهى الآن مكان حديقة الازليكية

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٤ - الكندى : الولاية والقضاء ص ٨

على ان البيزنطيين قد ادركوا الان خطورة الموقف فأعدوا العدة لمواجهة الفاتحين العرب. وبعد قتال عنيف انتصر عمرو على البيزنطيين ومن لحق بهم من القبط وهلك كثير منهم ولجأ كثير منهم ^{بحسن} بابليون ومدينة نقيوس (١)

وتذكر بعض الروايات التاريخية القبطية (٢) ان فتح الفيوم كان بعد حصار ام دنين وقبل فتح حصن بابليون كما تشير الى ان عمرو بن العاص قد قام بمطالبة لفتح اقليم الفيوم قبل اتمام فتح ام دنين ولكنه لم يطلقه التوقيق حتى وصله الممدد من الخليفة فتسكن من الاستيلاء على ام دنين ثم وجه جهوده لاتمام الاستيلاء على اقليم الفيوم.

ولكن المؤرخين المسلمين يجمعون على ان فتح الفيوم كان بعد فتح حصن بابليون وليس قبله كما يذهب المؤرخ القبطى حنا النقيوس كما ان الروايات الاسلامية تذكر ان الذى قام بفتح اقليم الفيوم هو احد قواد عمرو (٣)

ويبدو ان اهل مصر من القبط بصفة خاصة بدأوا يقدمون المساعدات الايجابية للعرب الفاتحين بعد استيلائهم على اقليم الفيوم. فقد طلب عمرو من (ابا كبرى) (٤) حاكم دلاحي (٥) ان يبعث الى القوات العربية فى الفيوم بعض السفن لينقلوا بها من الجانب الغربى للنيل الى الجانب الشرقى للسيطرة على ضفتى النيل. (٦) كما طلب عمرو ايضا من (جورج) حاكم اقليم مصران يبنى جسرا على قناة مدينة قليوب حتى يتمكن من فتح المدن المصرية. ونجح عمرو فى فتح مد يبنى اثريب ومنوف بمساعدة القبط له. (٧)

(١) تقع نقيوس على الطريق بين الفسطاط والاسكندرية (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٠٣)

(٢) Chronique de Jean, P. 437.

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢١٧-٢٢٨ - البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٨

(٤) Abaciri

(٥) على الضفة الغربية للنيل جنوب مقيس شرق الفيوم

(٦) Chronique de Jean, P. 439.

(٧) Ibid., P. 439 - 440

وطون القبط ايضا العرب الفاتحين في اقامة جسر ضخم عند بابليون لمنسح السفن من الذهاب الى نقيوس والاسكندرية ومصر العليا من جهة ولتيسير عبور الفرسان العرب للنيل من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية من جهة اخرى واصبح القبط — في الحقيقة — اعوانا للعرب الفاتحين يقدمون لهم الزاوة من المساعدات.

كان الحكام الرومان قد غدروا مدينة (نقيوس) الى حصن بابليون حتى اذا علموا بانتصارات العرب المسلمين في اقليم مصر وساعدة بعض المصريين لهم ياد روا الى الخروج الى الاسكندرية وتركوا في نقيوس طامة صغيرة للدفاع عنها كما بحثوا الى حاكم سنود (١) يحثونه على الدفاع عن الاراضي الواقعة بين فرعى النيل وتخلصى بعض القبط عن عقيدتهم واعتنقوا الاسلام واستولوا على املاك المسيحيين الذين هربوا من وجه المسلمين مؤثرون التمسك بدِينهم (٢).

لن نخوض في التفاصيل العسكرية واخبار سقوط حصن بابليون في ايدي العرب الفاتحين وخاصة ان الروايات تعددت وتختلف وتتناقض ويهملنا في بحثنا — فحسب — الاشارة الى موقف المصريين من الفاتحين العرب.

شدد عمرو وجنده الحصار على حصن بابليون حتى طلب الروم والقبط المتمصون بالحصن التفاوض من أجل الصلح ومنع الامان للمصريين فأجابهم عمرو الى طلبهم على ان يعطى كل واحد منهم للمسلمين دينارا واجبة ورميا وعناية وخفين (٣).

استضاف الروم والقبط — عقب هذا الصلح — جند عمرو بن العاص وقدموا عليهم وقد ارتدوا اليهود (٤) وجلس العرب الى جانب الروم (٥).

(١) بين سنود والمطة ميلان (باقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٥٤)
(٢) Chronique de Jean. P. 440

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٥
(٤) اليهود : جمع البرد وهي كما مخطط يلتحف به (الوسيط ج ١ ص ٤٢)
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٥

رفض الروم والقبط اعتناق الاسلام أو دفع الجزية وأصروا على القتال وحاول
المقوقس جاهدًا اقناعهم بقبول دفع الجزية للمسلمين إلا أنهم أصروا على موقفهم
وأمروا بقطع الجسر بين الحصن وجزيرة الروضة واشتد القتال بين الفريقين * وتحقق
النصر للمسلمين وعند ذلك لم يجد الروم والقبط بدا من قبول دفع الجزية وعقد
الصلح مع المسلمين. (١)

وكتب المقوقس الى عمرو بن العاص بأنه مازال حريصًا على اجابته الى واحد من
الامور الثلاثة التي عرضها عليه وان قومه اقتنعوا بوايه واستجابوا لرغبته ومن ثم طادت
المفاوضات بين الطرفين وتم عقد الصلح بين عمرو والمقوقس بالشروط الآتية :

- ١- يفرض على جميع من بمصر وعلاها واسفلها من القبط ديناران يتساوى في
ذلك الرفيع والوضيع * ومن بلغ الحلم منهم دون النساء والاطفال والشيوخ *
- ٢- ضيافة القبط للمسلمين النازلين عليهم ثلاثة ايام *
- ٣- للقبط ارضهم واموالهم ولا يتعرض لهم في شيء * منها. (٢)

واشترط المقوقس على عمرو ان يترك للروم حرية الموافقة على هذه الشروط
ومن رفضها منهم فله الحرية في الخروج من مصر الى الدولة البيزنطية * وارسل
المقوقس شروط هذا الصلح الى الامبراطور هرقل *

ويجد ربنا الاشارة الى كتاب الامان الذي منحه عمرو بن العاص للمصريين
فهو يرسم الاهداد التي حددها العرب المسلمون لمعاملة اهل مصر وقد كُتب
في هذا الامان:

* بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ما أعطى عمرو بن العاص من الامان
على انفسهم ووطنهم واموالهم وكنائسهم وصابغهم وحرهم ولا يدخل عليهم
عليهم شيء * من ذلك ولا ينتقصن ولا تساكتم التوبة وعلى اهل مصر ان يعطوا

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٦٢-٦٣

(٢) المصدر السابق ص ٦٣-٦٤

الجزية ، اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خصين الف ألف
وعليهم ما جنى لصوهم فان أبى احد منهم ان يجيبه رفع عنهم من الجزية بقدر رهم
وذمتنا من أبى بريقه وان نقص نهرهم من غيبته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك
ومن دخل في صلحهم من الوم والنومة فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ومن أبى منهم
واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ ما منه او يخرج من سلطتنا . عليهم ما عليهم اثلاثا .
في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ، وذمة
ال خليفة امير المؤمنين وذم المؤمنين وعلى النومة الذين استجابوا ان يمينوا بكذا
وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا على الا يفرزا ولا يمتعوا من تجارة صادرة ولا واردة . (١)

ونستنتج من هذا النص التاريخي ان الصلح الذي عقده عمرو بن العاص
مع القوقس عقب الاستيلاء على حصن بابلين كان :

- ١- ينطبق على جميع اهالي مصر في الوجهين البحرى والقبلى فقد كان مقدار
الجزية يمثل مبلغا كبيرا من المال .
- ٢- يمنح الصلح القبط الامان على ارواحهم وعقائدهم واموالهم وكنايسهم
- ٣- يفرض العرب المسلمون الجزية على المصريين ويؤاد قدها او ينقص تبعا
لاحوال الفيضان في كل سنة وكانت تدفع على ثلاثة اقساط سنويا . واصبح
المصريون بذلك (أهل الذمة) .
- ٤- يطبق العرب شروط هذا الصلح على الوم والنومة اذا شاءوا ذلك ،
اما اذا رفضوا الشروط فلهم حرية مفادرة مصر الى حيث يريدون . ويقصد
بالنومة هنا النوبيون المقيمون في الاواض المصرية وليسوا سكان بلاد النومة .

الصفحة
السابعة

(١) الطبرى ج٢ ص ١١٩ - ٢٢٠ .

ابو المطسن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٤ - ٢٥

القلقشندي : صبح الاغصان ج٢ ص ٣٢٤

في القاموس : اللصنت وجمعه لصون : اللص

وحدد عقد الصلح (٢٠ هـ - ٦٤١ م) أمر عمرو بن العاص الجند الروم بضخامة
الحصن على ان يحلوا معهم بعض اموالهم واعطى لهم مهلة ثلاثة ايام يفادون فيها
الارض المصرية . ورفض عمرو تسليم المبايا حتى يستشير الخليفة عمر بن الخطاب .
وقد أمر الخليفة ببرد المبايا . (١)

غضب الامبراطور البيزنطي هرقل عندما بلغه عقد الصلح مع العرب الفاتحين
وكتب الى المقوقس يهينه على ذلك . ويقول له ان الجند العرب اقلية بالنسبة لعدد
القبط وانه اذا كان قبط مصر قد رحبوا بالعرب . وقبلوا اداء الجزية فان عدد الروم
بمصر يزيد على مائة ألف ومعهم السلاح والعتاد . وطلب هرقل من المقوقس ان ينهض
مع الروم لقتال العرب . وكتب هرقل ايضا رسالة مشابهة الى الروم بمصر . (٢)

اما المقوقس فقد كان مقتنعا بالموقف الذي اتخذ من عمرو بن العاص
والمسلمين . كما تمسك بعقد الصلح وحاول اقناع الروم بقبوله . فقال لهم : " واعلموا
معرض الروم والله اني لا اخرج مما دخلت فيه ولا عما صالحت العرب عليه . وانسى
لا علم انكم سترجعون قدا الى قولي ورأى وتنصون ان لو كنتم اطعتموني . وذلك
اني قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم يماين الملك ولم يره . ولم يعرفه ويحكم . انا يرضى
احدكم ان يكون آمنا في دهر على نفسه وماله وولده بدنا رين في السنة " . (٣)

أخبر المقوقس عمرو بن العاص برفض الامبراطور هرقل للصلح . وانه كتب
اليه والى جماعة الروم بمصر ينقض الصلح ومواصلة القتال . واكد المقوقس لمصر
انه هو والقبط متمسكون بالصلح ويتنفذ شروطه ثم طلب من عمرو الموافقة على امور
ثلاثة : اولها : احترام عهود القبط واعتباره واحدا منهم . وثانيها : الا يقدم
عمرو على مصالحة الروم حتى يصبحوا ارقاءا رفقا للمسلمين . وثالثها : ان يأمر

(١) الطبري ج ٢ ص ١٩ - ٢٠ - ابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٢٩٦

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٦٤ - ٦٥

(٣) المصدر السابق ص ٦٥

عمرو عند وفاة المقوقس يدفن جثمانه في كنيسة بالاسكندرية. (١)

ووافق عمرو على ما طلبه المقوقس في مقابل مساعدة القبط له ضد الروم خلال زحفه الى الاسكندرية. فيضمنوا له سلامة الجسور على النيل ويقدموا المساوى والضيافة للجند المسلمين. وقدم القبط كل المساعدات الممكنة للجيش العربى. (٢)

مدى معاونة المصريين للفتح العربى :

ساعد بعض القبط عمرو بن العاص اثنا حصاره لحصن بابليون فقد تقدم اليه فريقان — على التوالي — احدهما بقيادة (ميناس) والاخر بقيادة (كرمثاس بن صمويل) وقد قدما من الشاطئ الغربى للنيل وهم جميعا من اهالى اقليم الفيوم ويغضون الروم. ويتصفون بالجسارة والاقدام. (٣) وكانت المعاونات التى يقدمها القبط للجيش العربى تدعم جهود الفاتحين ، وتضعف من مقاومة الروم وتخرج موقفهم وتقلل من هيبتهم.

وانخذت المساعدات التى قدمها القبط المصريون للجيش العربى صورا عديدة نذكر بعضها . ففى اثنا حصار حصن بابليون جمع القائد البيزنطى (تيودور) جيشه بين فرعى النيل فلما علم عمرو بذلك أسرع بالزحف بكنيسة من الجند مطذبا الفرع الشرقى للنيل . وفى نفس الوقت بحث تيودور قائد يسن من قواده . (٤) الى سنود لمتابعة العرب وطلب من الجند القيميين بها مساعدتها ضد العرب الا انهم ابوا قتال العرب . (٥) وكان معظم هؤلاء الجند من القبط الذين كرهوا الحكم البيزنطى ورأوا فى الفتح العربى تحريرا لهم .

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٧

ابن البطريق : التاريخ المجموع ص ٢٤

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٦٥

Chronique de Jean. P. 443.

(٣)

(٤) هما ياكبرى وساتقارى

Chronique de Jean. P. 440.

(٥)

ويرى بعض المؤرخين ان استيلاء المسلمين على الحصن كان خيرا انتقاسا
للقبط من الروم الذين لم يراعوا حرمة عيد الفصح فأخرجوا في هذا اليوم القبط
الارثوذكس الذين كانوا في سجن الحصن لرفضهم اتباع مذهب الامبراطور الديني .
وأساءوا معاملتهم فانها لوا عليهم ضوا بالسياط وقطعوا أيديهم . (١) وفي الحقيقة
كان هذا الاضطهاد هو حقة في سلسلة طويلة عانى القبط المصريون منها طويلا .
فهر العصر البيزنطي . ولا شك ان هذه الاضطهادات المتكررة كانت من العوامل
التي دفعت بهؤلاء الاقباط الى كراهية الحكم البيزنطي وتقديم المعاونات للفاتحين
العرب .

وبعد استيلاء عمرو بن العاص على حصن بابليون فكر في فتح الاسكندرية فقد
رفض الامبراطور هرقل الصلح الذي تقدمه القوقس مع عمرو وبعث قوات بيزنطية كبيرة
أغلقت ابواب الاسكندرية وتأهبت للقتال . (٢)

وخلال زحف عمرو بن العاص الى الاسكندرية لقي كثيرا من المساعدات والمعاونة
التي قدمها القبط المصريون فقد اصلحوا الطرق واقاموا الجسور ولم يلق
عمرو اية مقاومة على طول الطريق من حصن بابليون الى الاسكندرية حتى بلغ
شرطوط . (٣) حيث التقى بالقوات البيزنطية وانتصر عليها وهربت حاميات المدن
الى الاسكندرية .

عسكر عمرو بن العاص قرب الاسكندرية وكان معه رؤساء القبط الذين قد مسوا
الطعام للجنود العرب والملف لخيولهم ودلوهم الى الطرق والمسالك المؤدية الى
الاسكندرية . (٤)

Chronique de Jean. P. 447.

(١)

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٦٦

(٣) قرية بين الاسكندرية ومصر وسها أسواق كثيرة وكتيبة كبيرة ومناصر للمكسر

وساتين (ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٢٧)

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٦٧

والحقيقة ان أهل المدن المصرية اللججورة للاسكندرية انقسموا الى فريقين — فريق مع القائد البيزنطى المام تيودور وفريق آخر يؤيد الجيش المصرى • وانتشرت فى البلاد حرب أهلية • فكان كل فريق يهاجم الفريق الآخر •

وفى الاسكندرية كان هناك بعض الحكام والقواد البيزنطيين الذين لاذوا بالفرار الى الاسكندرية الى جانب بعض أهالى الدلتا من القبط والروم • وساد الاسكندرية جو من الاضطراب والانقسام فقد تنازع الرؤساء والقواد والحكام كما انقسم أهالى الاسكندرية والمهاجرون اليها الى فريقين متخاصمين ونشب القتال بينهما وراحت ضحيته اعداد كبيرة من الاواح • (١)

وكان الامبراطور هرقل حريصا على الاحتفاظ بالاسكندرية • فكان يقول :
" لكن غلبوا على الاسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكهم " • واخذ يستعد للخروج بنفسه للدفاع عنها الا انه مات كعدا • فاشتد ساعد العرب وزادت تحاسنهم • (٢)

وتذكر بعض المصادر التاريخية ان القوقس طلب من عمرو بن العاص انهاء حصار الاسكندرية الصلح والمهادنة لمدة مميعة فرفض عمرو • ثم تقول هذه المصادر " الا ان القبط فى ذلك يحبون المهادنة " • (٣)

ولن نخوض ايضا فى تفاصيل فتح عمرو لمدينة الاسكندرية • وقد انتهت الامر بحقد الصلح • وشروطه هى :

- ١ — يدفع الجزية كل من دخل فى المقعد •
- ٢ — يبقى المسلمون فى اماكنهم دون تدخل فى اى عمل وبدون تعدل فى اى اى وضع حتى يجلو جنود الروم •
- ٣ — يجلو الجند الروم عن الاسكندرية خلال احد عشر شهرا ويحملون معهم ممتلكاتهم ومنازلهم ومن اراد منهم الرحيل عن طريق البر يدفع جزية شهرية حتى يتم رحيله عن ارض مصر •

Chronique de Jean. PP. 450 - 451. (١)

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٦٩

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢٢ — ابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٣٩٢

- ٤— يأخذ المسلمون رهائنًا مائة وخمسين من المسيحيين وخمسين من المدنيين.
- ٥— لا تعود القوات البيزنطية ثانية إلى الاسكندرية.
- ٦— يعود السلام ويتوقف القتال بين المسلمين والروم.
- ٧— يتمهد المسلمون بحماية كنائس المسيحيين ومنحهم الحرية الدينية.
- ٨— يسمح لليهود بالإقامة في الاسكندرية. (١)

أخذنا هذه الشروط عن المؤرخ حنا النقيوس وما لاشك فيه ان سماح عمرو بن العاص لليهود بالإقامة في الاسكندرية — اهم مراكز نشاطهم — كان مكافأة لهم لعدم تدخلهم في قتال المسلمين والتزامهم الحياد طوال أحداث الفتح وفقى اليهود في الاسكندرية وأدوا للحكومة الإسلامية الجزية. (٢)

وإذا ناقشنا شروط صلح الاسكندرية نجد ان الشرط الاول قد جعل اهالي الاسكندرية اهل ذمة يؤدون الجزية في مقابل الدفاع عنهم وتأمينهم على انفسهم ، وعلى مصالحهم وممتلكاتهم وكان هذا الشرط ايضا احد شروط صلح بابليون . ومن الشروط المشتركة ايضا في الصلحين حماية المسلمين لكنائس القبط وغيرهم من المسيحيين . وعدم التدخل في شئونهم الدينية اما فيما عدا ذلك فهي شروط خاصة بمدينة الاسكندرية وشعبها . مما يعيز هذا الصلح عن صلح بابليون .

بعد عقد هذا الصلح عاد الفوقس الى الاسكندرية واخبر الحكام والقواد وكبار رجال المدينة من الروم بما تم بينه وبين عمرو بن العاص وما تضمنه الصلح مع المسلمين بينما لم يعلم سائر اهالي الاسكندرية شيئا عن هذا الصلح . فلما قدم بعض المسلمين الى الاسكندرية لحمل الجزية المقررة في الصلح . اراد بعض سكان المدينة مقاومتهم الا ان جيش الروم طرد ذلك فثار الشعب وانتشرت

Chronique de Jean, P. 455.

(١)

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٤
ابن بطريق : التاريخ المجموع ص ٢٦
ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٢

الفوضى في الاسكندرية بل ارادوا قتل المقوقس ورجعه بالحجارة تعبيرا عن سخطهم لعقده الصلح مع المسلمين. (١)

وخرج المقوقس الى المتظاهرين والثائرين لتهديتهم وتوضيح حقيقة الموقف فمذكرا انه اقدم على عقد هذه التسوية لمصلحتهم ولا نقاذهم هم وأطفالهم . وتوصل اليهم لقبول الصلح . وسلم أهالي الاسكندرية أخيرا بقبول الصلح وحملوا كثيرا من الاموال الى المقوقس ليدفع الجزية المقررة عليهم للمسلمين . وما تجدر الاشارة اليه ان المقوقس حمل الجزية بنفسه الى عمرو بن العاص (٢)

كان استقرار الحكم الاسلاني في الاسكندرية يقضى على كل امر في عودة الحكم البيزنطي الى مصر وقد فترت الطامة للقتال ورأى معظم أهالي مصر الدخول فيما دخل فيه سائر الناس من العهد . ومن ثم تم فتح كثير من المدن الدلتا صلحا ، بمعهد بين حاكمها وبين المسلمين ومن هذه المدن اخنا ورشيد والهرلس . وفرض العرب عليهم في الصلح " دينارين على كل انسان جزية " وأزاق المسلمين التي جانب شروط سنة لا يخرجون من ديارهم ولا تنزع نساؤهم ولا كنوزهم . ولا أراضيهم ولا يزداد عليهم . (٣)

وهكذا تم للمسلمين فتح البلاد المصرية واستقرت الامور لهم فيها . الا ان الاسكندرية ما لبثت ان نقضت الصلح (سنة ٢٣ او ٢٥ هـ) (٤) ولا شك ان البيزنطيين هم الذين نقضوه وليس القبط المصريون . ونجح عمرو بن عبد جهود عسكرية عديدة فسي استرداد الاسكندرية . (٥)

Chronique de Jean. P. 456.

(١)

Ibid. P. 456.

(٢)

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح البلدان ص ٧٧

ابو عبيد : الاموال ص ١٤١ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٣

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٣٥

اختلف الكتاب المحدثون في الرأي حول موقف قبط مصر من العرب الفاتحين ومدى ترحيبهم بالمسلمين ، ومدى تقديم المساعدات اليهم .

وينسب المستشرق (توماس أرنولد) ^(١) النجاح السريع الذي أحرزه الفاتحون العرب الى ما لقيوه من ترحيب المصريين الذين كرهوا الحكم البيزنطي الظالم ، ولما أضمره من حقد مرير على علماء اللاهوت فان الهماقية — وهم يكونون السواد الاعظم من المصريين — قد عملوا معاملة مجحفة من اتباع المذهب الطلحاني التابعين للإمبراطور .

وما لاشك فيه ان بعض القبط وقف موقف الحاد لان ترحيبهم بالعرب معناه انتقالهم من تبعية الى اخرى وهم بذلك لن يتمكنوا من اجلاء العرب والبيزنطيين مما وفي وقت واحد كما ان فرقا من القبط حارب الى جانب الروم البيزنطيين اذ كانوا يستوقمون اقتصار البيزنطيين على العرب ^(٢)

ويرى احد الكتاب المحدثين انه لما قدم العرب الى مصر فاتحين احتاجوا الى من يشد أزهرهم فوجدوا في القبط خير معين وان كان ليس هناك ما يدل دلالة واضحة على مساعدة القبط العرب في تقدمهم من العرش حتى فتح حصن بابليون ، الا انه من الثابت انهم لم يساعدوا الروم ضد العرب بل امدوا العرب بالعطائف والعتون وغيرها ^(٣)

ويرى (هاردي) ^(٤) ان القبط نظروا الى الفاتحين العرب على انهم منقذون ومحررون لهم ما كانوا يلاقونه ويمانون منه فقد كانوا يفضون الروم بفضلا شديدا لما قاسوا على يد القوقس وقد ادرك المسلمون حقيقة مشاعر القبط مما جعلهم اكثر جرأة وسالة في القتال .

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٢٣

(٢) سيده كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ١٨٦

(٣) علي ابراهيم حسن : مصر في المصور الوسطى ص ٤٨

(٤)

والحقيقة ان المصريين رحبوا بالفتح المصري الذي يقضى على الاوضاع القائمة
الظالمة والدليل على ذلك تمرد بعض القواد وعسايا بعض الطميات ورفضها قتسال
المسلمين. (١) ويذكر (سيلفستر شولير) (٢) ان القبط لم يرتكبوا خيانة ففسى
حق الدولة البيزنطية فقد كانوا من قبل ساخطين على فساد الادارة وسياسة الامبراطور
الدينية ولذا كان من الطبيعي ان يخضع القبط ويسلمون للمرب الفاتحين تخلصا
من طغيان الروم واستبدادهم ويؤكد المؤرخ رأيه برواية تذكر ان الرهبان قد تركسوا
أدبرتهم وانضموا الى الجند المسلمين ضد الرومان. كما انه عندما حاول البيزنطيون
غزو مصر ثانية كان موقف القبط اكثر وضوحا. وقد انطزوا الى جانب المسلمين وقد موأ
اليهم كل مساعدة ممكنة.

ويذهب كتاب محدثون آخرون مذهبها مخالفا ، فينفون الآراء التي تذهب
الى ان القبط رحبوا بالفاتحين العرب وقد موأ لهم المون والمساعدة . وهؤلاء الكتاب
يستندون في آرائهم على ان المسلمين اخفقوا في فتح بعض المناطق ووجدوا كثيرا
من الصعوبات والمقبات في فتحها . (٣)

ويقف بعض الكتاب المحدثين موقفا وسطا فيذكرون ان القبط قد انقسموا
الى فريقين متميزين في موقفهم فقد انطز فريق منهم الى الروم بينما ابدى فريق
آخر ترحيبه بالمرب . (٤)

ومعد هذا المرض لآراء الكتاب المحدثين حول موقف القبط من الفاتحين
المرب يمكننا ان نقول انه ما لاشك فيه ان كثيرا من القبط قد ساعدوا المرب
في تقدمهم في الاراضى المصرية وقد موأ لهم كل مساعدة وكل تأييد ممكن .

(١) The Encyclopedia of Islam, Art Kibt, Vol.2.P.990

(٢) Sylvester Chaileur: Histoire des Coptes, PP.93-94

(٣) بتلر : فتح المرب لمصر ص ٢٥٩ وما بعد ها .

(٤) اسد رستم : الروم جا ص ٣٥٢-٣٥٣

وكان ذلك نتيجة ^{البيمية} لما قاموه من الاضطهاد والصيف لمدة عشر سنوات * ونستند
في ذلك على أقوال ^{المؤرخين} المؤرخون القدماء *.

فقد كتب اسقف القبط بالاسكندرية (ابو ميامين) عند قدوم الجيش العربي الى
مصر الى القبط بيشير عليهم بالتحريض بالمعرب فلم تكن لليوم دولة كما قدم قبسط
الفرما كثيرا من المساعدات للجيش العربي * (١) ما فتح الطريق امام العرب وكتاب
هوقل الى القوقس يوضح حقيقة موقف القبط وكواهيتهم للقتال * واستعدادهم لدفع
الجزية وقد جاء في هذا الكتاب : " . . . انما اتاك من العرب اثنا عشر ألفا * وبصر
من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال واحبوا اداء
الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان هلك من بصر من اليوم وبلا اسكندرية ومن
ملك اكثر من مائة ألف * " (٢)

ومن الروايات القديمة التي تثبت تحريض القبط بالعرب وتقديرهم المعاونات
لهم هذه الرواية : " ان عمرو بن العاص قد خرج بالمسلمين حين امكنهم الخروج
من حصن بابليون ومنه جماعة من رؤساء القبط * وقد اصلحوا لهم الطريق ولقاسوا
لهم الجسور والاسواق وصار لهم القبط اعوانا على ما ارادوا من قتال الرومان * "

وأشار بعض المؤرخين صراحة الى ان مساعدة القبط للعرب الفاتحين ظهرت
بوضوح بعد فتح العرب لاقليم الفيوم * (٣)

والحقيقة ان العامل الرئيسي لنجاح الفتح العربي لمصر ولنهاية الحكم
البيزنطي هو السياسة التي انتهجها الامبراطور هوقل والمعاملة التي عامل
بها القبط الارثوذكس وما لقيه هؤلاء القبط من بطرك الملكانيين * وقد رأى بعض
المصريين انهم لا يخشون شيئا اذا قبلوا الحكم العربي بدلا من الحكم البيزنطي

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٥٤

(٢) المصدر السابق ص ٦٤

(٣)

فكل من الحكمين بالنسبة لهم حكم اجنبى وقد خبروا حكم الروم سنوات طويلة وانسوا من فسادهم ومظالمهم وتوقعوا ان يكون الحكم العربى أخف وطأة او اكثر تسامحا وخاصة ان العرب يدعون بعقيدة تخالف عقيدة المصريين المسيحية فتنتهي بذلك الخلافات الطائفية التى سادت دهورا وادت الى اضطهاد القبط كما كان كثيرا من القيسسط قد سمعوا بسياسة التسامح التى اتبعتها العرب الفاتحون نحو المسيحيين فى بلاد الشام.

كما ان الجزية التى فرضها العرب وقبلها القبط كانت تتضاءل كثيرا اذا قارنها بالضرائب الباهظة التى كان يؤدها المصريين للدولة البيزنطية وقد اثقلت كواهلهم وادت الى كثير من المساوىء الاقتصادية ولمس قبط مصر تواضع العرب ومساطمتهم مما شجعهم على الخلاص من سياسة التفرقة المنصورية التى اتبعتها الروم فى حكمهم مصر.

اما يهود الاسكندرية فقد كانوا قد استقروا دهورا طويلا فى هذه العاصمة وامتزجوا باهلها من القبط المصريين . وشاركوهم ظاهريا مشاعرهم وكراهيتهم للحكم البيزنطى . وهؤلاء اليهود وان كانوا فى الحقيقة يعضون الظالمتين المسيحيين على السواء لاختلافهم معهم فى العقيدة الا انهم آثروا اخفاء بغضهم . حرصا منهم على مصالحهم المادية ونشاطهم الاقتصادى.

وكان الفتح العربى مفاجأة لليهود الاسكندرية وقد جعل موقفهم حرجيا . فقد كانوا فى الحقيقة لا يريدون اقحام انفسهم فى معارك حرية او خلاف سياسى . او نزاع طائفى ويريدون التفرغ التام لنشاطهم الاقتصادى الواسع النطاق الذى يمارسونه منذ سنوات طويلة فى الاسكندرية مما جعلهم يسيطرون على كثير من المرافق الاقتصادية وقد خشوا نتائج مساعدتهم للحلطات البيزنطية الطمعة . فقد تحقق النصر للعرب كما تخرجوا من تأييد الفتح العربى فقد يكون النصر للروم مما يمرضهم لمخطهم واضطهادهم . كما كان هؤلاء يكرهون اليهود ويدركون حقيقة مشاعر القبط المدائية نحو الروم .

ولهذه الاسباب كلها ، أثر اليهود انتهاج سياسة الحياد التام والوقسوف موقفا سلبيا تجاه الاحداث الدائرة في داخل الاسكندرية وخرجها . وفي الحقيقة لم يكن العرب الفاتحون في حاجة الى معارضة هؤلاء اليهود فعدد هم قليل اذا قارن بهم بعداد القبط الذين يمثلون غالبية سكان مصر . كما ان اليهود لم يكونوا قوة عسكرية بل اتجه كل اهتمامهم الى الشؤون الاقتصادية . وقد قدر العرب لهؤلاء اليهود موقفهم فسمحوا لهم بالبقاء في الاسكندرية .

وقد كان العرب في الحقيقة — على جانب كبير من الفطنة والذكاء — حينما اتخذوا هذا الموقف من اليهود فقد كان هؤلاء اليهود في الاسكندرية هم مصب النشاط الاقتصادي وكان جلاؤهم من المدينة يوقف هذا النشاط في وقت يريد العرب الفاتحون تحقيق الاستقرار . ولا شك ان الاقتصاد هو اساس الاستقرار السياسي والاداري والاجتماعي . كما ان العرب أرادوا ان يثبتوا لجميع اهالي مصر انهم يكافئون كل من لم يقف موقفا عدائيا . كما كان العرب يخشون من مطولة السروم استمادة الاسكندرية ، ولهذا رأوا ان يضمنوا حياد اليهود مرة أخرى .

وفضلا عن ذلك كانت هذه السياسة التي انتهجها العرب المسلمون نحو اليهود هي جزء من سياسة التسامح الاسلامي نحو اهل الذمة في كل مكان . موسى شجعهم على الاقبال على الاسلام وعلى تعلم اللغة العربية ثم الاندماج في الحياة العربية .

٢- القبائل العربية الواقعة على مصر

تم الفتح المصري لمصر في سنة ٢٠ هـ (٦٤١م) وأخذ العرب المسلمون يتوافدون على مصر بعد الفتح سواء أكانوا جنوداً أم مهاجرين إذ استهوتهم مصر وما سمعوا عن خيراتها وثروتها • وبعض السنين ازدادت هجرة القبائل العربية النازحة إلى مصر وامتزج العرب بالمصريين الذين ^{صحبوا} بلختهم ود بينهم لأول مرة في تاريخهم الطويل طواعة واختياراً ليصبحوا جزءاً من الأمة العربية الإسلامية •

قدم عمرو بن العاص إلى مصر فاتحاً معه أربعة آلاف جندي • ثم تبعه الزبير بن العوام بعدد قدره ثمانين ألف جندي • (١) ثم وفدت قوات أخسرى مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح • ولو تتبعنا عدد من وفدوا على مصر من العرب في ربع القرن الأول من الفتح (١٨-٤٣هـ) لوجدناهم يهضغ عشوات من الألوف • نزلوا مصر واقاموا في القسطنطينية والجزيرة والاسكندرية وبعض جهات الصعيد • (٢) كما ان قوات الجيش المصري لم تقهضه دائمة في القسطنطينية التي بنيت كمعسكر لها ولكنها كانت تتحرك داخل البلاد لأسباب مختلفة تتعلق بالامن • وايضا للعناية بالخيول وتسميتها فيما يعرف بالارتباع •

ومن أجل تأمين البلاد واحكام السيطرة عليها كان لابد من إقامة قوات من الجنود في الثغور وعلى سواحل مصر بصفة دائمة وهو ما يعرف في المصطلح العسكري المصري باسم (المهاط) (٣) ونظراً لأهمية الاسكندرية وأهمية موقعها • خصها عمرو بن العاص بربع قواته وجعل بها آخرها في بقية السواحل على حين اقام النصف الباقي من قواته معه في القسطنطينية (٤) كما كانت حامية الاسكندرية تستبدل كل ستة أشهر بقوات أخرى وربما كان ذلك لتجديد نشاط وحيوية هذه الحامية ولتكون دائماً على أهبة الاستعداد لصد مطولات الوم لغزو الاسكندرية •

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٩

(٢) القزويني : البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب (تحقيق عبد المجيد عابد بن) ص ٩٩

(٣) عبد الله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ص ٤٩

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٢ •

فيقول ابن عبد الحكم (١) : " وكان يصير بالاسكندرية خاصة الريح في الصيف بقدر ستة أشهر ويمتد بهم شاتية ستة أشهر وكان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من اصحابه واتخذوا فيه أخاذاً " .

كما كان الخليفة عمر بن الخطاب يرسل في كل سنة غازية من اهل المدينة ترابط في الاسكندرية على ان العرب الذين اتوا في الاسكندرية لم يخطوا بها وانما سكنوا منازلها ، فمن اخذ منزلاً نزل فيه هو وأهله " فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحاً فيها فتكون له ولاهله " . (٢)

ومن أشهر القبائل العربية التي سكنت الاسكندرية (لخم) و (جزام) و (كندة) و (الازد) و (الحضرية) و (خزاعة) و (المزاعة) وغيرها وكلها بمنزلة . وقد عهد اليها عمرو بن العاص بحراسة المدينة والدفاع عنها . (٣) واستمر وفود القبائل العربية على الاسكندرية كما اخذت حاميتها في الازد ياد كلمنا استشعر المسلمون الخطر على الاسكندرية ففي خلافة معاوية بلغت طامة الاسكندرية اثنا عشر الفا زدت حتى وصلت الى سبعة وعشرين الفا بقيادة علقمة بن يزيد الخطمي . (٤) ولا ريب ان اقامة هذه الاعداد الكبيرة في الاسكندرية وفي مثل هذا الوقت المبكر من الفتح كان لها اثرها الكبير في التمريب .

كذلك وزع عمرو بن العاص ريع قواته على السواحل فيما بين المريش ولوبيسة فأقامت القوات العربية في القرى والاشتم ودمياط والبرلس ورشيد كما كان يقيم في تلك الثغور فرق من المتطوعة وجماعات من اهل الديوان . (٥)

(١) المصدر السابق ص ١٣

(٢) المصدر السابق ص ١٣٠ - ١٣١ - البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٣٠

(٣) المقرئ : البيان والاعراب ص ٢٧ - المبادئ : تاريخ البحرية الاسلامية ص ١٦

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٩٢ - المقرئ : الخطط ج ١ ص ٣٠١

(٥) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٢١١ - عبد الله خورشيد البري : القبائل

العربية في مصر ص ٥٠

وقد ساجب انتشار القوات العربية على طول الساحل الشمالى لمصر بنسب
مدينة القسطنطين واستقرار القبائل العربية بها . فلما رجع عمرو بن العاص من
الاسكندرية اخط دارة فى موضع قسطنطين ونى بجوارها المسجد الجامع ، كما
بنى بجانبها دارا اخرى لابنه عبد الله عرفت باسم الدار الصغرى . (١) واقيمت
عليه القبائل تتنافس فى المواضع ، فولى عمرو على الخطط (اى الطرقات والطرق)
مماوية بن خديج النجيبى وشريك بن سعى الفطيفى ، وعمرو بن فحزم الخولانى ،
وحبيل بن ناضرة المصافى ، فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل ،
وذلك فى سنة ٢١ هـ . (٢)

واخط نحل دار عمرو والمسجد أهل الراية (٣) من قريش والانسار ،
وأسلم وقطار وجهينة وغيرهم ممن لم يكن لمشيرته عدد كبير عند الفتح . وحول
خطة أهل الراية اخطت بقية القبائل مثل مهرة ونجيب ولخم وعافق ومن حاسح
وغطفيل والمصافى ونى وائل وغيرها . وأخذ العرب يقدون على القسطنطين حتى
كان بها فى خلافة مماوية بن أبى سفيان أربعون ألفا . (٤)

واستمرت مدينة القسطنطين فى النمو والانتعاش فى الفضاء الواقع شمالى
بالبلون بين النيل وجبل القطم على الضفة النيل الشرقية . وقد فضلت بمسكن
القبائل كهمدان ومن والاه (مثل آل ذى اصبغ من حمير وياض وغيرهم)
سكنى منطقة الجيزة غرب النيل . فخاف عليهم عمرو لان النهر يحول بينه وبينهم ،

-
- (١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٦ وما بعدها . القريزى : الخطط
ج ٩ ص ٢٩٦
(٢) القريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٦ . ابن دقماق : الانتصار بواسطة محمد
الامصار ج ٤ ص ٣
(٣) أهل الراية : خليط من قبائل مختلفة شهدوا الفتح مع عمرو ولم يكن
لكل منهم من العدد ما يمكنهم من الانفراد تحت اسم واحد .
(ابن عبد الحكم ص ١١٦ . القريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٦) .
(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٨ . القريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٧ .

فكتب الى الخليفة عرب بن الخطاب بشأنهم فأمره بان يجمعهم عليه فان أبوا فليس
عليهم حنا من قى المسلمين فعرض عليهم عمروا ذلك فأبوا . فبنى لهم حصنا
فى الجيزة سنة ٢٢ هـ . (١)

كذلك بلغ العرب القاتحون أقصى الصعيد منذ سنوات الفتح الاولى فى صحبة
عبد الله بن سعد بن أبى سرح عندما كان أميراً على الصعيد . (٢) حيث اتخذ
مقرًا ربه فى أقصى الصعيد فى المنطقة التى كان يسكنها نوبة مصر . واستقر محله
بالطبع عدد كبير من العرب . وكان ذلك سنة ٢٢ و ٢٢ هـ . (٣) اما حلة عبد الله
ابن سعد على النوبة سنة ٣١ هـ فقد رت بعشرين ألف مقاتل . (٤) وهو عدد
كبير ولا شك وكان له تأثيره على الصعيد . ويذكر المقرئى (٥) ان بلدة القيس
التي تجاور البهنسا سميت باسم رجل عرب يدعى القيس بن الطارث كان عمرو
قد بعته الى الصعيد فسار حتى أتى مدينة القيس هذه . فنزل بها فسميت
باسمه .

وهكذا انتشر العرب منذ سنوات الفتح الاولى فى الاسكندرية وعلى طول
الساحل الشمالى وفى القساط . كما انتشروا فى الصعيد .

وهناك عامل مهم ساعد على انتشار العرب فى ريف مصر فى وقت مبكر .
وهو خروج العرب الى الريف فى فصل الربيع وهو ما يعرف بالارتباع . فكانوا
ينطلقون الى القرى والحقول . يقومون من لبنها ويأكلون من خيراتها .

(١) المقرئى : الخطط ج١ ص ٢٠٥-٢٠٦ . ابن سميد : المغرب فسى

ذكر بلاد افريقية والمغرب ص (١)

(٢) السيوطى : حسن المطهرة ج٢ ص ٣

(٣) المقرئى : البيان والاعراب ص ٩٦

(٤) المقرئى : الخطط ج١ ص ٢٩٩

(٥) الخطط ج١ ص ٢٠٤

ويعتكون خيولهم ترمى لتسمن وتشتد . فكان اذا جاء وقت الربيع كتب الوالى لكل قوم برسيمهم ولبنهم الى حيث أحبوا وحدد لهم القوية التى يذهبون اليها وكبيسات اللبن والخراف التى يسمح لهم بالحصول عليها من المصريين .^(١) مع التنبيه على العرب بحسن معاملة من جاؤهم من القبط .^(٢) فتخرج القبائل الى القرى التى حددت لها يمشون من لبنها ويأكلون خرافها ويطلقون خيولهم فى حقن العود .^(٣) حتى اذا انتهى فصل الربيع و " يمس العود وسخن السمود وكثر الذباب وحض اللبن " وانقطع الورد عن الشجر .^(٤) عدوا ثانية الى فسطاطهم .

وكان لكل قبيلة او بضع قبائل مرتبع خاص بها ، فكانت قبائل بلى وممراد وآل ابرهة تأخذ مرتبعها من منف ، وآل عموكرين العاصم ، وآل عبد الله بن سعد ونجيب ياخذون فى وسيم (قرب الفسطاط) وآل فهم وآل ابرهة والمعاقر فى منف . وفى الشمال الشرقى والذى عرف فيما بعد بالحواف الشرقى ، كانت قبائل عمار وأسلم ووائل تأخذ فى بسطة وقريوط وطراوية . وكانت المعاقر فىى اتريب وحضرموت فى عين شمس وأتريب وطائفة من لخم وجذام فى صمان وأبلهل وطراوية . وفى الشمال كانت حمير وعدوان تأخذ فى بوسير ومهرة وحضرموت فى بناء والمعاقر فى سخاء ومدالج فى خربت .

اما فى الجنوب فكانت حركة الارتباع اقل فعراة كانت تأخذ فى الفيوم ، وحير تأخذ فى اهناس ، اما فى الصعيد الاوسط فكانت ترتبع قبيلة واحدة هى خولان التى كانت تأخذ فى اهناس والقيس والبهنسا .^(٥) ويلاحظ ان معظم القبائل كانت تتركز حول الفسطاط شمالا وجنوبا وشرقا وغربا فى شبه دائرة ، بينما

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٤١

(٢) المصدر السابق ص ١٤٠

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق ص ١٤١-١٤٢- القهزى : الخطط ج ٢ ص ٢٦٠

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٤١- القهزى : الخطط ج ٢ ص ٢٦٠

يقول الانتشار كلما ازداد الاتجاه شمالا أو جنوبا. (١) وبعض هذه القبائل سئل
كان يستقر بصفة دائمة في منطقة الارتجاع فقد أقامت قبيلة مداح بخيرتا واتخذتها
مقرا ، وكان معهم نفر من حمير حالفوهم فيها ، فهي منازلهم. (٢) كذلك
استقرت بعض القبائل في الشمال الشرقي (الحرف الشرقي فيما بعد) من لخم
وجذام الذين نزلوا في صان وأبليل وطرا بية. (٣)

وهكذا كانت حركة الارتجاع المنوية عاملا مهما في اختلاط العرب
بالمصريين وتعرف كل فريق على الفريق الآخر منذ سنوات الفتح الأولى ما كان له أثر كبير
في تمريب مصر ونشر الاسلام فيها فيما بعد وفي فترة وجيزة.

وبالإضافة إلى الروابط والارتجاع ساعدت الضيافة على الامتزاج والاختلاط
بين العرب والمصريين فقد كان على المصريين أن يستضيفوا من ينزل عليهم من
المسلمين ثلاثة أيام يقدمون لهم فيها الطعام والمأوى. (٤) فضلا عن العلاقات
اليومية من معاملات وبيع وشراء وتعامل مع الحرفيين والزراعيين والبايعين الاقباط
ما يزيد الصلات من أجل المنفعة المتبادلة مع سيطرة العرب وقيمهم الانسانية ،
ورعايا دينهم بحسن معاملة أهل الكتاب. (٥)

والمعروف أن القبائل العربية في مصر لم تشتغل بالزراعة في أول الأمر
لأن الخليفة عربين الخطاب كان قد نهى الجند العرب عن الاشتغال
بالزراعة أو شراء الأراضي الزراعية حتى يكونوا على استعداد دائم للغزو
والجهاد. (٦) وفي نفس الوقت ضمن لهم معاشهم وأرزاق عيالهم وأن عطاءهم
قائم وأن رزق عيالهم سائل فلا يزورون ولا يزورون. (٧) ولما طلب شريكهم

(١) البري : القبائل العربية في مصر ص ٤٦

(٢) القفري : الخطط ج ٢ ص ٢٦١

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٤

(٤) المصدر السابق ص ٧٠ - ابن حميد : المغرب ص ٢٩

(٥) عبد الله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر ص ٥٥

(٦) القفري : الخطط ج ٢ ص ٢٥٩ - مصطفى حميد : الاسلام والنوبة

في المصور الوسطى ص ١١١

(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٦٢

(او عرب الشمال) وكانت القيسية أقلية في مصر كما كان ابن الحجاب من موالى
 قبيلة سلول القيسية . (١) فأذن له هشام في الحلق ثلاثة آلاف منهم . وتحويصل
 ديوانهم الى مصر على ألا ينزلهم القضاة . (٢) فجاء بهم ابن الحجاب
 وأنزلهم بالحرف الشرقى وفوقهم فيه . وأمرهم بالاشتغال بالزراعة . (٣) ومنحهم
 أموالا من صدقة المشور فاشتروا أبالا فكانوا يحطون الطعام الى القلزم
 وكان الرجل يصيب في الشهر المشورة دنانير وأكثر وأقل ثم أمرهم باشتراء الخيول ،
 فجعل الرجل منهم يشتري المهر فلا يمكث الا شهرا حتى يركب وليس عليهم مؤنسة
 في أكلان بلهم ولا خيلهم لجودة مراعهم . (٤) فلما علم قومهم في البادية بما
 هم فيه من خير أخذوا يتوافدون عليهم في الحرف الشرقى حتى بلغ عددهم
 في ولاية محمد بن سعيد على مصر سنة ١٥٣ هـ خمسة آلاف ومائتى اهل بيت صغيرا
 وكبيراً .

ولاشك انه حدث تحول خطير نتيجة السماح لتلك القبائل بالزراعة ، بمقد
 ان كان الاشتغال بالزراعة منوط . فقد ساعد اشتغال العرب بالزراعة على سرعة
 اختلاطهم بأهل البلاد مما عجل بانتشار الاسلام واللغة العربية في مصر ونفسى
 هذا يقول المقريزى (٦) : " ولم ينتشر الاسلام في قري مصر الا بعد المائة مسن

(٣) ابن عبد الحكم : فتح مصر ص ١٠٢ - المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٤

(٤) المقريزى : البيان والاعراب ص ٩٨ - ٩٩

(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٥ - ٧٦

(١) المقريزى : البيان والاعراب ص ١٠

(٢) ابن عبد الحكم : فتح مصر ص ١٤٣ - الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٦

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٧ - المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٠

(٤) الكندى ص ٧٧

(٥) المصدر السابق

(٦) الخطط ج ٢ ص ٢٦١

تاريخ الهجرة ، عندما انزل عبدالله بن الحجاب مولى سلول قيسا بالحسوف الشرقى ، فلما كان في المائة الثانية من سنى الهجرة ، كثر انتشار المسلمين بقري مصر ونواحيها * .

والى جانب القبائل الموية التي كانت تغد الى مصر ، جرت عادة معظم الولاة على ان يصحبوا معهم الى مصر اعدادا من الجند العرب (١) ففي سنة ٦٤ هـ ارسل مروان بن عبد الحكم ابنه عبد العزيز واليا على مصر فقدم بها ومعه جيش * (٢) وفي بعض الاحيان كان يبلغ عدد الجند المصاحب للوالي عشرين الفا ، فقد صاحب حيد بن قحطبة والى الخليفة العباسى ابي جعفر المنصوره عشرين الفا من الجند سنة ١٤٣ هـ * (٣) اما والى هارون الرشيد سلعة بن يحيى فقد قدم الى مصر سنة ١٧٢ هـ ومعه عشرة آلاف من الجند * (٤) واستقر كثير من هؤلاء الجند في المدن والقرى وتزوج بعضهم من فتيات مريسات * (٥) كما ان معظم الولاة كانوا يقدمون الى مصر ومعهم آلاف من ابناة عسرتهم ليكونوا لهم عونا وسندا * فقد اتى الحوشرة بن سهيل الباهلى الى مصر سنة ١٢٩ هـ ، ومعه آلاف من الابناة * كذلك قدم هرثة بن اعين واليا على مصر في عهد الخليفة هارون الرشيد سنة ١٧٨ هـ فدخل مصر ومعه ألف من الابناة أنزلهم بليبس * (٧) والمعروف ان هؤلاء كانوا يصحبون معهم زوجاتهم وابناةهم * .

(١) كانت الجيوش في مصر الاموى من العربيه بينما ضمت في مصر المباسى خراسانييين واتركا * .

سيدة كاشف : مصر في عصر الولاة ص ١٣٦

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٧٧

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٦

(٤) ابو الطاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٧١

(٥) Lane-Poole : Hist. of Egypt. P. 29.

(٦) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٠٣

(٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٤٧ .

الجند العربى

وقد جرت العادة على ذلك مع أغلب الولاة العرب الذين حكموا مصر،
 حتى عهد غنمة بن اسحاق الضبي والى مصر فى عهد الخليفة المباسم المتوكل
 على الله ، وهو آخر وال مصرى حكم مصر فى عصر الولاة ، ويعدّه أخيراً
 المباسيون يولون غاصر غير عربية. (١)

٣- اثر بناء القنطرة في اتخاذها

مركزا للتعمير

لم يكن الفتح العربى لمصر هو بداية الاتصال بين العرب والمصريين، فقد قامت ببعض الطرفين علاقات قديمة * وكان اهم وسائل الاتصال بين العرب والمصريين قبل الاسلام عن طريق التجارة * ففى الشمال عند شبه جزيرة سيناء كانت تلتقى الصحراء الشرقية ببلاد العرب لقاء دائما او من الجنوب حيث يشتد اقتراب جزيرة العرب من افريقية عند باب المندب فلا يفصل بينهما سوى خمسة عشر ميلا . (١)

ويبدو ان اقوال (هيرودوت) ان الاقسام الشرقية من مصر ولا سيما المتصلة بطور سيناء كانت مأهولة بقبائل عربية . (٢) وكان بعض الاعراب والتجار العرب يقدون الى الصعيد بطريق البحر الاحمر وديان الصحراء الشرقية منسدين امد بعيد حتى ان المؤرخ والجغرافى الرحالة (استرابون) قال عن مدينة (قنسط) بالصعيد انها مدينة دفاع بين المصريين والعرب . (٣)

وكانت بعض الهجرات العربية التى تخرج من شبه الجزيرة العربية قبيل الاسلام - فى الجاهلية - يقد بعض منها الى مصر والشام وتشير بعض المصادر الى " ان قبائل من بلن التى امتدت ارضها الى بوندخ السويس " . (٤) كان منهم عدد كبير فى مصر فى عهد ظهور النصارى . وكانت منطقتهم ما بين القصير وقتنا وعليهم كان الاعتماد فى نقل التجارة . (٥) وقد ازدادت اواصر الارتباط بين العرب والمصريين بتحقيق القنطرة الدائمة فقد قيل " ان ام العرب - هاجروا

(١) حتى : تاريخ العرب ج١ ص ٤ - جولدولسون : الحضارة العربية ص ٤٢

(٢) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام ج٢ ص ٣٤٢

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب ج١ ص ١٣١ - العنبري : البيان والاعراب

ص ٨٤

(٥) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ص ١٠٧

أم إسماعيل بن إبراهيم الخليل من القبط من قرية نحو القنطرة وإسماعيل أبو المصرب كلها * (١) ويقول (بتلر) (٢) أنه في أواخر العصر البيزنطي في مصر كان يعيش بالاسكندرية كثير من المصرب إلى جانب غيرهم من الأفريق والقبط والسوريين —
واليهود *

وقبيل الفتح العربي كان التجار المصرب قد اعتادوا دخول مصر * فكان عمرو بن
الخاصة جراً في الجاهلية وكان يختلف بتجارته وهي الأدم (الجلد) والعطر إلى
مصر * وكان يشهد أعياد أهل الاسكندرية وأهلهم * (٣) وربما اتاحت له ظروف
قدومه إلى مصر مراراً الفرض لمصر في طرق مصر وسالكها * ومن قدم إلى مصر
في مصر الجاهلية للتجارة أيضاً عثمان بن عفان والمغيرة بن شعبة * (٤)

وبانطب الرسول عليه الصلاة والسلام ابنه إبراهيم من كاتبة القبطية تأكدت
الصلات الدائمة والقربى العنصرية بين المصرب والمصريين * وقد رأينا الرسول صلى
الله عليه وسلم يوصي بالقبط خيراً * فقد أشرعنا أنه قال : * ستفتح عليكم بمصر
مصر فاستوصوا بها خيراً فإن لكم منهم صبراً وذممة * (٥)

وقد ذكرت مصر في بعض المواضع في القرآن الكريم مثل قوله تعالى : (اهبطوا
مصر فإن لكم ما سألتم) (٦) وقوله عز وجل (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) (٧)
وقد كان ذلك تأكيداً للصلات بين العرب والمصريين وتدعيماً روحياً للعلاقات
بينهم *

(١) سورة ابن هشام ج ١ ص ٨٧ — ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢ — الكندي :
فضائل مصر ص ٢٥

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٦١

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢ — الكندي : الولاية والقضاء ص ٧ — السيوطي :
حسن المطهرة ج ١ ص ١١٣

(٤) السيوطي : حسن المطهرة ج ١ ص ١٦

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢ — الكندي : فضائل مصر ص ٢٦

(٦) سورة البقرة آية ٦١

(٧) سورة يوسف آية ٩٩

وكان الفتح العربى الاسلامى لعصر وغيرها حدثا فذا فى تاريخ العلاقات الدولية تخض عنه تغيير جذرى لام كثيرة . فقال ولفنسون : ان الهجـرة العربية الاسلامية بعد ظهور الاسلام الى جميع اطراف العالم كانت آخر حداث سامى عظيم وقع فى الجزيرة العربية واخر موجة سامية عظيمة غمرت وجه الارض وهزمت العالم بأسره هذا عنيقا وصدرت عنه تدوجات فكرية ونفسية عظيمة شملت اصقاع اسيا وافريقيا واروپا . وكان من نتيجتها ان تغيرت ام كثيرة هناك . وانقلبت منها كل جوانب الحياة من سياسية ودينية واجتماعية وعبرانية ما ادى الى نتائج خطيرة جعلت التاريخ البشرى فى كل هذه الاتجاهات يتجه اتجاها جديدا . (١)

وقد كان الفتح العربى الاسلامى لعصر حدثا عنيقا فى سلسلة العلاقات العربية المصرية وله اثره الواضح فى التاريخ المصرى فقد بدأ العصر العربى الاسلامى واصبحت القسطنطينية عاصمة لمصر ومركزا لاشعاع الاسلام والمروء طمس مصر .

اعتاد العرب فى قلوبهم ان يؤسسوا فى الاقطار التى يفتحونها مدنا اسلامية مربية جديدة وبذا لاتعمار الاسلام وللحماية الموية وكانوا يتخيرون اماكن هذه المدن الجديدة .

وفى مصر اسس القائد العربى الفاتح عمرو بن العاص مدينة القسطنطينية بعد فراغه من فتح الاسكندرية الفتح الاول (٢) . ويشير المقرئ الى ان انشاء مسجد عمرو بن العاص الجامع كان نواة تأسيس مدينة القسطنطينية فبقول : " ولما افتتح عمرو مدينة الاسكندرية الفتح الاول نزل بجوار هذا

المسجد اساس
الدين الاسلامى

(١) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ١١٢

(٢) المقرئ : الخط ج ١ ص ٢٨٦

هكذا الحصن - أي حصن بابلين - واخطت الجامع المعروف بالجامع المتيسق
وبجامع عمرو بن العاص * واخطت قبائل العرب من حوله فصارت مدينة عرفت
بالقساط ونزل الناس بها * (١)

وقد تعددت آراء المؤرخين حول سبب اختيار عمرو بن العاص لموقع هذه
العاصمة العربية الإسلامية الجديدة كما اختلفت الآراء حول تسمية القساط وسنذكر
بعض هذه الآراء التي بين أبعاد عروبة مدينتنا لقساط وعروبة تسميتها *

ومن هذه الآراء ما يشير إلى اختيار العرب مواقع المدن الجديدة بمساعدة
عن السواحل وتشير الرواية إلى أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ووأى بيوتها
مناء * ما * هم أن يسكنها وقال ساكن قد كفيها * وكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب
بصفها له ويستأذنه في اتخاذها عاصمة فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بيني
وبين المسلمين ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل * فكتب عمر إلى عمرو :
اني لا احب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيفه
فتحول عمرو من الاسكندرية إلى القساط وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي
وقاص وهو نازل بمداين كسرى وإلى عامله بالبصرة وإلى عمرو بن العاص وهو نازل
بالاسكندرية ألا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن اركب اليكم راخلي حتى
اقدم عليكم قدمت فتحول سعد بن أبي وقاص من مداين كسرى إلى الكوفة وتحول عتبة
ابن غزيان إلى البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى القساط * (٢)

وهناك روايات لا تنيل كثيرا إلى تعدد فيها وهي تشبه الروايات التي احدثنا
ان نجد ها في مصادرنا التاريخية ترتبط بنشأة المدن الإسلامية فتذهب هذه
الروايات إلى أن عمرو بن العاص حين اراد التوجه لفتح الاسكندرية بعد امتياله
على حصن بابلين * امر بنزع قساطط أي خيمته وكان قد تركها بجوار الحصن
اتناء حصارهم له * فاذا بطام قد فتح فقال عمرو : لقد تحرم منا بمحترم * فامر

المسيح واليه
البحر والصلوات
والسلام

(١) القرظي : الخط ج١ ص ٢٨٦

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١ - ابن سعيد : الغوب ص ٣٩

القرظي : الخط ج١ ص ٢٩٦ - السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص ١٢

عرض عمرو مسألة اختيار المكان الذى ينزلون به ، فقالوا : ننزل بالفسسطاط .

هذه الروايات يشوبها الخيال وينقصها التحصيل ، لان المواقع الهامة نفسى انطاخ المالم غرقها الايمان منذ القدم وان تسميت اسماء تلك المواقع بتفسير الزمان وربما تنبه العرب الى اهمية موقع تلك المدينة التى اتخذوها عاصمة لمصر اذ يمتاز موقعها بتوسطه بين مصر المغلى ومصر العليا ، وله عدة مزايا تجارية وسياسية وحربية ويذكر (استرابون) ان حصن بابليون الذى يقع قريبا من موقع منف كانت فيه احدى الطاميات الثلاث فى مصر . (١)

ويشير القيرى الى موقع هذه الطيبة البيزنطية فيقول : " ان هذا الحصن الذى يعرف بقصر الشمع والمعلقة كان ينزل به حنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيرة من مدينة الاسكندرية ويقام فيه ثم يعود الى دار الامارة ومنزل الملك من الاسكندرية " . (٢) وما يؤكد اهمية موقع هذا المكان ان المصريين القدماء كانوا قد اتخذوا منف عاصمة لهم مدة طويلة وكانت مدينة هليوبوليس — عين شمس — التى كانت بجانبها متصلة بها من مدينة منف قد بنا عاصمة لمصر ايضا .

وتقع مدينة الفسطاط بين مائتين المدينتين القديمتين ويفصلها عن كل منهما ثلاثة فراسخ الى الجنوب والى الشمال . كما اتخذها البابليون فى القرن السادس قبل الميلاد مكانا لاستقرارهم فى مصر ونوا فيها حناكوريا وجعلها السور عاصمة ثانية لاقليم مصر وصلوا بها بين الوجهين البحرى والقبلى . (٣)

ويصف القيرى موضع مدينة الفسطاط حين اخطبها العرب بأنه كسان فضاء ومزارع نياما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل القطم . وليس

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢١٦-٢١٧

(٢) القيرى : الخطط ج ١ ص ٢٨٦-٢٨٧

(٣) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ج ١ ص ٢٦-٢٧

فيه من البناء والصارة سوى حصن يعرف بمضه بقصر الشمع والمحلة وكان بجوار هذا الحصن من جهته الشمالية أشجار وكروم وصار موضعها الجامع العتيق وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس للنصارى. (١)

تعددت آراء المؤرخين حول لفظ (فسطاط) الذي أطلق على الماصصة الإسلامية الإسلامية الجديدة . ويرى (بتلر) (٢) أن هذا اللفظ مشتق عن الفسسطاء الرومي (فاساتوم) وكان يطلق على حصن بيژنطى قديم كانت آثاره قائمة في ذلك الموضع ، وكان الروم في حصن بابليون إذا ذكروا موضع عسكر العرب سموه (الفساطون) فأخذ عنهم العرب ذلك اللفظ .

ويذكر الجواليقي أن لفظ فسطاط فارسي معرب وقال الخليل عنه ؟ في لغة العرب معناه ضرب من الابنية دون السنادق وقيل مجتمع أهل الكورة حول مسجد جماعتهم . وقال ابن قتيبة : " أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط . ولذلك قيل لمصر فسطاط " . (٣) وتشير معظم روايات المؤرخين إلى أن لفظ الفسطاط نسبة إلى فسطاط عمرو " يعني خيمته " . (٤)

وهناك رأى آخر يذهب إلى أن لفظ فسطاط مشتق من اللفظ اليوناني (فساتون) وهو أيضا مشتق من اللفظ اللاتيني (فاساتوم) الذي كان يطلقه الروم على معسكراتهم الحربية وتزيد أوراق اليردى هذا الرأى ففي أحد الأوراق البردية المكتوبة باللغتين العربية واليونانية بتاريخ ٩٠ هـ وفي أخرى مشابهة بتاريخ ٩١ هـ كان اسمها (باب اليون) و (الفساط) موجودين قبل تأسيس مدينة الفسطاط وقد احتفظ العرب بذلك التسمية بعدما احتلوا المعسكر الحصين (٥)

(١) القرينى : الخطأ ج ١ ص ٢٨٦

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٩

Fassatum

(٣)

(٤) الجواليقي : العرب من الكلام الأعجى ص ٢٤٩ ، باقوت : معجم البلدان

ج ٢ ص ٢٨٠

(٥) ابن دقاق : الانتصار ج ٢ ص ٤٤ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٢٩

ويرى الاستاذ الدكتور مصطفى العبادى ان كلمة فسطاط كانت شائعة
فى ارجاء الامبراطورية البيزنطية بالنسبة للمحركات او الحصون وليس فى مصر
فحسب (١).

عروة مدينة الفسطاط :

ومهما كانت الآراء حول اسم مدينة الفسطاط ، وسواء أكان عربيا او اعجمى
الاصل فقد أصبحت مدينة الفسطاط بعد انشائها فى عهد عمرو بن العاص عريضة
تماما ، فقد قامت حول جامع عمرو بن العاص الذى أصبح مركزا اسلاميا عربيا تلتصق
حوله القبائل العربية (٢).

(٣)

وكانت خطط القبائل العربية قائمة حول جامع عمرو وعلى مقربة من قصر الشمع
وكانت هذه الخطط تمتد من النيل غربا حتى عين الصيرة شرقا ومن جبل يشكر
شمالا حتى الشرق وجبل الرصد (٤) جنوبا (٥) وكانت هذه الخطط بمنزلة
الطواحي التى هى اليوم بالقاهرة ، فقبل لتلك فى مصر خطة وقيل لها فى القاهرة
حارة (٦) وقد اتبع فى تقسيم هذه الخطط نفس النظام الذى اتبع فى تنظيم
الجيش العربى القادم مع عمرو بن العاص لفتح مصر فقد كان جيش الفتح يتكون من
جنود ينسبون الى قبائل مختلفة تمثل كل قبيلة وحدة مستقلة لكل منها رايته الخاصة
وقد وزع عمرو الخط على القبائل فكان لكل قبيلة خطة معينة مثل خطة ميسرة
وخطة نجيب وخطة طافق وخطة المماقر ، الخ . وخصص عمرو اربعة من كبار
الصحابة للاشراف على عملية توزيع الخطط وهم معاوية بن كعب بن الجهم وشريك
بن سبي الفطيمى المرادى وعمرو بن قحزم الخولانى وحيويل بن ناسر المماقرى
فكانوا هم الذين انزلوا الناس وفصلوا بين القبائل (٧).

(١) مصطفى العبادى : ابن عبد الحكم ومصر عند الفتح العربى . مقال بالمجلة

التاريخية (دراسات عن ابن عبد الحكم) ص ٩٤

(٢) القريزى : الخطط ج ١ ص ٢٨٦

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٨ - ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ٢ ص ٤٤

(٤) مكانها الان اسطبل عترة

(٥) عبد الرحمن زكى : خطط الفسطاط - مقال بالمجلة التاريخية (دراسات عن
ابن عبد الحكم) ص ٥٧ - ٥٩

وكانت هناك جماعات قليلة لم يكن لها من العدد ما يسدح بأفراء خطاسة
 خاصة لها فرأى عمرو أن يفرد لهم خطة مجتممين ولم تسم باسم واحد هم وصيت باسم
 (خطة أهل الواية) نسبة الى راية عمرو بن العاص^(١) ولم تكن هذه الخسطة
 لجميع الجند العربى ذلك لان عمرو بن العاص كان قد استبقى نصف قواته للاقامة
 بالفسطاط بينما ارسل فريقا من قواته للمرابطة بالاسكندرية وسائر الثغور المصرية^(٢)

ونرى الشاطىء المواجه للفسطاط اخطأ العرب مدينة الجيزة وذلك لان
 " همدان ومن والاها قد استجبت الجيزة فبنى لهم عمرو بن العاص حصنا بها مسن
 فى " المسلمين بامر الخليفة عربى الخطاب سنة احدى وعشرين وربع من بناة فى سنة
 اثنتين وعشرين " ^(٣) وقد ربطت صلات قوية من الجوار والتبادل والتزواج ما بين
 سكان الجيزة والفسطاط ^(٤)

ولم تقف اعداد السكان العرب بمدينة الفسطاط وغيرها عند الحد الذى
 كان عند انشاء هذه المدينة بل ازدادت اعداد القبائل المصرية باضطهاد نتيجة
 للهجرة او التكاثر ، وكان هناك ديوان خاص لتدوين هؤلاء الجند • فيروى
 ابن عبد الحكم^(٥) : " كان معاوية بن ابي سفيان قد جعل على كل قبيلة
 من قبائل العرب رجلا • فكان على المهاجر رجل يصبح كل يوم فيدور على الجالس
 فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل • ج فيقال : ولد لفلان
 غلام ولفلان جارية • فيقول : سموهم • فيكتبه ويقال : نزل بـ رجـل

== (٦) المقريزى : الخطط ج١ ص ٢٩٦-٢٩٧

(٧) ابن عبد الحكم : فتح مصر ص ٩٨- ياقوت : معجم البلدان ج٢
 ص ٣٨٠

(١) ابن عبد الحكم : فتح مصر ص ٩٨

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٣٨٠- القلقشندي : صبح الاعشى ج٢
 ص ٣٢٦

(٣) ابن عبد الحكم : فتح مصر ص ١١٣

(٤) المصدر السابق ص ١٠٢

من أهل اليمن وعياله فأننا في من القبائل كلها اتى الى الديوان حيث يسجل
اسماء الطارئين الجند في ليغصن لهم نصيب في المظلة

ومنذ بداية تخطيط القسطنطين أصبح لها طابع عربي فيقول المستشرق آدم
ميتز : ان مدينة القسطنطين ومكة كانا على طراز جفوس الجزيرة العربية مثل
مدينة صنعاء (١) وقد كان لسياسة المدينة الجديدة عند تخطيطها ما يبرز
المسحة العربية فقد كان مسجد عمرو بن العاص عند بناءه بسيط البناء مطابقاً
السقف ولم يكن بجدرانته شي من البياض والزخرف وكانت ارضه مفرقة بالحصا
ويشمل الطراز المعمارى لطابع عمرو بن العاص الطراز المشتق من عمارة الحرس
النوبى الشريف وقد استوحى عمرو في تخطيطه وفي العلاقة بينه وبين داره مسجد
النبي صلى الله عليه وسلم وداره بالمدينة (٢)

وكان التأثير بالبيئة المصرية له أثره القمال في تخطيط العرب لمدينة
القسطنطين فقد بنى عبدالله بن عمرو داره التى عند المسجد الجامع قصراً
على تزيين الكعبة (٤) كما ان خارطة بن حذافة كان اول من بنى غرفة بها
فكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص يهدمها حتى لا يطلع على عورات جيرانه
ويقول ابن عبد الحكم (٥) : وكان العرب حين اخطوا المدينة تركت
بينهم وبين البحر (النيل) والحصن فضاء لتأديب اربابهم ولم يزل الامر نفسى
ذلك حتى ولى معاوية بن ابي سفيان فأقطع هذا الفضاء فنهيت الدور بسببه
كما جعل عمرو بن العاص امام داره الكبرى المواجهة للمسجد مرقصاً لدواب
الجند (٦)

(١) ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٢٦٧

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١ ابو المظاضن : النجوم
الزاهرة ج ١ ص ٦٧

(٣) جسن الباشا باخون : القاهرة - تاريخها ، فنونها ، آثارها ص ٤٠٤
- ٤٠٥

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٧

(٥) البعذر السائق ص ١٠٠ ابن دقاق : الانتصار ج ٦ ص ٦

(٦) ابن دقاق : الانتصار ج ٦ ص ٧

ومجمل القول ان اختيار موقع القسطاط قد دل على نظرة صائبة مسن
المرب فقد أثبتت الخفيات انها " قامت على كتلة عظيمة من الصخر تشمل هضابا
وهادا " (١) حتى لا يطغى عليها الماء " (٢) ومن الناحية الحيوية كان
وجودها على رأس الدلتا قد جعلها في مأمن من هجمات المد و فيحى القسطاط
من جهة الشرق جبل المقطم ضد المد وضد فيضان النيل كما كان لها جانب
يمكن ان يضطرد اتساعها منه وهو الشمال فلما احتج الى الاتساع قامت المعسكر
ثم القطائع " (٣)

جامع عمرو كمركز لتشار الاسلام والتعريب :

المسجد هو الموضع الذي يسجد فيه " قال الزجاج : كل موضع يتمسك
فيه فهو مسجد " والجامع تمت للمسجد " وانا نعت بذلك لانه علامة الاجتماع
وما كانوا في الصدر الاول يفرقون كلمة (الجامع) وانا كانوا تارة يقتصرون على كلمة
المسجد وطورا يفرغونها الى النصف فيقولون (المسجد الجامع) او (مسجد
الجامع) ويطلق هذا الاسم عادة على المسجد الكبير لانه مكان اجتماع الناس (٤)

واصبحت المساجد الجامعة اهم مراكز انتشار الاسلام والتعريب والثقافة
في كل الامصار الاسلامية وقد كان المسلمون يحضرون على بناء المساجد
الجامعة عند انشائها المدن في الامصار الفتوحة وكان المسجد هو أبرز صورة
للتعبير عن سيادة الدين الاسلامي وأبلغ رمز للتعبير عن وحدة المسلمين في تلك
الامصار " (٥)

(١) علي بهجت وأبيير جبرائيل : كتاب خفيات القسطاط ص ٢٩

(٢) ناصر خصرؤا مفر تامة ص ١٤٦

(٣) عبد الرحمن زكي / القسطاط وضاحتها القطائع والمعسكر ص ٥

(٤) لبلقزيزي : الخطط ج ٢ ص ٤٠٨

(٥) الخهوطلي : العرب والحضارة ص ١٥

وتقول الرواية الثانية : " لما افتتح عمر الهذلي كتاب الى ابي موسى وهو على البصرة يأمره ان يتخذ مسجدا للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد فاذا كان يوم الجمعة انضوا الى مسجد الجماعة وكتب الى محمد بن ابي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك . وكتب الى امراء اجناد الشام ان لا يتعمدوا الى القرى وان ينزلوا الى الدائن وان يتخذوا في كل مدينة مسجدا واحدا ولا يتخذ القبائل مساجد فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعنده " (١)

وفي مدينة القسطنطينية كان المسجد الذي اتخذه المسلمون للجماعة هو مسجد عمرو بن العاص ، وهو أول مسجد " امريد يار مصر في الطة الاسلامية بعد الفتح " (٢) وكان الفاتحون قد استقروا على انشاءه بمدينة القسطنطينية بعد مشاورات . وأصبح يسمى بمسجد عمرو بن العاص والمسجد الجامع . او المسجد الكبير أو تاج الجوارح وكان بناؤه سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) (٣) وقد شيد على الشاطيء ، فشرق للنبيل من الناحية الشمالية وكان حوله حدائق وكروم . (٤) وكانت المسافة بينه وبين شاطئ النهر حوالي مائتي متر . (٥) وكان الذي طرز موضعه هو قيسية بن كلثوم النخعي أحد بني موم وكان قد نزله نخلل حصار حصن بايليون فلما طرد العرب من فتح الاسكندرية سأل عمرو قيسية ان يقيم المسجد مكان منزله فتصدت به قيسية . (٦) وقد وقف على قبلته من الصلابة الذين شهدوا فتح مصر ثمانون رجلا . وقد كان المسجد في بداية انشائه بعمقه الهاء وكان طوله خمسين ذراعا وعرضه ثلاثون ذراعا . (٧) ولم يكن

(١) القيرزي : الخطط ج١ ص ٢٤٦ - السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص ١٤٩

(٢) ابن دقاق : الانتصار ج١ ص ٥٩ - القيرزي : الخطط ج١ ص ٢٤٦ -

ابو المظن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٦٢

(٣) ابن دقاق : الانتصار ج١ ص ٥٩ - السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص ١٣٢

ابن القدا : المختصر في اخبار البشر ج١ ص ٧٢

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١ - ٩٢ - ابن سعيد : المغرب ج١ ص ٤

يجدر انه شيء من الزخرف او البياض وفرشت ارضه بالحصى" وكان الطريق بطيسف به من كل جهة " فقد جعل له عمرو ستة ابواب في الجهة الشرقية المواجهة لداره بابان ومثلها في الجهة البحرية (الشمالية) وبابان في الجهة الغربية وكمان صقفه مطاطاً جداً ولا صحن له فاذا كان الصيف جلس الناس يفتنائه من كسـل ناحيسة " (١)

ويمثل جامع عمرو اقدم الطرز المعمارية لبناء المساجد واهمها— وهو الطراز المشتق من عمارة الحرم النبوي الشريف اى طراز الجامع الذى يتألف من صحن مربع او مستطيل يحف به من جوانبه الارصة اربعة اعقبها رواق القبلة وقد استوحى عمرو فى تخطيطه وفى الملاقة بينه وبين داره مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام وداره بالمدينة (٢) وحظى جامع عمرو بمناية ورعاية الحكام الذين تعاقبوا على حكم مصر فقد تولوه بالزيادة والتعمير والتجديد حتى بلغت سمته أضعاف مساحة المسجد المتبق ستة عشرة مرة " وقد ثبت تاريخيا وانرا انه لم يتبق غير قليل من عمارة المسجد المتبق وزخرفته لان معالم المسجد المعمارية والزخرفية قد اندثرت معظمها " (٣)

== (٥) المسافة الان بين الجامع والنيل حوالى خمسةة مترا نتيجة تفسير مجرى النهر (فريد شافعى : العمارة المصرية فى مصر ، مصر الزلا ، ج١ ص ٣٦٣)

(٦) القزى : الخط ج١ ص ٢٨٦— ابو المطمن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٦٧
(٧) ابن عبد الحكم : فتح مصر ص ٩١— ابن سعيد : المغرب ج١ ص ٤ — ياقوت : معجم البلدان ج١ ص ٨٩٨

(١) القلشندي : صبح الاعشى ج٢ ص ٣٤١— القزى : الخط ج١ ص ٢٤٧
(٢) حسن الباشا وآخرون : القاهرة ، تاريخها ، وقوانينها ، وآثارها ص ٤٠٤
(٣) احمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ج١ ص ٢٣— ٢٧

وكان لجامع عمرو اهمية كبيرة ، فقد كان ثالث مسجد اقيم في الاسلام ، اذ ان اول المساجد هو مسجد الهمزة الذي اُنشئ سنة ١٤ هـ (٦٣٥ م) ^(١) وكان مسجد الكوفة هو ثاني المساجد في الاسلام ^(٢) ، ونظرا لاهمية جامع عمرو بين الناس فقد كانت صلاة الجمعة تقام به حتى بعد انشاء جامعى المسكر و احمد بن طولسون ^(٣) .

ولم تقتصر اهمية جامع عمرو بين الناس على ادائه الشعار الديني فحسب بل كان هذا الجامع كغيره من المساجد الجامعة في الامصار الاسلامية دار عبادة ومركزا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، وقام جامع عمرو بدور كبير في التمهيد ونشر الثقافة العربية وفي هذا الجامع كانت مجالس القضاء وتجسد في الجسمانية البحرية الشرقية وكان يخصص لقاضى القضاة بها في كل اسبوع مرتين ^(٤) .

وشهد جامع عمرو بين الناس حياة علمية واهرة ، فقد كان هذا الجامع مركزا للثقافة والمعارف الاسلامية وشهد نهضة أدبية عظيمة ، وشارك في المسار العلمي والحركة الثقافية في سائر الامصار الاسلامية وشهد جامع عمرو حلقات العلماء الذين اشتهروا بالاجتهاد والاستنباط فكان لكل عالم مجلسه الخاص الى جانب عمود من أعمدة المسجد حيث يلتف حوله طلابه فيلقى عليهم دروسه فيصنئون اليه أو يدنون ما يسمونه منه ، وكان مجلس العالم يتوارثه تلاميذه من بعد وفاته ^(٥) وقد حدث بعد وفاة الامام الشافعى ان صارت حلقاته الى تلميذه يوسف بن يحيى البويطى ^(٦) وكان هناك موضع مشهور في جامع

(١) المرجع السابق .

(٢) العمودي : التنبيه والاشراف ص ٣٥٧ - ٣٥٨

(٣) القرظي : الخطط ج ١ ص ٢٤٦ - السيوطى : حمن المظفرة ج ١ ص ١٣٣

(٤) القرظي : الخطط ج ١ ص ٢٥٣

(٥) The Encycl. of Islam. (Art Masjid) Vol.3, P.365

(٦) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٧

عمره باسم مجلس ابن عبد الحکم * ومن نظرفیه رأی جمیع الجامع من أوله الى آخره * (١)
وينسب المجلس الى عبد الله بن عبد الحکم الفقيه المالکی المتوفى سنة ٢١٤هـ

وقد تحدثت الحلقات العلمية بجامع عمرو بن العاص مثل غيره من الجوامع
في سائر الامصار الاسلامية وهي الطريقة المائدة في التعليم في الفترة الجسرية
من تاريخ الدولة الاسلامية. وقد صار للجلوس في هذه الحلقات العلمية والتصدي
للفتيا او التدريس قداسة وعشوة مهمة. فقال الباوردي : (٢) " رأينا جلوس
العلماء والفقهاء في الجوامع والمساجد والتصدي للفتيا والفتيا على كل واحد
منهم راجع من نفسه ان لا يتصدي لما ليس له بأهل فيفضل به المستهدى ويزل به
المستهدى. . . . "

(١) ابن دقاق : الانتصار ج٤ ص ٢٤
(٢) الباوردي : الاحكام السلطانية ص ١٨٨

٤- انتشار الاسلام في مصر وأثره في التعريب

لم يعرف المصريون من القبط واليهود وغيرهم الدين الاسلامي ولا اللغة العربية قبل الفتح العربي لمصر بلادهم وانما جاءت معرفتهم لهما بحاجة لاحداث الفتح نفسها . وكانت هذه الاحداث اول فرصة للمصريين ليعلموا شيئا عن الاسلام واللغة العربية . والواقع ان شأنهم في ذلك كان شأن بقية سكان البلاد المسيحية فتحبها العرب المسلمون . ولعل ذلك هو الذي حدا ببعض الكتاب المحدثين ان يقول : " ان الاسلام لم يكن له حال ^{مختلص} مخصوصين يقومون بالدعوة اليه وتعليم مبادئه كما في الديانة المسيحية ولو انه كان للاسلام انا من قوامون لسهل علينا معرفة السبب في تقدمه القريب فانا شاهدنا الملك شربلما ان يحتضن معه علي بنسي الدوام في حروبه ركبا من القسوس والرهبان ليأشروا فتح الضائير والقلوب ، بمصد ان يكون هو قد باشر فتح المدائن والاقاليم بجيوشه التي كان يصلي بها الاسم حريا تجمل الولدان شيئا . ولكننا لانعلم للاسلام مجسما دينيا ولا رسلا واجبارا وراء الجيوش ولا رهينة بعد الفتح فلم يكره احد عليه بالسيف ولا باللسان ، بل دخل القلوب عن شوق واختيار . وكان نتيجة ما أورد في القرآن من مواهب السبب التأثير والاختار . نعم قد اهتمق الاسلام قوم مشوا وراء منافهم ولكنهم قليلون بجانب من اسلم عن اعتقاد صادق وميل صحيح وكان ذلك من اسهل الامور لبساطة الدين وكفاية المنطق بكلمة التوحيد لهيبر قائلها من المسلمين . (١)

وقد لعلنا في دراستنا لموقف مكان مصر من الفتح العربي ان العرب لم يجبروا احدا ولم يضطروا الى ترك دينه المسيحي او اليهودي ، واعتناق الاسلام ولا فهو في ذلك فقد جاء في القرآن الكريم (لا اكراه في الدين ، قسود تبين الرشيد من الشئ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) . (٢)

(١) دى كاسترو: الاسلام خواطر وموانع ص ٤٤-٤٥ القاهرة ١٣١٥ هـ =

١٨٩٨ م

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٦

انتشر الاسلام في مصر انتشارا واسعا اذ كان اقبال القبط — بصفة خاصة — على اعتناق الاسلام وترك دينهم المسيحي يتزايد تدريجيا كلما تقدم الموحدين بالمصر في مصر حتى صار من بقى منهم على دينه المسيحي قليل العدد بعد ان كان لهم الاقلية العددية بين المصريين. ونلاحظ ان اقبال على اعتناق الدين الاسلامي كان على نطاق واسع في عصر الولاة عنه في عصر الدول المستقلة اي الدول الطولونية والاشيدية والفاطمية — التي اصبحت القبط فيها اقلية ولكن لها اعبتها وكيانها في المجتمع المصري.

ونلاحظ ايضا ان المصادر التاريخية المختلفة قلما تشير الى اعتناق اليهود ^{سبحه} ^{صلى} للدين الاسلامي وتركهم دينهم اليهودي اللهم الا في عصر الخلفاء الفاطميين بصفة خاصة في عهد الخليفة الحاكم بامر الله وان كان عدد من قبل منهم على التحول من دينه الى الاسلام كان ضئيلا بالنسبة الى عدد القبط المتحولين الى الدين الاسلامي.

ومع ذلك نجد فترات معينة ازداد فيها التحول الى الاسلام اكثر من غيرها وان ذلك في الواقع نتيجة عدة اسباب وتحت تأثير ظروف معينة ناشئة عن سياسة الخلفاء او سياسة ولائهم الذين يطلون انتباهات الخلفاء. ونحن نرى ان ابرز ^{أقرنى} العوامل التي كانت تدفع اهل الذمة على ترك دينهم واعتناق الاسلام وكانت الابعاء الاقتصادية او بمعنى آخر ما كان يلتزم به الذمي من الابعاء المالية ونفسى ^{أقرنى} مقدتها الجزية.

ويبدو ان الجزية كانت موردا من اهم الموارد المالية للدولة الاسلامية في مصر في عصر الولاة بصفة خاصة. ومن ثم كان كثير من اهل الذمة يرغب في الخلاص من هذا العبء العادي عن طريق ترك دينه واعتناق الاسلام اذ كان نفس الغالب من محتق الاسلام يخفف من اداء الجزية. ويدل على ذلك تناقص مقدار جباية مصر تدريجيا مع تقدم الحكم الاسلامي فيها. (١) وان كنا في الوقت نفسه

(١) القرظي: الخطط ج ١ ص ١٥٩-١٦٠

لا يمكننا ان نحين عدد من كان يتحول الى الاسلام في عصر كل والي او خليفة . تخلصا من اداء الجزية لان المصادر التاريخية كثيرا ما تذكر جباية مصر شاملة للجزية والخراج معا . وذلك الى جانب ان احصاء سكان مصر من المسلمين او القبط او اليهود لم يكن يتم دائما في مصر الاسلامية ولم نسمع عن احصاء كامل لسكان مصر وكل ما هنالك احصاء الرهبان في عصر الولاة الامويين . (١) او احصاء القبط (٢) وايضا احصاء اليهود في اواخر عصر الدولة الفاطمية . (٣) ونلاحظ ان هذا الاحصاء كان يتم في عصور مختلفة ومتباعدة .

ونستدل على ذلك ايضا من ان الجزية لم تعد موردا اساسيا من الموارد المالية للبلاد في عصر الامراء الطولونيين ومن جاء بعدهم من الحكام المسلمين وذلك لتناقص عدد من كان يؤديها آنذاك مما كانوا عليه في عصر الولاة . فقد صار اهل الذمة اقلية قليلة في ذلك العصر وصار اهتمام الامراء اكثر بخراج الارض وشئون الزراعة كمورد اساسي لمالية الدولة . (٤)

والى جانب الدافع الاقتصادي كانت هناك دوافع اخرى يضطرا ما بها اهل الذمة احيانا الى ترك دينهم واعتناق الاسلام وهي ما كان يتعرضوا لدميون له من المضايقات والزامهم بعدم التشبه بالمسلمين في لباسهم بل والزامهم بأنواع معينة من الملابس ومنعهم من ممارسة بعض عاداتهم وطقوسهم الدينية وغير ذلك من سبل الضيق والمصعق بهم في بعض الفترات ما كان يؤدي الى اسلام الكثير منهم تخلصا من هذه المضايقات . وكان ذلك يحدث في الواقع في فترات محدودة وهي الفترات التي اشد فيها بعض الخلفاء في تطبيق احكام الاسلام بشأن اهل الذمة نظير ما الى ذلك ان بعض الدميون كان يترك دينه المسيحي او اليهودي ويمتشق الاسلام طمعا في بعض المناصب الرئيسية في ادارة البلاد . كما سنرى . ولكن هناك كثير من اهل الذمة يقبلون على اعتناق الاسلام اعجابا بتماليه الرشيدة .

(١) قام بهذا الاحصاء لاول مرة الاصفهاني عبد العزيز . ثم قام به من بعده امامه بن يزيد . انظر ابن القطيع ص ١٤٢ ج ٢ ص ١٤٢ - ١٥١

(٢) قام به الوليد بن رفاع في خلافة هشام بن عبد الملك وقضى في ذلك تسعة اشهر فوجد اكثر من عشرة الاف قسيسة في كل منها خصماتة قبطي . انظر ابو صالح الاوصي ص ٢٥ السيوطي حسن المطهرة ج ١ ص ١٤٦ - ١٤٧

(٣) The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, T.I. PP. 146, 147, 149, 154, 158, 159.

وتحدث سيرتوماس ارنولد (١) عن تحول الكثير من القبط الى الاسلام ، فقال ان هؤلاء القبط في الحقيقة قد تركوا دينهم المسيحي ينقش بسهولة والسرعة التي اعتنقوها بها في مستهل القرن الرابع الميلادي ويرى في الوقت نفسه ان سرعة انتشار الاسلام في السنوات الاولى للمغرب في مصر كان من بين اسبابها عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء اكثر من ان تكون راجعة الى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الاهلين الى الاسلام . وان اللاهوتسي لبقا الهنوقيين طائفة منفصلة والشماثر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ وقتا طويلا ودفعوا ثمنها غاليا في هذا السبيل قد اجتمعت في عقائد كانت صيغتها اشد ما تكون غوضا وابها ما من الناحية الميثاقية ولا شك ان كثيرا من هؤلاء قد تحولوا وقد اخفت الحيرة منهم كل مأخذ . واستولى على نفوسهم الضجر والاعياء من ذلك الجدل السقيم الذي احدث من حولهم الى عقيدة تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد بل اننا نجد في داخل الكنيسة القبطية نفسها في عصر متأخر شواهد تنهى عن حركة ان لم تكن اسلامية خالصة فقد كانت على الاقل وثيقة الصلة بها وربما ساعد عدم وجود اي نظام كسي مستقل . ويجد طوقه لا يضاحه والتعبير عنه على زيادة الدين دخلوا في الاسلام . (٢)

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٢٥ - ويزيد على ذلك انه قبل هذا القرن

اي القرن ٧ م كان عدد مسيحي وادي النيل قليل . ولكن ما تعرض له الشهداء من اضطهادات دقليانوس وماتم على يد هؤلاء الشهداء من معجزات في ذلك العصر والشمور القوي الذي اثارته روح المقاومة لاوامر الحكومة الاجنبية الى جانب ما اعطوه من الضمانات بان جنة النهمهم قد فتحت ابوابها لكل شهيد مات على ايدي مذهبهم . كل هذا قد اثار في نفوسهم حساسا ادى الى سرعة انتشار الدين المسيحي بصورة لا يكاد يصدقها العقل ودلا من ان يقتصر المصريون عن طريق التبشير او كثيرهم من اهالي بلاد المشرق نواهم ينتقلون المسيحية فسياسة خيرة من الحاشية الجامعة دون ان يتلقوا اي شيء من التبشير او التعليم عن الدين الجديد غير اسم عيسى المسيح الذي خلق حياة من السعادة الابدية على جميع الذين اعترفوا بوجوده .

(٢) سيرتوماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٢٥ - ٢٢٦

ونحن نرى ان كثيرا من اهل الذمة قد اعتنق الاسلام عن رغبة شديدة ويسدون دوافع مادية او اجتماعية وانما مالوا الى الانتماء الى هذا الدين لما لصوره فيهم من دعوته الى السلام والمساواة والعدل وغير ذلك من الخصائص السامية التي يتضمنها الدين الاسلامي.

وما لامك فيه ان قدم القبائل العربية المتوالي الى مصر واستيطنتهم المدن والقرى المصونة واندماجهم مع المصريين واختلاطهم بهم كان له اثره ابيض في انتشار الاسلام بين المصريين. ويجد ربنا هنا ان تشير الى الفترات التي امتد فيها التحول الى الدين الاسلامي طوال تاريخ مصر الاسلامية منذ الفتح العربي حتى سقوط الدولة الفاطمية (٢٠-٥٦٧هـ = ٢٤١-١٧١م).

لا شك ان ما قام به الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان - عندما عهد اليه ابوه عبد العزيز امير مصر آنذاك بولاية الخراج من اخصاء الرهبان في جميع انحاء البلاد المصونة والزامهم بأداء الجزية لأول مرة في الاسلام ومنع قبول رهبان جدد والزام الاساقفة بأداء الفى دينار الى جانب خراج كنائسهم المعتاد وما كان يقوم به الى جانب ذلك من اعمال الشدة والعنف ازاء القبط - (١) كل ذلك ادى الى اعتناق كثير من القبط الدين الاسلامي حتى ينعموا بما ينعم به المسلمون ويتخلصون من سيادة الاصبغ واعوانه نحوهم. ونقول في ذلك الرواية القبطية : " واضطر جماعة الى ان اسلموا ومن جعلتهم بطون والى الصعيد واخوه تاودوا وولده تاوفان مقدم مبروط وجماعة كهنة وطلبا نيين لا يحصوا من كثرتهم " (٢)

وأسلم نفر كبير من القبط في ولاية عبد الله بن عبد الملك الذي اسلم الى اهل الذمة وألزم بطرك القبط بفراطة ماله كبيرة كما ضيق على الاساقفة

(١) ابن العلقم : سير الاباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٤٣ - ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٨-٢٩ . الراهب اليراموسي : حسن السلوك في تاريخ البطارقة والملوك ج ١ ص ٢٣١ - الانبا ايمندوس : الجريدة النفيسة ج ٢ ص ١١١

(٢) ابن العلقم : سير الاباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٤٧ - ايضا الراهب اليراموسي حسن السلوك ج ١ ص ٢٣١ - الانبا ايمندوس : الخريدة النفيسة ج ٢ ص ١١١

والرهبان وزاد الخراج وعده بصفة عامة الى ابتزاز الاموال من القبط بكل وسيلة ممكنة والحق بهم كثير من الضرر^١ الذي (١) ولعل الكثير منهم فضل التحسُّول الى الاسلام حتى يتخلص من هذه المضايقات .

ومن الفترات التي اشتهت فيها التحول ايضا الى الاسلام ولاية اسامة بن زيد لخراج مصر في عهد الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك فقد اشتهت هذا الوالي في جباية الجزية والخراج وأمر علماء^٢ في مختلف الاقاليم الا يتوانوا في جمع الضرائب على اختلافها . (٢) ولا شك ان ذلك كله ادى الى اسلام كثير من القبط تخلصا من الاعباء المالية في ذلك العصر يضاف الى ذلك ان هذا الوالي قد تشدد في مراقبة حركة الهروب التي لجأ اليها القبط لمسلمهم بجدون الخلاص من الضرائب المختلفة بهوسهم من مكان الى اخر وهدد من يأوى غريبا في الكنائس والاديرة والقنادق كما الزمهم بحمل جوازات سفر تسمح بانتقالهم من مكان الى آخر داخل البلاد المسيحية وعمل احصاء جديد للربان وأمر بوسمهم ونزع الترهيب لـ من يرغب فيه في ذلك الوقت . (٣) كل ذلك كان من مظاهر التشدد في جباية الجزية والخراج وغيرها من الضرائب وكان سببها ان ينتج عن هذه السياسة المفيدة تحول كثير من القبط عن دينهم واعتناقهم الاسلام دين الدولة .

واشتكى كثير من القبط الدين الاسلامي في عهد الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز فقد اصدرا^٣ امره في جميع ارجاء الدولة الاسلامية بمنع استخدام اهل الذمة في الحكم وشئون الادارة وتقول الرواية القبطية انه كتب الى^٤ علي مصر:

(١) ابن المقفع : سير الالبا البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٤٥ - Fowler: Christian Egypt. P. 58.

(٢) ابن المقفع : سير الالبا البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥١ - ١٥٢

(٣) ابن المقفع : سير الالبا البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥١ - ١٥٢ - ابن العميد :

تاريخ المسلمين ص ٦٩ - المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣٩٥

" من اراد ان يقيم في حلة ولاداء فيكون على دين محمد شله ومن لا يريد يخرج من اعالي " . وتقع عن ذلك ان تخلى القبط عن الاعمال وحل مطهم موظفسون مسلمون . ودخلت اليد على النصارى من الولاة والمتصرفين والمسلمين في كل مكان كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم . . . (١)

ولاشك ان ذلك دفع كثيرا من القبط الى ترك دينهم واعتناق الاسلام ليحفظوا بما يتولونه من وظائف واعمال .

كذلك شجع الخليفة عمر بن عبد العزيز الذين على التحول الى الاسلام ، حينما اظن في جميع الامصار الاسلامية ومنها مصر ان من يمتنع الاسلام يحفى من اداء الجزية ولاشك ان الخلاص من هذا العبء الطوى أدى الى اسلام كثير من اهل الذمة مما أضربا لية الدولة . وكتب والى مصر آنذاك حيان بن مريوح الى عمر بن عبد العزيز يقول : " اما بعد ، فان الاسلام قد اضربا الجزية حتى سلفت من الطرث بن ثابتة عشرين الف دينار وتمت عطاء اهل الديوان ، فان رأى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فصل " وهكذا اراد هذا الوالى الا يرفع الجزية عن يمتنع الاسلام من اهل الذمة ولكن الخليفة ضعه من ذلك ، وكتب اليه : " . . . ضع الجزية عن اسلام ، فبح الله وأيك ، فان الله انما بعث محمد صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جليبا ، ولمصرى لمصرا حرق من ان يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه " . (٢)

-
- (١) ابن المقفع : سيرة الالاء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥٢-١٥٣
 (٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ١٥٢ - طبعة تورى : القريزى : الخطط ج ١ ص ١٢٥ - وتشرح بعض المصادر الى ان هذا الخليفة امر رسوله الى مصر بضرب حيان على رأسه ثلاثين سوطا ادبا له على قوله انظر : ابن النفاش : الذمة في استعمال اهل الذمة ورقة ٨٣ مخطوط .

وكان حفص بن الوليد البصري من أكثر الولاة المسلمين رغبة في تشجيع
 أهل الذمة على اعتناق الدين الإسلامي ويقول سأبوس (١) : " وقد أعلن حفص
 أن كل من يتخلى عن دينه ويصير مسلماً لا يؤخذ منه بعد جزية لأنها كانت على الناس
 كلهم ولاجل هذه الخصلة أدخل الشيطان خلأق فتخطوا عن دينهم ومنهم من اكتسب
 وصار من المسيكيين وتحتلص من هذه الولاية أن الزام الذي الذي يعتق الإسلام
 بأداء الجزية قد لجأ إليه ولاية مصر بعد صراخ الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي أصدر
 بأعطاء من أسلم من أهل الذمة من الجزية فلما تولى حفص بن الوليد حكم مصر
 رأى تشجيع الذين على التحول إلى الإسلام عن طريق هذا الدافع المادي فكان
 لذلك أثره الكبير واعتق الإسلام في عصره عدد كبير من القبط إذ بلغ عدد مسلمي
 خوالي أربعة وعشرين ألف قبطي (٢) حفص

ويبدو أن سياسة دفع الجزية عن يعتق الإسلام من أهل الذمة لم تستمر
 طويلاً بعد حفص بن الوليد والدليل على ذلك ما أظنه الخليفة المباسي أبو المباس
 الساج من أعطاء من أسلم من أداء الجزية في جميع البلاد الإسلامية ومنها مصر
 وتحول في ذلك الرواية القبطية " وكتب عبد الله الملك - أي الساج - إلى جميع
 ملكته أن كل من يهرع إلى دينه على كصلته يكون بخير جزية فمن عظم الخراج
 والكلف عليهم أنكر كثير من الفقراء والأغنياء دين المسيح وتبعوه (٣) وهكذا
 كان الدافع المادي في عصر الولاة الأمويين والمباسيين أقوى الدوافع المشجعة
 على انتشار الإسلام بين أهل الذمة في مصر

ولاشك أن الثروات المديدة التي ظم بها القبط في عصر الولاة الأمويين
 والمباسيين (فوالفترة ما بين سنتي ١٠٧ هـ و ٢١٦ هـ) والتي كان ينجح الولاة
 المسلمون في القضاء عليها بسرعة كان يتبعها غالباً تحول كثير من القبط عن دينهم
 واعتناقهم الدين الإسلامي حتى ينضموا بالهدوء والأمان وللخلاص من أداء
 الجزية وما قد يتعرضون له من المضايقات التي تضمنتها سياسة بعض الولاة المسلمين

(١) ميرالبا البطاركة ١ ج ١ ص ١٧٢

(٢) نفس المصدر ص ١٧٣

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٥ - ٢٠٦

في ذلك العصر • وقد بلغ انتشار الاسلام مداه • بعد ثورة البشوريين في سنة ٢١٦ هـ في عهد الخليفة المباسي المأمون • وكانت هذه الثورة اخر ثورات القبط في عصر الولاة بل وفي عصر الدول المستقلة ايضا اذ اصبح المسلمون بعد هذا اقلية بعد ان اسلم عدد كبير من القبط يقول القريزي (١) • "ومسبب حيف ذلك القبط في جميع ارض مصر ولم يقدرا احد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان وعظيهم المسلمون على طاعة القري فرجعوا من المطرية الى الكاينسة واستعمال المكر والحيل لزيادة المسلمين وعملوا كتاب الخراج •"

وتعلق السيدة تيمش (٢) على اخاد ثورة البشوريين ونتاج منها مسن تحول الكثيرين من القبط الى الاسلام فتقول ان انطلاق يد المسلمين في القبط وكثافتهم يلحقون بهم الاذى ويحتدون على كفافهم ومانعها من الاواني والادوات كان مما اضطر كثير من القبط الى اعتناق الدين الاسلامي ونجاة في الخلاص • ومن ذلك الحين تناقص عدد القبط كثيرا وصار العرب يسكنون القري ويمتلون فسي الاواض التي كانت في يد القبط من قبل • وزاد عدد المسلمين كثيرا وقويت شوكتهم عما كانوا عليه من قبل •

وحدث في خلافة المأمون المباسي ان قاضي مصر محمد بن عبد الله كان يستدعي اليه قباة البطرك القبطي انبا يوساب ويضطرهم الى ترك المسيحية واعتناق الاسلام (٣) كما شهدت خلافة المتوكل المباسي اسلام كثير

(١) الخطط ج٤ ص ٣٩٦

(٢) تاريخ الامة القبطية م ٢ ص ٢٢٤ — الشمامسة القمص : تاريخ الكنيسة القبطية ص ٤٢٩

(٣) ابن القفج : سير الالهة البطاوك م ١ ج ٢ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ • وقال للبطرك لا يجوز لك ان تقام امر الملوك وتقدسوا وامرهم • ولا يجوز ان تستبسط هؤلاء الصبيان وتتصرهم " فاجابه انبا يوساب : انا ما اقام امر الملوك ولا اقام كلمة صالحة بل ما كان من كلام الظلم • ثم قال له " انت عارف بان كل من يقدمك ما كان يلزم مثل هؤلاء الذين هم نصارى باسلام لانهم يقدموا للبيع هدايا وهؤلاء من عند الملك الحيعة والنوة والروم جاءوني هديعة " ولكن القاضي لم يستجب لذلك وارغم القباة على اعتناق الاسلام واعلم البطرك بذلك وانه لم يجد له صلة بهم •"

من اهل الذمة وخاصة من القبط لان عمر هذا الخليفة وكان طفلا بالتضييق على
الذميين والزامهم ببعض الاحكام فقد اضطر هذا الخليفة اهل الذمة الى عدم
التشبه بالمسلمين في لباسهم وان يلتزموا بملابسهم الخاصة بهم كما حرم عليهم
ارتداء اللون الابيض بل امر ان تكون ثيابهم مصبوبة بالانديان مختلفة كما امر ان يطلق
كل من القبط واليهود صورا مفضة على ابواب دورهم حتى يسهل التمييز بينهم
وبين دور المسلمين. (١) كما امر ولاته على الاقاليم المختلفة بعدم استخدام
غير المسلمين في شئون الادارة والحكم الا من يترك دينه ويستنق الاسلام. (٢)

وانزال ثابته في مصر عبد الصميع بن اسحق كنيا من الاذنى بالقبط واضطرهم
الى اخفاء علامة الصليب بل امر بكسر جميع الصلبان في الكنائس والاديرة
ومنع القبط من اظهار الصليب اثناء سيرهم في الطرقات كما امر القبط بالاجتماع
بصلواتهم كما يحرم عليهم الصلاة على موتاهم ومنعهم من ضرب النواقيس كما منع
بيع النبيذ في جميع البلاد المصرية حتى صار لا يوجد خمر يرفع به القداس. (٣)

وقد ادت هذه المضايقات كلها في الطبرستان والمسلمين وفي اداء الطقوس
الدينية الى تحول كبير من القبط الى الدين الاسلامي. وتقول بعض المصادر
القبطية " ولاجل ذلك قلت المحبة والصبر من قلوب كثير حتى انهم انكروا السيد
المسيح فمنهم من انكر بسبب رغبة العالم لمحبته فيه واخرون لما لحقهم مسن
الفقر". (٤) ويخبر ابن المقفع (٥) الى هذه السياسة اسلام من اسلم مسن
القبط في ذلك العصر. فراء يقول " بهذه الاسباب يخرجون من اديانهم
وقوما كثيرا ما صبروا ولا توكلوا على الهبهم وانكروا اسم المخلص في تلك الايام
الشديدة ونصروا ما قاله في الانجيل القدس والذي يصبر الى التمام فهو يخلص
ويكرز بهذا الانجيل".

(١) ابن بطريق : التاريخ المجموع ص ٢٢٣ - ابن القفيع : سير الالاء البطارقة

م ٢ ج ١ ص ٤ - ابن الاثير : الكامل ج ٥ ص ٢٨٥

(٢) ابن القفيع : سير الالاء البطارقة م ٢ ج ١ ص ٤ - ابن الاثير : الكامل ج ٥

ص ٢٨٥ وقد اشرنا الى هذه المضايقات بالتفصيل فيما سبق.

(٣) ابن القفيع : سير الالاء البطارقة م ٢ ج ١ ص ٤ -

(٤) نفس المصدر ص ٤

(٥) نفس المصدر ص ٤

نذكر من اسلم في ذلك العصر اصطفى بن اقدوته واولاده . وقد اخذ هؤلاء بعد اسلامهم يرمسون القبط بكل سوء ويقولون عنهم ما يحط من شأنهم . وكان اصطفى بن اندونة كثيرا ما يقول : يخرض اضعاف روح القبط المصنوية ودفعهم الى الاسلام " ان النصارى قبل هذا اليوم لا يلبسوا ثيابا لها اكمام بل يلبسوا ثيابا بدو اكرام كما تلبس الرهبان الذين هم يدعهم اباؤهم فاذا كان الالباء تلبس هذا اللباس بالاحرى ان تكون اولادهم مثلهم . " (١) وهكذا كان انتشار الاسلام بين القبط يتزايد تدريجيا ويقل عدد القبط من عصر الى آخر كما نلاحظ ان من كان يمتنع عن الاسلام منهم قد انظر الى جانب المسلمين وعمل على اضعاف منويات القبط . والحق من شأنهم .

ومن المصروفات التي كثر فيها اقبال القبط على التحول الى المذهب الاسلامى عهد والى خواجه مصر احمد بن محمد بن مذهب . ذلك لانه تشدد كثيرا في جباية الجزية والخراج وفرض ضرائب كثيرة على المصريين وضايف عليهم الجزية والخراج وقد تعرضنا لذلك في الفصل الخاص بالجزية والخراج وغيرها من الضرائب السنية التزم بادائها اهل الذمة في مصر الاسلامية . فبعد ان كانت جزية قبط مصر الف دينار زاد عليها حتى صارت ستة الاف دينار . حتى ان الانسان الفقير الذي يمحز قوته ما اخذ منه في كل سنة خمسين درهما حتى ضجت اهل مصر واعمالها من عظيم هذا المذاب وجد كثير من النصارى لاجل قلة ما يأيد بهم من الدراهم . " (٢)

وهكذا تهايمت موجات الداخلين في الاسلام من القبط وشهد النصف الاول من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) انتشارا واسما للاسلام فى مصر حتى اذا كانت امانة احمد بن طولون على مصر في سنة ٦٥٤ هـ كان اكثر من مباحي مصر قد تحولوا الى الاسلام وصار المسلمون يكونون الاغلبية المظلمة بين سكان مصر وصار اهل الذمة اقلية قليلة . ومن ثم اخذت الصيغة الاسلامية تقيس

(١) ابن الحنفى : سير الالباء البطرك م ٢ ج ١ ص ٢

(٢) نفس المصدر ص ٢٧ — ٤٤

لذلك تشكل المجتمع المصري وتطبعه بطابعها في الماديات والتقاليد وفي الحياة الاجتماعية بصفة عامة. (١) واكبر دليل على زيادة عدد المسلمين وتناقص عدد الذميين آنذاك تضاؤل حصيلة الجزية فلم تعد بابا أساسيا من ابواب الدخل في مصر منذ العصر الطولوني الى جانب اختفاء ثروات القبط التي كانت من مميزات عصر الولاة الامويين والعباسيين.

وبذلك ذلك ما أشار اليه المقرئ (٢) من انحطاط جباية مصر فبعد ان كانت في ايام عمرو بن العاص اثنا عشر مليون دينار وفي ولاية خلفه عبد الله بن سعد بن ابي مسج اربعة عشر مليون دينار انحطت كثيرا عن هذا المقدار حتى وصلت الى ما يتراوح بين ثلاثة واربعه مليون دينار في القرن الثالث الهجري وكان ذلك دليلا على تناقص عدد اهل الذمة الذين يؤدون الجزية وصارت موارد البلاد تعتمد الى حد كبير على خراج الارض الذي كان يؤديه الذمى المحفوظ بدينه والذمى الذي اعتنق الاسلام ايضا . وتطور نظام جباية الخراج في مصر واتبع نظام قبالات الاراضى وكان ذلك نتيجة مباشرة لتحول كثير من اهل الذمة الى الاسلام وانتشار المسلمين في القرى المصرية واشتغالها بالزراعة الى جانب القبط المحفظين بد ينهم وما حدث نتيجة لذلك من اختلاط المرب بالقبط وما كان يتم بينهم من تزواج . (٣)

ولا يعنى ذلك توقف تحول من بقى من اهل الذمة الى اعتناق الاسلام ففى المصور المتتالية . وما لاشك فيه ان المصريين لاخشيدي والفاطمي قد شاهدوا اعتناق كثير من اهل الذمة الدين الاسلامي . ففي عهد الامراء الاخشيديين تحول

(١) حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية " العصر الطولوني " ص ٥٤ و

Zaki Hassen: Les Tulunides. P.216

(٢) الخطط ج ١ ص ١٥٩

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٣١

عدد من اهل الذمة الى الاسلام وترك دينه اليهودى او المسيحي طعنا فى تولي بعض الوظائف الكبرى وخاصة الوزارة . ونذكر ان اشهر هؤلاء هو ابو الفرج يعقوب ابن يوسف بن ابراهيم بن كاس وكان يهوديا . ولد ببغداد . ونشأ بها وتعلم الكتابة والحساب ، ثم سافر مع ابيه الى بلاد الشام ومنها رحل الى مصر فى سنة ٣٣٠ هـ وفى مصر تطور امر ابن كلس ولمع نجمه واتصل بخواص كافور الاخشيدى وما لبث كافور ان قربه اليه ، لنعيطته وحسن سياسته واجلسه فى ديوانه الخاص . وبدأ مركز ابن كلس يسمو يومسما بعد يوم حتى صار له الامر والنهى . (١)

وأراد كافور ان يعهد الى ابن كلس بالوزارة الا ان دينه اليهودى حل بينه وبين تحقيق ذلك فبادر ابن كلس الى ترك دينه اليهودى واعتناق الدين الاسلامى وتولى الوزارة فى سنة ٣٥٦ هـ . وقرأ القرآن وصلى فى المسجد الجامع ورتب رجلا من اهل العلم بالقرآن وعلوم اللغة العربية ليتلمذ على يديه ، كان ما لبث ان دب الخلاف بين ابن كلس وبين الوزير القائم آنذاك ابنى الفضل جعفر بن الفرات فأسرع ابن كلس الى الفرار الى بلاد المغرب حيث يحكم الخلفاء الفاطميين قبل فتحهم لمصر . (٢)

ثم عاد ابن كلس الى مصر بعد الفتح الفاطمى وقد لعب ابن كلس دورا له شأنه *في المصير؟* فى سياسة البلاد فى هذا المصير ونحن نرى ان كثيرا من اهل الذمة قد اعتنقوا الاسلام فى ذلك المصير . اى عبر الامراء الاخشيديين طوعية بدون ضغط او ارهاب او دافع اقتصادى او طعنا فى السلطان ، وان كانت المصادر التاريخية لم تشر الى ذلك صراحة .

(١) ابن زولاى : اخبار سيوفيه المصرى ص ٧٤ . ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص ١٩ - ٢٠ . المقهزى : الخط ج ٣ ص ٧

(٢) ابن زولاى : اخبار سيوفيه المصرى ص ٧٦ ، ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢١ . المقهزى : الخط ج ٣ ص ٧ . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٧١

كان عصر الخلفاء الفاطميين أكثر المصور التاريخية — منذ منتصف القرن الثالث الهجرى — التى شهدت تحول كثيرين من القبط واليهود الى الدين الاسلامى . وان كنا نلاحظ ان تحول بعضهم الى الاسلام كان نتيجة لما تعرضوا له من المضايقات والمصنف فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله بصفة خاصة او رغبة منهم فى الحصول على المطايا والهيئات من الخلفاء وتولى بعض المناصب الرئيسية فى البلاد يمد عصر الحاكم بأمر الله .

لقد حظى كل من اليهود والقبط بتسامح الخلفاء الفاطميين وحسن معاملتهم لهم ويتجلى ذلك فى استخدام الخلفاء الفاطميين لهم فى مختلف الوظائف على نطاق واسع ولاشتراك معهم فى الاحتفالات بأعيادهم الدينية والساح لهم بهنساء الكنائس والاديرة الجديدة وتعمير القديم منها . ذلك الى جانب مناداتهم ومصادقة الكثير منهم وخاصة الرهبان فى الاديرة واتخاذهم الاديرة مقننات لهم .

وبالرغم من ذلك نجد احد هؤلاء الخلفاء وهو الحاكم بأمر الله يشتد فى معاملته لاهل الذمة من القبط واليهود ويكثر من مضايقتهم فنراه يلزمهم بلبس الفياض وعدم التشبه بالمسلمين فى لباسهم وضرورة شد الزنار فى لوساطهم ومنعهم من الاحتفال بكثير من اعيادهم الدينية كما ألزم القبط منهم بحمل صلبان من الخشب . بينما يحل اليهود قرأى من الخشب ايضا كما افرد لكل منهم حمامات خاصة مميزة حتى لا يدخلوا حمامات المسلمين ولم يكتف الحاكم بأمر الله بهذه المضايقات بل نراه يأمر ايضا بهدم الكنائس والاديرة وتحويل الكثير منها الى مساجد والاستيلاء على ما فيها من الاواني والادوات الذهبية والفضية . (١)

ومما لا شك فيه ان هذه المضايقات قد ادت الى اعتناق كثير من القبط واليهود الدين الاسلامى .

(١) ابن المقفع : سير الالباء البطارقة م ٢ ج ٢ ص ١٢٣-١٢٤-١٢٥-١٢٦-١٢٨

ابن سعيد الانطاكي ص ١٨٧-١٩٥-٢٠٠-٢٠٦ ص ٢٠٦-٢٠٧
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٢ ص ٣٥٩-٣٦٠ - ابو المطمئن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧-١٧٨ - القرئزى : الخطط ج ٢ ص ٣٩٨-٣٩٩

وذكر القيريزي (١) انه كان من نتائج هذه الاحداث المختلفة التي قاسسى فيها اهل الذمة في مصر في عصر الحاكم بامر الله ان اسلم كثير من القبط حتى يامنوا جانب هذا الخليفة المتقلب ويقول ابن المقفع (٢) : " فجدد كثير من النصارى واليهود من رؤسائهم وادنائهم لاجل هذا ولم يصبروا على هذا الهوان والمذاب " .

وهكذا : هذا اليهود اخذوا القبط في هذا العصر في اعتناق الاسلام وان كان كثيرا من هؤلاء اليهود كانوا يتظاهرون بتحولهم الى الاسلام ولكنهم في سرائرهم ظلوا مؤمنين بدِينهم اليهودي . (٣) والدليل على ذلك عودة كثير منهم الى اليهودية بعد ان اذن لهم الخليفة الحاكم بامر الله بذلك في سنة ٤١١ هـ .

اما ابن سعيد الانطاكي (٤) فيقول بشأن اسلام اهل الذمة في هذا العصر ان الخليفة الحاكم بامر الله قد تهدد النصارى وفزعهم وكثرت الازعاج والشفاعات فيهم . واسلم كثير من شيوخ الكتاب والمتصرفين من القبط وتبعهم خلق كثير ممن المامة كما اعتنق جماعة من اليهود الاسلام . وهكذا استمر اسلام القبط واليهود نتيجة مضايقات هذا الخليفة حتى انه لم يجد يرى في الطميرقات قهطى لمسدة ايام . بينما كان اليهود اكثر تسكنا بدِينهم ولم يتحول الى الاسلام منهم الا نفسا قليلة .

وتشير بعض المصادر التاريخية الى ان الحاكم بامر الله كان يحاول جاهدا ارغام بعض القبط على اعتناق الدين الاسلامي . وما لا شك فيه ان ذلك كان يحدث ايضا بالنسبة لليهود . (٥) ونجد بعض الروايات التاريخية القبطية التي تتضمن احداثا تؤيد هذه الحقيقة ذلك ان كثيرا من القبط قد برز في الدولة الفاطمية

(١) الخطط ج٢ ص ٤٠٠ تاريخ ابن الراهب ص ٨٢ - ٨٣

(٢) سير الالباء البطارقة ج ٢ ص ١٢٦

(٣) Mann : The Jews, T.1. PP. 34, 37.

(٤) تاريخ ابن سعيد الانطاكي ص ٢٠٢ - ٢٠٤

(٥) Mann : The Jews, T.1. P. 37.

وبلغ فيها أعلى المراتب حتى ضجت عامة المسلمين من تسلط هؤلاء الذين هم عليهم ، وذلك إلى جانب ما عرف عن الحاكم من سرعة القلب والرغبة في تحويل جميع أهل الذمة إلى الإسلام ، واعتناق المذهب الشيعي بصفة خاصة ، إلى جانب جذب المسلمين السنيين إلى هذا المذهب أيضا .

وبد لنا على ذلك أن الخليفة الحاكم بأمر الله قد استدعى إليه عشرة من كبار رجال القبط المستخدمين في الدواوين والحكومة فذكر منهم الشيخ أبو نجاح والرئيس فهد ابن أبراهيم . وقد عرض عليهم جميعا ترك الدين المسيحي واعتناق الإسلام ووعدهم ببلوغ أعظم المقاصد وأبلغ العآرب . وقد استجاب أربعة من هؤلاء المشرة إلى طلبه تخلصا مما قاسوه من العذاب والارهاب وقد مات أحد هم في نفس الليلة التي اعتنق فيها الإسلام . أما الثلاثة الآخرون الذين تحولوا إلى الإسلام فقد عادوا إلى دينهم المسيحي عندما انتهك ضرب الصباط والعذاب الشديد الذي أمر الحاكم بأنزاله عليهم لتمسكهم بدينهم المسيحي . (١)

وكان من بين من أراد الحاكم بأمر الله إجباره على اعتناق الإسلام أيضا الكاتب بخيرة الرشيد الذي ترك الخدمة في الديوان وأعلن صراحة أمام الحاكم بامسرة الله تمسكه الشديد بالمسيحية ورفضه الإسلام . فأمر الحاكم بأمر الله باعتقاله وإنزال مختلف ألوان العذاب والارهاب به . ولكن بقدرة صبر على كل ذلك . فلما أدرك الحاكم ما يتميز به هذا القبطي من الإيمان والصبر الشديد أمر بالاقراج عنه فكتب له سجلا يتضمن ألا يعترضه أحد في بيع ولا شراء ولا في أي أمر آخر . (٢)

وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن وفودا من القبط واليهود مسست إلى مقابلة الحاكم واستأذنته في الكلام والتعبير عما يجيش بنفوسهم من الحزن والعذاب فأذن لهم بالكلام وأنهم على أنفسهم . فقالوا له : أن سلوكه وسياسته معهم تختلف تماما عما كانت عليه سياسة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء المسلمين من بعده .

(١) ابن القفح : سيرة لاهة البطارقة م ٢ ج ٢ ص ١٢٢-١٢٣

(٢) نفس المصدر ص ١٢٨-١٢٩

كما ان ذلك مناقض لما يتضمنه العهد الذي منحوا المسلمون الفاتحون لاهل الذممة وأرادوا منه الاستفسار عن اسباب تغيير هذه السياسة . فأجبتهم الحاكم بأن السياسة التي التزمها النبي عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه كانا الفرض منها الترغيب في التحول الى الاسلام الا ان هذه السياسة لم تجت الثمرة المرجوة منها وقد مضى عليها اربعة قرون وبالرغم من ذلك ما زال يوجد كثير من غير المسلمين في البلاد المصرية او غيرها ثم قال لهم : " فليس لكم الان غدى الا اختيار واحدة من اثنتين ، اما استنصافكم الايمان ، وهذا كل هذا التأخير ، واما العقوبة العاجلة اذا ابيتتم الدخول فيه . " (١)

ولما عدل الحاكم عن سياسة المصنف والارهاب ازاء أهل الذمة في سنة ٤١١ هـ وأذن لهم باعادة بناء الكنائس والاديرة كما امنهم على انفسهم ، طرد كثير من مسلم من القبط واليهود الى دينهم القديم . وتذكر بعض الروايات القبطية ان جماعة من القبط الذين كانوا قد اسلموا وقفوا في طريق الحاكم وسألوه ان يأذن لهم فسي المودة الى دينهم السبى . فسمح لهم بذلك وتبع هؤلاء جماعات اخرى من الذين تحولوا الى الاسلام في ذلك العصر تحت تأثير الضغط والارهاب . (٢)

وكان ذلك هو شأن اليهود ايضا . فقد طرد الكثير منهم الى دينهم اليهودى بعد تسامح الحاكم معهم . (٣) ويقول ابن زولاقي انه قد ارتد عن الاسلام اكثر من سبعة آلاف يهودى وعادوا الى دينهم القديم في يوم واحد . (٤)

ونذكر من الامثلة لهؤلاء الذين اسلموا في ذلك العصر ثم ارتدوا عن الاسلام وعادوا الى دينهم القديم ، الراهب " بيمين " الذي سأل الحاكم ان يأذن له ببناء

-
- (١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠٨-٢٠٩
 (٢) ابن المقفع : سيرة الابرار البطارقة ٢ ج ٢ ص ١٣٥ - ابن حميد الانطاكي ص ٢٣١
 (٣) Mann : The Jews, T.1. P. 35.
 (٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠٩

دير على اسم الشهيد مقوريوس ، وهو دير شهيدان فأذن له الحاكم بذلك .
وقد سكن بمين هذا الدير هو جماعة من الرهبان ، وكان الحاكم بأمر الله يتسرد
عليه كثيرا فيه . وقد استغل هذا الواهب حسن علاقته بالحكم في تحسين أحوال
القبط وتوفير الأمن لهم جميعا . (١)

وكان ذلك في الواقع مظلما لحكم الاسلام بشأن المرتد ، اذ كان الاسلام
يقضى بقتل المرتد ولكن ذلك لم يحدث مطلقا في عهد الخليفة الحاكم ، وتسوق
لنا بعض المصادر القبطية قصة القديس ديسقوريوس الذي كان من سكان مدينة
الاسكندرية واعتنق الاسلام وكتب الى اخيه في مدينة الفيوم يعلمها بترك المسيحية ،
واعتناق دين الاسلام فأرسلت اليه تقول : " لقد كنت اشتبهى ان يأتينى خبر موتك
وانت مسيحى فكنت افرح بذلك ولا يأتينى خبرك بانك تركت المسيح الهك . . وأعلم
ان هذا الكتاب آخر صلة بينى وبينك فمن الان لا نحمد تربيى وجهك ولا نكتبنى " .
فكان لهذا الكلام أثره الشديد في نفسه ، فأسرع بارتداء ملابس القبط وشد الزنار
في وسطه ووشم نفسه بمسالة الصليب فلما بلغ خبره والى مصر — لم تحدد الرواية
تاريخ هذا الحدث — أمر بالقض عليه وسأله عن سبب ارتداده عن الاسلام فأجابه
ديسقوريوس " انا ولدت مسيحيا ، وأموت مسيحيا ، ولا اعرف ديننا غير هذا " . فهدده
الوالى والحق به كثيرا من ألوان التعذيب وسجنه ولكنه أصر على تمسكه بالمسيحية
فأمر الوالى بقتله حرقا . (٢)

وقد حدث ما يشبه ذلك في أوائل عهد الفاطميين في مصر اذ علم القاضي
محمد ابن النعمان — في القرن الرابع الهجرى — ان احد القبط كان قد اعتنق
الاسلام ثم ارتد عنه وكان قد جاوز الثمانين من عمره . وقد أمر الخليفة الفاطمى

(١) ابن المقفع : سير الالهة البطارقة ج ٢ ص ١٢٥ — ابو صالح الاونى

ص ٢

(٢) السنكسار : ج ٢ ص ١٣ — ١٤

المميز بالله بتسليمه الى والى الشرطة والى من القاضى ان يرسل اليه اربعة
شهود ليتوب امامهم فان تاب ضحه مائة دينار وان أصر على ارتداده عن الاسلام
يقتل . ولكن هذا المرتد أصر على موقفه فقتل وألقى به فى النيل . (١)

ولما توفي الخليفة الحاكم بأمر الله ولى الخلافة الفاطمية بمصر مابنه الظاهر
لاعزاز دين الله فى سنة ٤١١ هـ . وأصدر الظاهر سجلا قرئ على جميع
سكان مصر وقد جاء فيه " انه انتهى اليه استدعاء اهل الذمة من النصارى
واليهود انهم يستكروهون على الانتقال الى شريعة الاسلام ومتحاضهم من ذلك
لأن كان لا اكراه فى الدين . وان يزيلوا من انفسهم ما تخيلوه ويتحققوا انهم
يحملون على حكم الصيانة والرعاية وينزلون منزلة اهل الحماطة والحماية . ومن آثر
منهم الدخول فى دين الاسلام اختيارا من قلبه . وهداية من ربه . ولم يكن فرضه
التميز والاستطالة فليدخل فيه هرولا مبرورا . ومن آثر بقاءه على دينه من غير
ارتداد كان عليه ذمته وحماطته وعلى جميع اهل الملّة حفظه وصيانته . " (٢)

ونلمس من دراستنا لتاريخ اهل الذمة فى خلافة المستنصر بالله انه قد
اسلم فى عهده ثغر من القبط واليهود . رغبة فى الاستمرار فى مناصبهم
وارضاء لشعور المسلمين الذين كانوا يمتنعون تسلط اهل الذمة
على شئون الحكم . نذكر من هؤلاء ابا منصور صدقة بن يوسف الفلاحسى
وكان يهودى الاصل . ثم اعتنق الاسلام . وقد ولى الوزارة للمستنصر
فى سنة ٤٣٦ هـ . (٣)

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٩٣

آدم ماز : الحضارة الاسلامية جا حاضية ص ٥٨

(٢) ابن سعيد الانطاكى ص ٢٣٥-٢٣٦

(٣) ابن الصيرفى : الاشارة الى من تار الوزارة ص ٣٧-٣٨

ونذكر منهم ايضا ابا علي الحسن بن ابي محمد ابراهيم بن سهل
التستري * الذي تخلص عن اليهودية وتولى الوزارة للخليفة المستنصر. (١) واما
محمد منصور المعروف بابن زهير * وكان قبطيا ثم اعتنق الاسلام * لما عهد
اليه بالوزارة * في عهد الخليفة المستنصر ايضا. (٢)

(١) ابن الصيرفي : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٥٢

(٢) نفس المصدر ص ٥٤

٥ - موقف اللغة العربية من اللغتين اليونانية والقبطية

كان انتشار اللغة العربية في مصر صاحبا ايضا للفتح العربي ومقترنا الى حد كبير بانتشار الاسلام لانه كان يجب على من يمتنع الاسلام ان يتعلم اللغة العربية حتى يمكنه قراءة القرآن واداء الصلاة . ويجدر بنا ان نشير الى ما كان سائدا في مصر قبل الفتح العربي من اللغات .

كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربي هي اللغة الرسمية في الحكومة والمعاملات التجارية والكنيسة والعلاقات السياسية ، اما لغة المصريين الدارجة التي يتحدث بها عامة القبط فهي اللغة القبطية ويمدوان استخدامها كان يسمون ابنا المجمع القبطي وفي شرح العلوم والدروس الدينية التي كانت تلقى باليونانية ثم تشرح للقبط بلغتهم القبطية . (١)

وهكذا كانت اللغة اليونانية هي لغة الثقافة والحكومة بينما احتفظت اللغة المصرية بمنزلتها بين الشعب فلم تتغلب اليونانية عليها حتى ان احد القمص قال : " اذا اراد يوناني ان يعلم المصريين شيئا من القانون فخير له ان يتعلم لغة المصريين حتى يستطيع ان يفهمهم اما اذا خاطبهم باليونانية فلا فائدة من حديثه " . وذلك يؤكد عدم انتشار اللغة اليونانية بين جميع المصريين . وان اللغة اليونانية كانت تسير جنبا الى جنب مع اللغة القبطية حتى الفتح العربي للبلاد المصرية . (٢)

وكانت اللغة القبطية تكتب بالحروف اليونانية ثم اضاف لها القبط سبعة حروف من الخط الديموطيقي Demotiv وهي حروف تعبير عن اصوات ليس لها مقابل في اللغة اليونانية وهي : عاي (ث) وفاي (ف) وخاش (خ) وهوري

Meinardus : Christian Egypt. P. 107. (١)

ومحمد كامل حنين : ادب مصر الاسلامية ص ٢٨
(٢) محمد كامل حنين : ادب مصر الاسلامية ص ٢٧

(هـ) وجنبا (جـ) وتشبها (تش) وتى (ت) . (١)

وكانت اللغة القبطية مقسمة الى عدة لهجات اوليات رئيسية . يقول احد اساقفة مصر الاسلمية (فى القرن الخامس الهجرى — الطدى عشر الميلادى ويُدعى انتناس Athanase — وكان اسقفا لمدينة قوص) " تعلم ان اللغة القبطية مقسومة على ثلاث اقاليم منها القبطى المصرى الذى هو الصعيدى ومنها القبطى البحرى ، المعروف بالبحيرة ومنها القبطى البشمورى المستعمل ببلاد البشمور . والمستعمل الان — اى فى مصر هذا الاسقف — القبطى البحرى والقبطى الصعيدى والاصل فيها لغة واحدة " . (٢)

وكانت هذه الاقسام الرئيسية للغة القبطية تنقسم بدورها الى لهجات فرعية نذكر منها الفيومية وكان استخدامها قاصرا على اقليم الفيوم والاخميمية وكانت لهجة سكان اخميم . والاخميمية الفرعية او الاسيوطية ويتكلم بها الاهالى فى المنطقة ما بين البهنسا واسيوط . (٣)

كانت اللهجة البحرية Bohairic هى المستعملة فى الطقوس الدينية فى الكنيسة القبطية بينما كانت اللهجة الصعيدية Sa'idic هى لهجة الادب ، وكانت اكثر اللهجات انتشارا فى مصر اما اللهجات الاخرى فكان كل منها خاصا بالاقليم الذى يعمل اسمه وبالرف من ان اللهجة الصعيدية كانت هى اللهجة المامة القبطية حتى القرن التاسع الميلادى فان اللهجة البحرية قد حلت محلها لعمامة اكتسبت من الاهمية الدينية والكنسية وايضا لان كثيرا من الادب الصعيدى قد ترجم الى اللهجة البحرية . (٤)

(١) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص ٢٤ — ٢٧ — يس عبد المسيح : اللهجات القبطية وآثارها الادبية ص ٣٩ (رسالة مارينا سنة ١٩٥٤ م)

و Meinardus : Christian Egypt. P. 107.

(٢) Quatramère : Recherches Critique et Histoire sur la longue et le literature de l'Egypte, PP. 20-21

(٣) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص ٢٧ — ٢٨ يس عبد المسيح : اللهجات القبطية وآثارها الادبية ص ٤١ — ٤٢

و Meinardus : Christian Egypt. P. 107.

(٤) Meinardus : Op. Cit. PP. 107 - 108.

ساعد الفتح العربى لمصر على اتعاثر اللغة القبطية (١) وكان ذلك
فى الغالب على حساب اللغة اليونانية لغة البلاد الرسمية منذ عهد البطلمية
فبعد ان كانت الدروس الدينية فى كثير من الاحيان تقرأ باليونانية • ثم تشرح
للقيبط باللغة القبطية الدارجة اصبحت بعد الفتح العربى لا تقرأ الا باللغة القبطية
وتشرح بها ايضا • والى جانب ذلك نجد البلاد والاقاليم التى كانت تغلب عليها
الاسماء باليونانية اصبحت تعرف باسمائها القبطية التى ترجع الى الاسماء المصرية
القديمة ونذكر من الامثلة على ذلك اخميم بدلا من بانوبوليس Panopolis واهناسيا
بدلا من هيراكليوبوليس Héracleo- والاشمونيين بدلا من هرموبوليس Hermo-
polis وكان ذلك فى الواقع يمينا لقديم لم يندثر تماما • فان اللغة القبطية او الاسماء
المصرية القديمة كانت قد غلبت على امرها لفترة من الزمن ثم اخذت تستعيد مكانتها
بعد الفتح العربى لمصر • (٢) بعد ان تخلصت البلاد من الحكم الرومانى وما كان
يرى اليه الحكام الرومان من القضاة على اللغة القبطية وان يحل محلها اللغسة
اليونانية فى جميع الامور والاحوال • فظل لهم بذلك السيطرة والحكم على البلاد
سياسيا ولغويا •

ونحن نرى انه كان امرا طبيعيا ان تنتشر لغة العرب الفاتحين بين المصريين
وان يتطور الامر فتصبح اللغة العربية لغة البلاد الرسمية بدلا من اللغة اليونانية
وكان ذلك فى الواقع نتيجة حتمية لسيادة العرب على البلاد المصرية بدلا من
الرومان •

وكان انتشار اللغة العربية فى مصر مباحبا لانتشار الاسلام حتى صارت
اللغة العربية لغة التخاطب ولغة الكتابة والملم • ونلاحظ ان انتشار اللغسة
العربية بين المصريين كان يسير ببطء • بمكس ما كان طيه الطال فى انتشار الاسلام •

(١) Quatrémerre: Recherches Critique et historique sur la langue et le literature d'Egypte, P.32.
(٢) G. Wiet : L'Egypte Musulmane..., PP. 137 - 138.

كما أننا نلاحظ أن المصادر التاريخية المختلفة لم تشر إلى متى بدأ القبط يستخدمون اللغة العربية لغة للتخاطب فيما بينهم • ومهما كان الأمر • فأننا يمكن أن نقول أن القبط أو المصريين بصفة عامة قد عرفوا اللغة العربية منذ السنوات الأولى للفتح العربي لمصر • ذلك لأن من أحقق منهم الدين الإسلامي كان إلزاما عليه أن يتعلم اللغة العربية حتى يتمكن من تفهم دينه الجديد ومعرفة شرائعه إلى جانب قراءة القرآن •

كلمة الش في

كذلك يبدو أنه قد حدث أن تعلم اللغة العربية — في القرن الأول للمسيح في مصر — بعض القبط المحفظين بدینهم المسیحی حتى يتقربوا إلى الحكام وأولى الأمر في البلاد تذكر من هؤلاء الشماس بنيامين الذي تقرب إلى الأصغر بن عبد العزيز • فقد عهد إليه أبوه عبد العزيز بن مروان بكثير من أمور مصر • وكان هذا الشماس يطلع الأصغر على كثير من أسرار القبط • كما قام بترجمة الانجيل من اللغة القبطية إلى اللغة العربية بناء على طلب الأصغر كما ترجم له كتب دينية أخرى وكان الأصغر يرقى من من وراء ذلك أن يعلم هو والمسلمون ما في هذه الكتب مما يعين الدين الإسلامي • (١) ولا شك أن هذا الشماس كان يتقن اللغة العربية ويفهمها جيدا حتى أنه أمكنه القيام بهذه الترجمة • ونرى أيضا أن ما قام به الأصغر من ترجمة هذه الكتب إلى اللغة العربية كان مقدمة لتعريب الدواوين واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للبلاد •

وحدث أيضا في إمارة عبد العزيز بن مروان على مصر أن أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بترجمة لنصوص التي اعتاد أن يكتبها صناع أوراق البردي في مصر على ما يقومون بصناعتها من هذه الأوراق • فلما تبين معناها قال : " ما أغضب هذا في أمر الدين والإسلام " • وكتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان في مصر بأبطال هذه الكتابات وأن يستبدلها بأحدى الشهادات • فقام عبد العزيز بن

(١) ابن القتيبي : سير الألباء البطارقة ج ٢ ص ١٤٣

مروان بذلك • (١) وسهد ذلك كله فيما بعد لتكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية بدلا من اللغة اليونانية وان تكون ايضا لغة التخاطب بين القبط وفي المعاملات الاجتماعية •

استمرت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في الدواوين حتى عهد الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦ هـ) ويؤكد ذلك اوراق البردي ذات الصبغة الرسمية والتي يرجع تاريخها الى عهد الوليد والتي دونت باللغتين اليونانية والعربية معا • وذلك لان اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية التي تدون بها الاعمال فسي تلك الدواوين اما اللغة العربية فكانت لغة الحكام العرب •

ونذكر من الامثلة على ذلك بردية يرجع تاريخها الى سنة ٨٦ هـ • وتتضمن مرسوما صادرا من والي مصر عبد الله بن عبد الملك (٢) • وهذه البردية

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٤٤٩ • ويقول انسه لما حملت هذه القراطين الى بلاد الرومان وهم امبراطورهم بها استشاط غضبا واستكروا فيها وكتب الى عبد الملك يقول : " ان عمل القراطين من بمصر وسائر ما يطير هناك للرومان ولم يزل يطير بطرازهم فان كان مسن تقدمك من الخلفاء قد اصاب فقد اخطأت وان كنت قد اصبحت فقد اخطسأوا فاختر احدى الحالتين وارسل اليه هديه يفرجه بها حتى يحيد القراطين الى ماكانت عليه فردها اليه عبد الملك ولم يحط بها اى اهتمام ولم يجيب الامبراطور الرومانى الى رغبته • عند ذلك هدد الامبراطور بنقش سب النبي عليه الصلاة والسلام على النقود • مما ادى الى ضرب النقود الاسلامية آنذاك • نفس المصدر السابق •

تدل فسي الواقع على ان اللغتين اليونانية والعربية كانتا مستعملتين فـــــــ
دواوين الحكومة حتى ذلك العصر • فلما كانت سنة ٨٢ هـ نقل عبدالله بن عبدالملك
دواوين مصر الى اللغة العربية • وذلك صارت اللغة العربية هي اللغة الرسمية
التي تدون بها الاعمال بدلا من اللغة اليونانية • (١)

(٢) جوهان : اوراق البردي الصفر ١ ص ٢٥-٢٦ طراز رقم ٥٩ ويقسول
جاستون فيت انخد بداسة اوراق البردي التي ترجع الى الحصر العربي في مصر
يمكن ان نستخلص ان الاوراق البردية التي دونت باللغتين العربية واليونانية
اقدمها يرجع الى سنة ٢٢ هـ (٢٤٣ م) واحدها يرجع الى سنة ١٠١ هـ -
٧١٩ م وهناك برديات باللغة اليونانية فقط اخرها مؤرخ في سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م)
اما اوراق البردي المدونة بالعربية فقط فاقدمها يرجع الى سنة ٩٠ هـ (٧٠٩ م)
انظر : G. Wiet: L'Egypte Musulmane, P.138, et
Zaki Hassan : Les Tulunides, P.217.

ولفظ طراز فارسي الاصل معناه التطريز ثم صار يطلق على الثوب الموشى •
ثم اطلق هذا اللفظ اخيرا على الدار التي كان يصنع فيها الثياب او على المادة
التي تستعمل في التطريز ثم تطورا احتمال هذا اللفظ وصار يطلق على
كل قطعة من النسيج عليها كلمات مقنونة او مكتوبة واطلق لفظ طراز اخيرا
على الكتابة التي كانت تكتب على دج البردي • في الدار التي كان يصنع
بها اوراق البردي ويطلق عليها اسم " الطراز " •

وكان دج البردي يتكون من عشرين ورقة ملصق بعضها ببعض وتسمى الورقة
الاولى من هذه الاوراق باليونانية Protocol اي اللصق الاول وكانت تشتمل
على الكتابة الرسمية التي تسمى الان الطراز • انظر جوهان : اوراق البردي
السفر الاول ص ٣٤

(١) القزويني : الخطط ج ١ ص ١٥٨ وكانت دواوين الخراج والجباهات وغيرها
من الدواوين في البلاد الاسلامية شأنها شأن مصر على ما كانت عليه قبل الفتح
العربي لها فديوان العراق كان باللغة الفارسية وديوان الشام بالرومية • وكتاب
الديوان من اهل العهد من الفريقين فلما كانت خلافة عبدالملك بن مروان يقول
ابن خلدون في المقدمة ص ٢٤٢ استحل الامر ملكا وانتقل القوم من غضاضة
الهداوة الى وثق الحضارة ومن مذابحة الامة الى حذق الكتابة وظهور
في العرب وبوالهم ماهرة في الكتابة والحسان • ومن ثم فكر عبدالملك في جعل
اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الدواوين واعمال الحكومة وامر سليمان
ابن سعد ان ينقل ديوان الشام الى اللغة العربية فكان ذلك وجعل عليه
سرجون بن منصور كاتب عبدالملك فقال للكتاب الرومان اطلبوا العيش في غير
هذه الصناعات فقد قطعها الله عنكم اما ديوان العراق فقد امر الحجاج ابن يوسف
التقي كاتبه صالح بن عبدالرحمن الذي كان يعلم الكتابة بالعربية والفارسية
بتمهيد ديوان العراق فكان ذلك انظر القزويني : الخطط ج ١ ص ١٥٨-١٥٩
مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٣-٢٤٤

وقد أدت عملية تعريب الدواوين في مصر الى نقل كثير من المصطلحات اليونانية والقبطية الى اللغة العربية . ومن ثم صار للتعريب السيادة اللغوية الى جانب السيادة السياسية والحربية . وبدأت تنتشر اللغة العربية في جميع المدن والقرى المصرية وأصبحت لغة الادارة والحكم والتدريج . صارت بعد ذلك لغة الثقافة ولغة التخاطب . فضلا عن انها لغة السياسة والدين . (١)

ونلاحظ ان تعريب الدواوين في سنة ٨٧ هـ لم يقض نهائيا على استخدام اللغة اليونانية في كتابة الوثائق الرسمية . فكان من الضروري ان يكون هناك مرحلة انتقال يتم بعدها توقف استخدام اللغة اليونانية في الاعمال الرسمية . فقد استمرت اللغة اليونانية تدون بها الوثائق الى جانب اللغة العربية طوال عهد الامير عبدالله ابن عبدالملك وفي عهد خلفه قرة بن شريك . ويؤكد ذلك كثير من الاوراق البهريسة (التي ترجع الى الفترة ما بين سنتي ٨٦ و ٩٦ هـ) . (٢)

كما تشير احدى اوراق البهريسة العربية الى احتمال اللغة اليونانية فسمى بعضها لوثائق في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ولا شك ان ذلك يدلنا على ان بعض المصريين كان لا يزال يلجأ باللغة اليونانية حتى ذلك الوقت . ويتجسد ذلك بها . وتتضمن هذه البهريسة نظم بعض القرى المصرية من عال الضرائب وهي مؤرخة في سنة ١٣٧ — ١٤٠ هـ (٧٥٤ — ٧٥٧ م) وتتكون هذه الوثيقة من واحد ومائة سطر كتبت الثانون اسطر الاولى فيها باللغة القبطية والاثني عشر سطر التاليسه باللغة اليونانية اما باقى الاسطر فقد كتبت باللغة العربية . والاسطر القبطية تحوى على نص الاخطار الاصلية . (٣) وذلك يدلنا على همدون شك — على ان رؤساء

(١) سيدة كاشف : عبدالعزیز بن مروان ص ١٤٥

(٢) جروهمان : اوراق البهريسة ج ١ طراز ٦ ص ١١ — طراز ٦١ ص ١٣ طراز ٢٢ ص ١٤ — طراز ٣١ ص ١٦ — طراز ١٨ ص ١٧ — طراز ٥٠ ص ١٨ — طراز ٥١ ص ١٩ — طراز ٢١ ص ٢٠ — الى غير ذلك من البهريسات المتعددة حتى ص ٤٩

(٣) جروهمان : اوراق البهريسة ج ٢ ص ٦٧ — ٧٠

القرى كان جلهم تقيها من القبط في ذلك العصر الى جانب ان اللغة القبطية كانت هي اللغة المستعملة في القرى المصرية في حياة القبط وفي تعاملهم في المجتمع المصري. ولم تكن اللغة العربية حتى ذلك العصر قد صارت لغة التخاطب والمعاملات الكلية في جميع المدن والقرى المصرية. اما النصارى اليوناني في هذه البردية فكان عبارة عن وصف دقيق لبعض محتويات النص مثل اسماء الجعاعات التي كتبت الاخطار بينهم كان النصارى المصري اكثر اختصارا. (١)

ويرى بعض الكتاب المحدثين (٢) ان استخدام اللغتين اليونانية والعربية في مصر في التخاطب والمعاملات بين الرومان والقبط وغيرهم كان سائدا بين سكان مصر ولنا على ذلك ما جاء في بعض اوراق البردي حيث يوجد ثبوتا عبارة عن احسد عشر سطرا وضم اسماء لبعض القبط ويرجع خطه اليوناني المنق الى القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) . (٣)

ونستخلص من دراسة اوراق البردي المصرية ان اللغة القبطية كانت تستخدم في كتابة بعض الوثائق في مصر الاسلامية كما رأينا في البردية المتضمنة ظلامسة بعض القرى - وان كان من المصير ان نقول ان اللغة القبطية قد اصبحت لفظة رسمية في المعاملات الحكومية وانما كانت في العتبة الثالثة بعد اللغتين العربية واليونانية (٤) ونستدل على ذلك ببعض اوراق البردي التي كان يكتب فيها النصارى القبطي في نهاية الوثيقة . (٥) او في ظهورها (٦) وضاف الى ذلك

-
- (١) جوهان : اوراق البردي ج ٢ ص ٧٠
 - (٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٤٥١-٤٥٢
 - (٣) جوهان : اوراق البردي ج ١ ص ٥٤
 - (٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٤٥١
 - (٥) ويقول جوهان في وصف الطراز رقم ١٦ المورخ في سنتي ٨٦ - ٩٦ (ج ١ ص ١١) وفي اسفل الداراز فراغ عرضه ١٥ سم وفي اسفله نص قبطي عشرة اسطر وايضا الطراز رقم ٦١ ص ١٢ وفيه نجد بين نص الوثيقة اليوناني وبين نص النص القبطي ٥ سم . وكذلك البردية رقم ٤ ص ٤٤ يوجد بين النص القبطي وبين الطراز ١٥ سم .

ان النص القبطى كان — فى الغالب — يكتب بحجر يختلف لونه عن لون الحجر السذى يكتب به نص الوثيقة العربى او اليونانى . (١)

وبالرغم من ان اللغة العربية قد اصبحت اللغة الرسمية فى البلاد المصرية او بمعنى اخر لغة السياسة والحكم فإنه من الواضح ان القرن الثانى الهجرى — الثامن الميلادى — انها لم تصبح لغة التخاطب بين سكان مصر جميعا . وانه كان لا يزال يجهلها كثير من القبط ونرى ذلك واضحا حينما قيصر مروان — آخر الخلفاء الامويين — على البطرك انها ظاهرا لضعف الاساقفة وكان هؤلاء القبط لا يفهمون العربية ولا يمكنهم الحديث بها . وكان مروان بن محمد يصحب معه بعض المترجمة الذين تولوا ترجمة الحديث الذى دار بين مروان وبين البطرك القبطى لعدم فهم كل منهما للغة الاخر . (٢)

وتشير بعض المصادر القبطية الحديثة الى ان اللغة العربية بدأت تنافس اللغة القبطية فى التعليم والدراسة وفى مختلف العبادات منذ القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى . ولا غرو فان حلول اللغة العربية محل اللغة القبطية فى الكتابة سبقه انتشار اللغة العربية كلغة للتخاطب بين افراد الشعب فقد اصبحت اللغة العربية لغة الدواوين ثم صارت لغة التعليم والدراسة . وقد اصبحت القبط انفسهم فى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) يؤلف علماء وفلاسفة

(١) جوهان اوراق اليردى جا الطراز رقم ٦٦ ص ٢٣ وه سطر ١١ على متن قبطى كتب فى ظهر الطراز والطراز رقم ٧ ص ٤٢ وظهره اربعة عشر سطر من صك قبطى — وكذلك الطراز رقم ٤ ص ٤٦ اربعة اسطر قبطية فى ظهر الاصل .

(١) انظر وصفى جوهان (جا ص ١١) للطراز رقم ٦ فان الصك مكتوب بحجر بنى مائل للحمراء على حين كتبت السطور القبطية بحيز اسود . وكذلك الطل فى الطراز ٦١ ص ١٣ والطراز ٦٦ ص ٢٣ والطراز ٧ ص ٤٢ وعلى العكس من ذلك الطراز رقم ٣ ص ٤٤ فان لون الحجر فى نصه الاصلى اسود ولونه فى النص القبطى بنى .

(٢) ابن المقفع : ميرالاباء البطرك رقم ١ جا ص ١٩٧ — ١٩٨

في العلوم اللاهوتية باللغة العربية ما يدل على أنها صارت لغة العلم وكان يفهمها
أغلب سكان مصر. (١)

ونرى أن تحول كثير من الذين إلى اعتناق الدين الاسلامي كان من
أهم العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة العربية فصارت لغة التخاطب ثم لنفسة
العلم والدراسة. إذ كان لزاما على هؤلاء المتحولين إلى الاسلام أن يدرسوا
اللغة العربية ويفهموا فيها حتى يتوكلوا من قوامة القرآن وفهم شرائع الاسلام.
ومن ثم صارت اللغة العربية بالتدريج على مر العصور التاريخية - ضرورة في عمليات
البيع والشراء في المدن. كما أقبل القبط في القرى على تعلم اللغة العربية
واستعمالها في حياتهم اليومية. (٢)

وبالرغم من انتشار اللغة العربية في بداية القرن الثالث الهجري وفهم
كثير من القبط لها فإن ذلك لم يقض نهايتها على اللغة القبطية، إذ يبدو أن بعض
القبط استمر مطلقا على لفته القبطية دون مطولة لمعرفة غيرها. ويؤكد
ذلك أن الخليفة المأمون لما زار مصر في بداية القرن الثالث الهجري كان يصحب
معه المترجمين عند زيارته لبعض المدن والقرى التي مربها في طريقه.

فيقول الخوري (٣) أن الخليفة المأمون مرفى طريقه بقية طاء النمسيل
فلم يدخلها وكانت ملكا لمجوز قبطية تسمى مارية. فخرجت هذه المرأة تنسادي

(١) مراد كامل : حضارة مصر في العصر القبطي ص ٧١-٧٢.
يسمى هذا المصحح اللهجات القبطية وآثارها الأدبية ص ٤٩ (رسالة
مارينا سنة ١٩٥٤م).

(٢) G. Wiet : L'Egypte Musulmane. P. 138.

(٣) الخطط ج ١ ص ١٣٠-١٣١

على الخليفة فظنهما المأمون مستغيثة مظلمة ، فوقف لها وكان لا يمشى ابدا الا والتراجمة بين يديه من كل جنس فذكروا له ان القبطية قالت : يا أمير المؤمنين نزلت في كل ضيعة وتجاوزت شيعتى والقبط تعيرونى بذلك . وانا أسأل امير المؤمنين ان يشرفى بحلوله فى ضيعتى ليكون لى الشرف والعقبى ولا تشمت به الاعداء .*

وحدث فى عصر هذا الخليفة ايضا ان البطرك كثيرا ما كان يخاطب اساقفته باللغة القبطية مع علمهم جميعا باللغة العربية . فقد حدث ان قاض مصر آنذاك محمد ابن عبد الله استدعى البطرك انبا يوساب وبعض الاساقفة الذين سمعوا به لدى هذا القاضى وتمهد القاضى المذكور اهانة البطرك انبا يوساب امام هؤلاء الاساقفة . فوجه البطرك بعض الكلام الى هؤلاء الاساقفة الخارجين عليه باللغة القبطية وكان فى هذا المجلس جماعة من الفقهاء المسلمين الذين يعلمون القبطية فترجعوا للقاضى ما قاله البطرك باللغة العربية . (١)

ويؤكد ذلك بعض اوراق البردى التى ترجع الى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فهناك بردية موزقة فى ذى القعدة سنة ٢٣٩ هـ . تتضمن قد بيع وتشير الى ان احد القبط قد ادلى بشهادته على هذا المقعد وكتب شهادته واسمه باللغة القبطية . (٢) ومع ذلك فان ما قام به الخليفة المباسم الممتص من اسقاط الموب من الديوان قد أدى الى اختلاط العرب بالعصرين فى القرى والبدن المصرية ، مما كان له اثره الواضح فى انتشار اللغة العربية بمصر وقضاها على اللغة القبطية . (٣)

اخذت اللغة العربية تجد طريقها بين اهل الذمة حتى صارت الاغلبية منهم تجيدها قراءة وفهما وتحدث بها فى العصر الطولونى وبدلتنا على ذلك ما جاء

(١) ابن القلق : سير الالباء البطارقة ج ١ ص ٢٩١

(٢) جروسمان : اوراق البردى ج ١ ص ١٤٦ - ١٥٢

(٣) سيدة كاشف : مصر فى فصول السلام ص ٢٥٧ - ٢٥٨

في بعض الأوراق البردية فهناك بردية مؤرخة في سنة ٢٧٤ هـ وفيها ان احد القبط
قد ادلى بشهادته وجاء في هذه البردية " اقرا دانيال بجميع ما في هذا الكتاب
يحد ان قرئ عليه حرفا حرفا فأقر بفهمها ومعرفته بها فيه " (١)

ولمخ الامران صارت جميع وثائق اهل الذمة سواء كانت تتضمن عقد بيع
او شراء او عقود الزواج تكتب باللغة العربية ومن الامثلة على ذلك بردية تتضمن
عقد زواج ثم في الاشمونين بين يحنس بن شنودة وبين زوجته القبطية (٢)

ونحن نرجح ان اللغة القبطية كانت مازالت متداولة بين بعض القبط حتى عهد
الامراء الاخشيديين واستمر ذلك حتى اواخر القرن الرابع الهجري (العاشر
الميلادي) فيقول القديس (٣) عن سكان مصر " لغتهم عربية " وذتهم يتحدثون
القبطية " اي ان اللغة التي كانت سائدة في البلاد وفي المعاملات المختلفة وشئون
السياسة والحكم بل والعلم والدراسة كانت هي اللغة العربية. بينما كان اهل
الذمة حتى ذلك العصر لا يزال كثير منهم يتكلم القبطية وقد يكون ذلك الى جانب
فهمهم والعامهم باللغة العربية.

ونستدل على ذلك بان سعيد بن بطريق البطريرك المكي قد ألف كتابا
في التاريخ باللغة العربية وذلك في النصف الاول من القرن الرابع الهجري. ثم
جاء بعده الاسقف ساويرس بن العفيع - اسقف مدينة الاشمونين - فكتب كتابا
المشهور " سير الابهاء البطارقة " في اواخر القرن الرابع الهجري (العاشر
الميلادي) في عهد الخليفة الفاطمي المماليك في اللغة العربية. وكسان
ساويرس (٤) يقوم بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها الى اللغة العربية
ما يؤكد لنا ان اللغة العربية قد اصبحت آنذاك لغة التخاطب بين المصريين عامة.

(١) جروهان : أوراق البردي ج ٢ ص ١٧٠

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٨٥-٨٦

(٣) احسن التقاسيم : ص ٢٠٣ و The Oxford Dictionary of the Christian Church, Art. Coptic. P. 342.

(٤) سير الابهاء البطارقة ج ١ ص ٦

ويقول ساويرس في مقدمة كتابه المذكور " . . . فاستعنت بمن اطم استحقاقهم من الاخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتي على نقل ما وجدته فيها بالقلم القبطي واليوناني الى القلم العربي الذي هو الان معروف عند اهل الزمان باقليم ديسار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من اكثرهم " .

ويتهم بعض كتاب القبط المحدثين بعض حكام مصر الاسلامية بمطوالتهم اقتلاع اللغة القبطية ومنع المصريين من التحدث بها ومن ثم القضاء عليها تماما ويوجه هذا الاتهام بصفة خاصة الى الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله . فنسراه يقول ان الحاكم بامر الله لم يقتصر على صادرة الاقباط في كتاباتهم ومنازلهم واملاكهم ودياراتهم ومقنناتهم ولا باستبدال لغتهم القبطية في دواوين الحكومة ومسالحها واعمالها الكتابية والحسابية باللغة العربية من ايام الامير عبداللـه (سنة ٧٠٤ م) بل زاد الطين بلة . فأمر بحرق هذه اللغة محو تاما وازالة كل اثر لها وذلك بلطال التحدث بها في البيوت والطرق ومعاينة كل من يستعملها بسقط لسانه واقتدى بها الحاكم في مطوعة اللغة القبطية كثيرون من خلفائه (١)

ونحن نرى انه لم يوجد في المصادر التاريخية المختلفة ما يشير الى ذلك صراحة في عصر الحاكم بامر الله او عصر غيره من حكام مصر المسلمين . ولمسجل هذا الكاتب القبطي اعتمد في اتهامه هذا على موقف الحاكم بامر الله العديد من القبط والزامهم ببعض الاحكام القاسية في عصره . وايضا لعله بنى رأيه هذا على مانسبه بعض المؤرخين القبط الى هذا الخليفة من انه عرض على بعض القبط الاسلام وانه الحق بهم كثيرا من صنوف المذاب والارهاب في سبيل ذلك فعزى انه لابد انه قام بمثل ذلك في سبيل ترك القبط لغتهم وسيادة اللغة العربية بينهم ففسى الحديث والدراسة وغيرها .

(١) بانوب جشمى : اللغة القبطية بين الكنائس والاديرة ص ١٧ (رسالة طريتا سنة ١٩٤٧ م) .

ويشير بعض الكتاب المحدثين أيضا الى انه في القرون الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلادى) ظهر غفط فهب بين القبط ذلك انهم ارادوا ان يعتزوا بقوميتهم ويحفظوا على لغتهم فجمعوا الكتب القبطية فسنى دير سنت مكار الا ان حركتهم هذه باءت بالفشل فى القرن التالى - اى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) لان اللغة القبطية كانت تتقهقر امام اللغة العربية وكر اقبال الناس على ترجمة الكتب الدينية من اللغة القبطية الى اللغة العربية . كما انه بعد القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كان رجال الكنيسة يقرأون صلواتهم باللغة القبطية بينما كانت الكتب الدينية باللغة العربية . (١)

وعليه يبدو ان قدرة القبط على فهم اللغة العربية وتعلمها وهى لغة حكامهم المسلمين وعمالهم اللغة القبطية قد ادى تدريجيا وبمرور الوقت الى فقدان اللغة القبطية لاهميتها كما ان المستخدمين القبط لم يعودوا يستخدمون اللغة القبطية فى حد يسهم ولا فسى كتاباتهم وانما كانوا يستخدمون اللغة العربية مما ادى الى نقص اهمية اللغة القبطية ثم اختفائها تماما فى مصر . (٢)

وتطور الامر بعد ذلك الى ان صار القبط يستخدمون اللغة العربية الى جانب اللغة القبطية فى الكنيسة فقد قرئ تقليد القس انبا مقارة بطريركا فى كنيسة المحلقة فى عهد الخليفة الفاطمى الامير باحكام الله . باللغات اليونانية والقبطية والعربية . (٣) وفى القرن الخامس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) امر البطريرك انبا غبريال القص بقراءة الصلوات والعزائم الدينية باللغة العربية - المائدة انذاك . كما عني ايضا بترجمة جميع الكتب والطقوس الدينية الى اللغة العربية حتى يفهمها طائفة الشعب جميعا . (٤)

-
- (١) محمد كامل حنين : ادى عصر الاسلامى ص ٣٢ - ٣٣
 (٢) Quatremere: Recherches Critique et Historique sur la langue.
 (٣) ابن المقفع : سيرة الابطاء البطرك الم ٣ ج ٤ ص ٤٠٠
 Synaxaire Arabe Jacobite, T.1. P.16.
 (٤) Chronique de Michel le Syrien, T.3, fasc.2.P.235,
 et Meinardua: Christian Egypt. P.108, and
 Butler: Ancient Churches, T.2. P.252.

ومع ذلك استمرت اللغة القبطية معروفة لدى بعض القبط حتى عصر السورخ
ابو صالح الاومى (فى القرن السادس الهجرى) فكان من عادة سكان امنسا ،
ان يصعدوا الى القبط بالخطا فى افراحهم باللغة القبطية الصعيدية . (١) ويؤكد
ذلك ايضا ان ابا الفخرين ازهر الذى ترك دينه اليهودى واعتنق المسيحية (فى
القرن السادس الهجرى) قد تعلم اللغة القبطية بطلاقة . فكان يجادل اليهسود
باللغة المبرية ويفسره للقبط باللغة القبطية . (٢) وذلك يدلنا على بقاء اللغة
القبطية بين القبط يتحدثون بها ويتدارسون بها ايضا حتى ذلك المصمر ،
وما بعد .

وتم فى القرنين السادس والسابع الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر
الميلاديين) ترجمة كتب الطقوس الدينية الى اللغة العربية لتكون بجانب
النسخ القبطية لها . (٣) وحتى عصر الموح القريزى (القرن التاسع الهجرى
— الخامس عشر الميلادى) كان القبط مازالوا يتكلمون القوطية فى الاديرة حول
اسيوط . (٤)

والواضح ان المصادر التاريخية المصرية قلما تشير الى انتشار اللغسة
العربية بين اليهود — وذلك بمكسها لسناء بالنسبة للقبط — ولعل ذلك

(١) ابو صالح الاومى ص ١٢٩ و Butler: Op. Cit., P. 252.

(٢) ابن القفج : سير الالبا البطارقة م ٣ ج ١ ص ٥٣.

(٣) Meinardus: Christian Egypt. P. 108, and Butler: Op. Cit., P. 252.

(٤) القريزى الخط ج ١ ص ٤١٦ .

وقول ان نصارى قريسة ادركوا كانوا فى عصره يتقنون القبطية ،
يفسرون بها أمور دينهم .

كان واجما كما ذكرنا مرارا الى قلة عدد اليهود في مصر بالنسبة لعدد القبط .
ويقول المقدسي (١) عن سكان مصر واهل الذمة بها خاصة " وعامة ذمته نصارى ،
يقال لهم القبط ، ويهود قليل "

والرغم من ذلك نجد اشارات في بعض المصادر الحديثة المعتمدة على
الوثائق المصرية (وخاصة الـ Cairo Geniza) تؤكد ان اللغة المصرية
قد انتشرت بين اليهود ايضا شأنهم في ذلك شأن القبط كما انها اصبحت لغة
الدراسة والعلم بينهم . ويؤكد ذلك ان سعيد بن يوسف الفيومي - Saadia B. You-
ssif. يقال له ايضا Saadia Hagouni الذي عاش في الفترة ما بين سنتي ٨٩٢ - ٩٤٢ م
(اى في القرنين الثالث والرابع الهجريين) كان اول من نبغ في الدراسات العلمية
والادبية من بين اليهود ووضعه هذا العالم اليهودي كثيرا من المؤلفات باللغة
العربية بل انه ترجم التوراة الى اللغة العربية مع التعليقات والشرح حتى
يسهل فهم عامة اليهود لها . (٢)

ولاشك ان ذلك يدل على ان عامة اليهود كانوا في ذلك العصر يتحدثون
بالعربية بحيث اصبحت يصعب عليهم فهم العبرية . فقام هذا العالم اليهودي بترجمة
التوراة وشرحه بالعربية لغة عصره . ولم يقتصر الامر على ذلك بل نراه يحمل مجسما
لقواعد اللغة المصرية وجعل فيه ما يقابل العبري باللغة المصرية . (٣) حتى
يكون في متناول الجميع .

وقد عاصر هذا العالم اليهودي عالم يهودي آخر يسمى اسحق بن سليمان
الاسرائيلي وقد نبغ في الطب والفلسفة ، وألف كتبه في هذه الصيادين باللغة
العربية ايضا ثم رحل من مصر الى المغرب ليحمل في خدمة الخلفاء الفاطميين
هناك . (٤)

(١) احسن التقاسيم ص ٢٠٢

(٢) Maurice Fargon : Les Juifs. P. 115.

(٣) Ibid. P. 115, et The Itinerary of Benjamin, T.2. P. 244.

(٤) Maurice Fargon : Op. Cit., P. 115.

وهكذا انتشر الاسلام بسرعة عظيمة في مصر وصار دين الاغلبية المظلمسى بين سكانها ، كما انتشرت اللغة العربية وصار لها السيادة اللغوية ثم أصبحت لغة جميع سكان البلاد المصرية ، في المعاملات المياسية والتجارية وفي الحياة الاجتماعية . كما استخدمها القبط في كتاباتهم بدلا من اللغة القبطية ومن ثم اندثرت اللغة القبطية حتى صار يعجز عن فهمها عامة القبط ولا شك في ان ذلك كما تذهب بعض المصادر الحديثة كان ميزة من مميزات العربية على غيرهم من الفاتحين فان الشعوب المختلفة التي توالى على مصر قبل الفتح العرب لها لم تستطع القضاء على لغة المصريين كما حدث بالنسبة للعرب (١)

الاشارة للفردوسى

(١) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٦٠

واذا قارنا ما حدث في مصر بما حدث في غيرها من البلاد المفتوحة نجد ان فتح العرب لايران مثلا والهند لم يقض على لغتها القومية ولم يقض على المقائد الدينية فيها عند الفتح قضا تاما ولم يمتح اعتناق الاتراك الدين الاسلامى من احتفاظهم بلغتهم القومية والاندلس التي كانت تزدهر فيها الحضارة الاسلامية بعد فتح العرب لها تغلب على امرها في اواخر المصور الوسطى وتمود ثانية دولة مسيحية الدين بعيدة عن اللغة العربية. انظر نفس المصدر ص ٢٦١-٢٦٢

٦- أثر سياسة الضرائب في انتشار الاسلام والتعريب

يأتى في مقدمة الضرائب الجزية والخراج • وقبل ان نخوض في البحث في هاتين الضريبتين وغيرها ، يجدر بنا ان نعرف كلا من اللفظين فالجزية هي ضريبة الروس اما الخراج فهو الضريبة العقارية المفوضة على الارض • (١) وقد كان لهاتين الضريبتين اثرهما في ايجاد انتشار الاسلام والتعريب في مصر

ويرى فان بوش Van Berchem ان كلمة خراج يقصد بها الضريبة المقابلة وايضا جزية الروس وانها احيانا تطلق على ضرائب اخرى تختلف في طبيعتها عن هاتين الضريبتين • (٢) بينما يرى فلها وزن ان لفظي خراج وجزية كانا لفظين مترادفين ولم يتعد مدلولهما معنى اناوة Tribute وان العرب لم يميزوا بين ضريبة الارض وضريبة الرأس الا منذ سنة ١٢١ هـ وكان من اعد المتحسين لرأى فلها وزن ، بكر G.H.Becker ويذهب بكر الى ان العرب في مصر طلبوا اناوة نقدية ، بحسب مقدارها بمعدل دينارين عن كل فرد من الرجال الى جانب اناوة عينية تضاهي ضريبة القمح Embolé في عهد الرومان وكانت هذه الاتاوات تجمع بواسطة المصريين طبقا للنظم البيزنطية - التي ابقى عليها عرب بن المصمك دون تغيير يذكر - وضيف بكر الى ذلك ، ان جزءا من هذه الاتاوة كان يأتى من تطبيق ضريبة الرأس البيزنطية القديمة • (٣)

ثم يقول بكر انه لما كان العرب هم الذين يتصلون بالضرائب دون القيسية بجسمها او ثقلها فهم لهذا لم يميزوا بأي شكل من الاشكال بين ضريبة الارض وضريبة الرأس ، وانه قد حدث اول تحول عن هذا النظام في ولاية عبد العزيز بن زياد عندما فرض ضريبة رأس على الرهبان بمعدل دينار على كل منهم وذلك المسمى

الرأس

- (١) واسم الجزية مشتق من الجزاء اما جزاء على كفرهم لاخذها منهم صفارا لهم واما جزاء على امان المسلمين لهم لاخذها منهم وقفا • اما الخراج فهو كراة الارض وليس فيه صفاء ولا ذلة لاهل الذمة كالجزية وكانت كل من الجزية والخراج حسب طاقة اهل الذمة • انظر في ذلك الماوردي الاحكام السلطانية ص ٣٧-١٣٩ ابن الفراء : الاحكام السلطانية ص ٣٧-١ ابو عبيد : الاموال ص ٤١-٥٢٣ الشافعي : الام ج ٢ ص ٣٢٠ - وغيرها من كتب الفقه والخراج
- (٢) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٣٧
- (٣) داتيل ديتيت : الجزية والاسلام ص ٣-٣٢

جانب ما كان يجمعه الموظفون المصريون ، وبعد احصاء السكان الذى قام به عيسى بن الله بن الجهط ادخل عند ذلك النظام الحقيقى لضريبة الارض وضريبة الرأس ، أى الخراج والجزية . ويستند فى ذلك الى ان كلمة خراج لم تذكر فى اية بردية يرجع تاريخها الى القرن الاول الهجرى فى مصر . (١)

والحقيقة اننا كثيراً ما نجد خلطاً فى المصادر التاريخية فى استعمال لفظى الخراج والجزية . فنرى احياناً لفظ الجزية يعنى ضريبة الارض وضريبة الرأس معاً . كما اننا نجد احياناً لفظ الخراج يعنى الضريبتين معاً ، او جميع ما يجبى من اهل الذمة من الضرائب نذكر من الامثلة على ذلك ابن عبد الحكم المؤرخ المصرى المسلم فهو يستعمل لفظ الجزية احياناً بمعناه الدقيق فيقصد به ضريبة الرأس واحياناً يستعمله للدلالة على كل الضرائب المفوضة على الذميين . كما انه يستعمله ايضا احياناً للدلالة على الخراج دون غيره من الضرائب كما يستخدم لفظ خراج بمعنى ضريبة الرأس . (٢)

بينما نجد المؤرخ القبطى ساويرس يقصد احياناً بلفظ الخراج الضرائب عامة وكثيراً ما يستعمله بمعناه الدقيق — أى ضريبة الارض — اما لفظ الجزية فلم يستخدمه على الاطلاق الا بمعناه الخاص وهو ضريبة الرأس . (٣)

الجزية :

اما عن الجزية ، وهى ضريبة الرأس ، فنجد المصادر التاريخية العربية المختلفة تجمع على وجودها فى مصر الاسلامية حيث يلتزم بدفعها اهل الذمة . ويناقش دانييل دانيت بعضاً من الكتاب المحدثين فى ذلك فيشير الى ان المؤرخ كايثانى يرفض وجود مثل هذه الضريبة بينما يعفها بكريانها حقيقة تاريخية وان كان يرى ان ضريبة الدينارين على كل فرد معدل نظرياً استعمله عمرو بن العاص ليحسب به ما أراد ان

-
- (١) دانييل دانيت : الجزية والاسلام ص ٢٢
 (٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٤ — ٢٠٥ — ٢٠٩ — ٢١٠
 (٣) ابن القلق : سير الابرار البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٣ — ١٤٥ م ٢ ج ١ ص ٣

خمس صفحات
 حتى ص ١٠٤
 ما عدا فقرة
 بالبحث ؟

يحصل عليه من ايراد * وان الدخل الذى يودى منه الافراد ضريبتهم كان يأتى من
اوجه نشاط مختلفة حسب عمل كل فرد منهم ولكن الغالبية العظمى من المصريين
كانت تعمل فى الزراعة وذلك كان ما يدفعه القبط من ضرائب من ايراداتهم من
فلاحة الارض عليه فان ضريبة الدينارين كانت اناوة شملت الضرائب من جميع الانواع
التي كانت تجبى من المصريين وان ضريبة الرأس كانت جزءا من اناوة وانهم
ضريبة ضئيلة لا اشهر لها تقريبا فى عيلة الايراد * (١)

ونحن نرى انه من الصبر قبول ما ذهب اليه بكرى بأن الجزية فى مصر ونقول
ان الجزية كانت ضريبة مستقلة عن غيرها من الضرائب وانها تتضمن نسبة كبيرة لها
شأنها فى مالية البلاد المصرية — كما سنرى — ونستدل على رأينا هذا بما جاء
فى النصوص المختلفة بشأن الجزية وضريبة الرأس والتي جء فيها ان الجزية او بمعنى
اخر معدل الدينارين لم يكن شاملا لجميع الضرائب التي التزم الذميون فى مصر
بأدائها للمصرى ويؤيد ذلك ايضا كثير من اوراق البردى ويجد ربنا الاشارة
الى النصوص والمهود المختلفة التي تضمنت فرض الجزية وغيرها من الضرائب على
المصريين *

* فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على ان يفرض على جميع من بمصر
اعلاها واسفلها دينا رين دينا رين * عن كل نفس شريفهم ورضيهم ومن
بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ القادسي ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم * ولا على
النساء شى * وعلى ان للمسلمين عليهم النزل لجناحهم حيث نزلوا ومن نزل عليه
ضيف واحد من المسلمين او اكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة ايام مفترضة عليهم *

(١) دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٢٦ الى ١٢٧ *
ويشير الى ان كل من فلها وزن وكرا ان ضريبة الرأس او معدل الدينارين عبارة
عن اناوة وليست جزية رأس والواقع انها ضريبة تجبى على الفرد تبدو وكأنها
ضريبة رأس ولكنها غيبية بها ويفسر بكر ذلك بان العرب لم يكن لهم شأن
بالارض وان علاقاتهم كانت بالناس الذين يودون الضريبة إلا ان هذا يودى
الى الارتباك والحيرة ولذا أخذ على سبيل القياس مثلا من حياتنا الحضارية
فنقول ان رسم الانتاج على الطباق او التعريفات الجمركية على السكر شبيهان
بضريبة الرأس بمعنى ان الفرد يدفع نقودا بالفعل فى الاجراءات العملية
لفرض الضرائب * نفس المصدر ص ١٢٧

وان لهم ارضهم وأموالهم * لا يتعرض لهم في شيء منها * فشرط هذا كله على -
القبط خاصة واحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية * وفرض عليهم
الدينارين * رفع ذلك عرفاؤهم ^(١) بالايمان المركدة فكان جميع من احصى يومئذ
بمصر اعلاها واسفلها من جميع القبط فيما احصوا وكتبوا ورقموا اكثر من ستة الاف الف
نفس * وكانت فرضتهم يومئذ اثني عشر الف دينار في كل سنة * ^(٢)

ويذكر البلاذري ^(٣) ان عمرو بن العاص لما عقد صلح نابليون فرض على كل
بالغ من القبط دينارين الا ان يكون فقيرا وان يدفع ملاك الاواشي منهم الى جانب
الدينارين ثلاث اراذب خنطة وقسطي زيت وقسطي عسل وقسطي خل * وزقنا
للمسلمين تجمع في دار الرزق وتقسم بينهم * وان يقدموا لكل مسلم جبة صوف
وبرنسا او عمامة وسراويل وخفين في كل عام * ويجوز لهم ان يستبدلوا الجبة الصوف
بثوب قبطي * وفي مقابل ذلك يكون لهم الامان على اموالهم واملاكهم ولا تسبى نساؤهم
واولادهم *

كما جاء في الامان الذي منحه عمرو بن العاص لقبط مصر * * * وعلى اهل مصر
ان يسطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف
وعليهم ما جنى لصوتهم فان ابى احدا منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم *
وذمتنا من ابى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك * ^(٤)

(١) المصنف هو العالم بالشيء ومن يعرف اصطبه ويذكر دي ساس De Saoy
ان المصنف معناه الكاتب وهي مقابلة للكلمة اليونانية جرافساي كاتب * انظر
سيده كاشف : مصر في فجر الاسلام حاشية ص ٣٧
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وخباياها ص ٢٤١ اما تكرار كلمة دينارين فلمل
ذلك بمعنى ان كل رجل من القبط سيدفع اربعة دنانير لان عمرو بن العاص قد
اغى القبط من دفع الجزية سنة الفتح على ان يؤدونها في السنة التالية *
ويؤيد ذلك رواية الواقدي (فتوح الشام ج ٢ ص ٨٤) وتتضمن ان عمرا قال
للقبط عندما تسلم الحصن * * * اناكم على انفسكم اولادكم وحريكم منه منا عليكم
وقد وضعت حكم الجزية هذه السنة وفي السنة الاتية تأخذ منكم من كل محتلم
اربعة دنانير * * *

(٣) فتوح البلدان ص ٢١٦

ويقول ابو صالح الارمنى (١) " ملك عمرو الحصن وفتح عتوة واستباح ما فيه
وأمن اهله على انهم ذمة ووضع عليهم الجزية والخراج في ارضهم . وان صاحب النوبة
اى القسطنطين قرر على كل عالم دينارين وهى سبعة وعشرون درهما الا ثلثه الا ان يكون
المسلم فقيرا . والتزم كل غنى موسر فى كل سنة بدينارين وثلاث ارباب خنطة . . . وكان
عدد القبط بمصر دون الشيخ الكبير المأجور والفقير الذى لم يبلغ الحلم . ستة الاف الف
نفس وكان المحمول من جهتهم اثنا عشر الف دينار خارجا عن جزية اليهود بمصر
واعمالها وحمل الى عربين الخطاب وهو اول مال حمل اليه من مصر .

كذلك جاء فى عهود الصلح التى عقدها عمرو بن العاص مع بعض المدن المصرية
مثل اخنا ورشيد والبرلس ان يفرض على كل قهطى جزية دينارين الى جانب
ارتاق المسلمين . (٢)

ستخلص من هذه الروايات المختلفة التى نصت على اداء المصريين الجزية
ان الجزية كانت ضريبة مستقلة عن غيرها من الضرائب التى فرضها العرب على المصريين
وان معدلها الذى اشارت اليه هذه الروايات لم يكن شاملا لجميع الضرائب . وان
هذه الضريبة ضريبة رأس كالتى كانت فى مصر البيزنطى من قبل وتسمى :
Andrismos or diagram-phon . (٣)

والى جانب ذلك كان لا يدفع الجزية الا الرجل البالغين القادرين بينما
يحفى منها الفقراء والشيوخ المعجزة والنساء والاطفال ويهد ذلك ما كتبه الخليفة
عربى الخطاب الى عمرو بن العاص " . . . ولا يدفعوا الجزية الا على من جرت

(٤) الطبرى : تاريخ الام والملوك ج ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠ - ابو المطاسن : النجوم
الزاهرة ج ١ ص ٢٤ - ٢٥ ، القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٣٢٤ .
تحصيل الاستيفاء فى مخازى المصطفى ورقة ١١٠٩ ب

(١) تاريخ ابو صالح ص ٢٨ - ٢٩

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٧ - ابو عمير : الاموال ص ١٤١
ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٥ ص ٣٦٤

(٣) دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٢٩

عليها المماسى (١) ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان .. (٢).

نستخلص من الروايات التاريخية السابقة أيضا أن مقدار الجزية الذي ألزم به المصريون كان متساويا بين الجميع وهو دينارين ، والواقع كما يقول بعض الكتاب المحدثين أنه لو كان العرب عاقلوا أهل الذمة في مصر على هذا الأساس لما سار المصريون عليهم منذ السنوات الأولى للفتح . ولكن العرب قد عادوا بذلك إلى ظلم الرومان وعسفهم وكانت حكومتهم - أي الحكومة الرومانية - تعفى ذوي النفوذ والثراء من الأعباء العالية أو على الأقل من أغلبها بينما يقع عبؤها على الطبقات الفقيرة من السكان كما أن هذا لا يتفق وسياسة العرب الحكيمة التي كانت ترمى إلى التهرب إلى أهل البلاد المفتوحة وإلى توطيد سلطانهم فيها ليس بقوة السيف ، وإنما بحسن السياسة . (٣)

والواقع أن مقدار الجزية الذي ألزم به أهل الذمة في مصر كان يتناسب وشوة الذمة وما له من دخل وأنه لم يكن واحد بالنسبة لجميع الذميين وذلك أسوة بأهل الذمة في البلاد الإسلامية الأخرى . ونرى الفقهاء يجمعون على أن الجزية كانت تتناسب وشوة الذمة وسواء كان من القبط أو اليهود وكانت الجزية على ثلاث مستويات الموسري يؤدى ثمانية وأربعين درهما ، والمتوسط الحال أربعة وعشرين درهما أما من دون هؤلاء فميدفع اثنا عشر درهما كجزية رأس . (٤)

(١) المماسى : جمع مومى والمواد هنا من بلغ الحظ من الرجال

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٥
وكان ذلك هو حكم الجزية في الإسلام في البلاد المفتوحة كلها .
انظر أيضا : آدم القرشى : كتاب الخراج ص ٧٢

(٣) سيدة كاعف : مصر في فجر الإسلام ص ٣٨

(٤) أبو يوسف : الخراج ص ١٢٦ - ١٢٤ - ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة
ق ١ ص ٢٦ - ٢٧ ابن القراء : الأحكام السلطانية ص ١٢٩ - الشمرانى : الميزان
ج ٢ ص ١٤٥ - الألبانى : المستطرف في كل فن مستطرف ج ١ ص ١١٢

وكان الخليفة عمر بن الخطاب يأخذ من صالحه من المهادين ما يصلى على نفسه لا يضح من ذلك شيئا ولا يزيد عليه ومن نزل منهم على الجزية • ولم يسم شيئا نظر عمر في امره فاذا احتاجوا تخفف عنهم وان استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم • (١)

ويبدو من بعض الاحداث التاريخية ان العرب عند فتحهم لمصر لم يحددوا الجزية تحديدا نهائيا وانما اهتموا بفرضها وتركوا تحديدها للوالي او الخليفة • كما يتضح ذلك ايضا من نص معاهدة بابلجون • فقد حدث ان جاء الى عمرو بن الماص غيب الفتح طالبا صاحب اخا وسأله عما عليهم من جزية حتى ينظموا شئونهم • فأجابه عمرو وهو يشير الى ركن كهيئة : " لو اعطيتنى من الارض الى السقف • ما اخبرتك ما عليك انما انتم خزنة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم • وان خفف عنا خففنا عنكم " • (٢) • اى ان عمرو بن الماص لم يحدد مقدار الجزية المقررة على المصريين عند الفتح ويمكن القول ان مقدار الدينارين التى اشارت اليه بعض النصوص التاريخية انما كان غيب الفتح وليس عند عقد الصلح كما ان معدل الدينارين لم يستمر طوال تاريخ مصر الاسلامية كما سنرى •

وتؤكد اوراق البردى المختلفة ان الجزية فى مصر كانت تتناسب فى الواقع مع ثروة الذى وان مقدار الجزية المفروض على اهل الذمة لم يكن متساويا بين الجميع ففى كتاب من قرة بن عريك الى صاحب كورة اشقوه نجد • بأمره فيه بان يرسل كشفا بالاماكن المختلفة يحدد الرجال فى كل مكان وما عليهم من جزية واملاك كل منهم من الارض وما بها شؤونه من الاعمال ويطلب ايضا من صاحب الكورة الا يوجد اى مجال للشكوى او للاستياء منه • ويذكره بانه مصمم على مكافأة من يصبر سيرا حسنا ومماقبة من يتكبر عن طريق العدل • (٣)

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٧

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٧

(٣) H.I. Bell: Translation of the Greek Aphrodito Papyri in the British Museum. PP. 272-273

وناء على ما جاء في هذا الكتاب فانه لو كان كل ذي يدفع جزية مساوية لما يدفعه الاخر لما استدعى الامر ان يطلب والى مصر من صاحب هذه الكورة كشفها بما يملكه كل شخص وما يقوم به من عمل وطاعية من جزية * ولما طلب من صاحب الكورة ان يكون عادلا في عمله ولما هددوا اذا هو لم يتبع طريق الحق * او اوجد اى من اجل للشكوى او الاستياء من جانب اهل كورته * وانه لو كانت الجزية متساوية بالنسبة لجميع الذميين لاكتفى الوالى بمعرفة عدد الرجال * وبذلك يتمكن من معرفة مقدار الجزية الواجبة عليهم * (١)

بدلنا على ذلك ايضا كتاب آخر لقرة بن شريك يطلب فيه من صاحب الكورة * ان يعدل في تقرير الضرائب الواجبة على كل فرد وان يسهل عليهم الاتصال به كى يسمع ما يقولون * (٢) كما حفظت لنا اوراق البردى ايضا كشفا دونت فيها اسماء اشخاص مختلفين ترجع هذه الكشف الى القرن الثالث الهجرى * وقد ذكرت فيها مقدار الجزية الواجبة على كل منهم * ونلاحظ فيها اختلاف ما يؤدى به كل شخص وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية فشخص يدفع دينارا وآخر دينارا وثلاث وثالث يؤدى ربع وثمان دينار وهكذا * (٣)

وتؤكد اوراق البردى اليونانية ان ضريبة الرأس كانت تتفق ومدى يساير دافع الضريبة وانه لتسهيل عملية التقدير كان العرب المسلمون يحسبون دافعي اقل او اكثر من رجل كامل * وان المعدل الذى تقرر لضريبة الرأس كان ديناران لمتوسط دفع الضريبة وهو الرقم الذى ذكره المؤرخون المسلمون *

(١) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام *

(٢) Bell : Op. Cit. PP. 280 - 282.

(٣) جروهمان : اوراق البردى : السفر ٣ ص ١٩٧-١٩٩

وهكذا اجبر المرب المسلمون بعض الرجال انهم اقل من رجل كامل او اكثره وذلك حتى يمكنهم ان يعدوا بين الفنى والفقر فى اداء ضريبة الرأس على اساس معدل الدينارين للرجل المومر منهم . وعليه اجبر دافع الضريبة فى السطر الثالث ثلثى رجل فادى ضريبة رأس مقدارها دينار وثلاثة . ذلك لان متوسط الضريبة دينارين للرجل الكامل . وفى السطر الحامس اجبر دافع الضريبة نصف رجل ولذلك ادى نصف المعدل اى دينار واحد . وفى السطر الاخير اجبر دافع الضريبة خمسة امداس رجل وعليه ادى دينار وثلاثى دينار . وهكذا . . .

كما تشهر اوراق البردى الى ان كثيرا من الولاة فى مصر كانوا يهلون الى توخى المدل فى جياة الجزية وعدم مطبأة شخص دون اخر او التساهل مع احدهم وعدم التساهل مع الاخرين ويدلنا على ذلك ما جاء فى احدى البرديات اليونانية المخطوطة فى المتحف البريطاني :

”خوفا من الله وخوفا للمدالة والحق فى توزيع القدر المفروض عليهم ترتب ناظرا بعاونه اربعة من البارزين فى كورتك لمساعدتهم فى جمع الضرائب فاذا فرغوا من ذلك فابحث الينا بمكلفه شاملة للتفاصيل المتعلقة بالمبلغ المطلوب من كل واحد منهم مبيتا فى هذا المكلفه اسما الاشخاص الذين جمعت منهم هذه الجزية المقررة ومكان اقامتهم ولا تجعلنا نعرف انك قد خدمت اهل كورتك باى صورة من الصور فى مسألة الضريبة التى كلفت بها . او انك طببت او ظلمت احدا مانى جمعها . لاننا نعرف ان الاشخاص المكلفين بدفعها لابد وان لا يطيعوا بعضنا وبارك . فاذا وجدت انهم قد ظلموا احدا منا بلين زائد نتيجة مطباتهم اياه او اثقلوا عليه طية الاثقال لكرهيتهم اياه فاننا ينقص منهم فى اشخاصهم واملاكهم تنفيذا للشرع . ومن انذرهم وحذرهم واخبرهم ان لا يرهقوا عاملا والا يحطوا لا يطبق حتى ولو كان بميدا منهم او ليس من زميرتهم فى جمع الضرائب ولكن يجب معاملة الجميع بالعدل واخساسة الشئ من كل منهم بقدر طاقتهم ورجية هذه الضريبة بان يبدأوا باتفاق مسدون يبينون فيه انه اذا ثبت بعد التحصيل انهم كلفوا احدا فوق قدرته وخفقوا عن احد تماما فانهم يتصلون جميعا سد النقص فيما بينهم بالتساوى وسيكونون عرضة الى جانب ذلك للمقاب الشديد جزاء عدم انصاعهم لامرنا ويجب ان يرسل الاتفاق

المذكور الينا برفقة المكلفة المشتملة على ماقرر على كل شخص . (١)

والواضح من اوراق البردى ومن الروايات التاريخية المختلفة ان الجزية في مصر كانت تدفع نقدا بالدينار وكمور الدينار وكان المصريون يعرفون تلك الضريبة حسب ماورد في قطع الاوستراكا (٢) وفي اوراق البردى المكتوبة باللغة اليونانية باسم دمنيا اما في اوراق البردى الصربية فتعرف باسم الجزية . (٣)

الخزاج :

اما ضريبة الخزاج فاننا نتساءل من قبل الحديث عن هذه الضريبة وماكان من شروطها ومقدارها وكيف كانت تجبى — هل صرفت تحت صلح أم غوة ؟؟ (٤)

- (١) تروتون : اهل الذمة في الاسلام ص ١٥٤ — ١٥٥
- (٢) قطع من الفخار والاحجار كتبت عليها بعض الشعوب القديمة ولا سيما الاغريق والفراعنة والقبط واستنبط منها علماء الآثار كثيرا من الحقائق التاريخية . انظر سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ط ٢٧ ص ٢٧ .
- (٣) نفس المصدر ص ٤١
- (٤) ولهذا التساؤل اهمية عظيمة لان حكم البلاد المفتوحة صلح يختلف عن حكم البلاد المفتوحة غوة اى بالقوة والقهر . ذلك ان الاراضى التى يتسم فتحها صلح بمقتضى المهاد والامان تكون فيض للمسلمين . والفتح هو ماصول عليه المسلمون من الجزية والخزاج . فانما كانت مصرفت تحت صلح ومقتضى بين المسلمين والمصريين عقد بدون قتال يتفق المصريون مع المسلمون على مقدار الجزية والخزاج التى تدفع للمسلمين دون التمرض لارضى المصريين او اخذها منهم قهرا او غوة . اما الاراضى التى تفتح غوة فتصير غيبة تقسم بين الفاتحين وذلك صلا بالاية الكريمة — سورة الانفال اية ٤١ . (واعلموا ان ما غنم من شيء فان لله خمس وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم امنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير) وعلى هذا فان خمس ما غنم الفاتحون يكون لمن ساءهم الله سبحانه وتعالى لا يكون لسواهم ويكون للاساقم تقسيمه فيمن حضر منهم بعد ان يجاهد وايه ويتجرى المدل . اما الاربعة اخماس الاخرى فتكون للمسلمين القاطنين وتقسم بينهم بالتساوى وعلى هذا الاساس اذا كانت مصرفت غوة فانها تصبح غيبة للمسلمين وتعتبر اراضى مصر ملكا للمسلمين . انظر يحيى بن آدم القرطبي : الخزاج ص ١٧ — ١٨ سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٤٧

نلاحظ اختلاف الروايات التاريخية بشأن الاجابة عن هذا التساؤل . واختلف
الامر على المؤرخين انفسهم مثل ابن عبد الحكم (١) والمقريزي (٢) وابو المطمن (٣)
والسيوطي (٤) فنجد كل مؤرخ من هؤلاء يذكر بعض الروايات التي يذهب اصحابها
الى مصر قد فتحت جميعها صلح الا مدينة الاسكندرية وبعض المدن والقرى المجاورة
لها بينما يشير الى روايات اخرى تتضمن ان مصر قد فتحت هوة .

أما

اما المجموعة الاولى من الروايات فقد جاء في احدها : " ان عمرا لما فتحت
الاسكندرية بقى من الاسارى بها من مبلغ الخراج . وأخسى يومئذ ست مائة ألف
سوى النساء والصبيان فاختلف الناس على عمو في قسمهم . فكان اكثر المسلمين
يريدون قسمها فقال عمو : لا اقدر على قسمها حتى اكتب الى امير المؤمنين . فكتب
اليه يعلمه بفتحها وشأنها وان المسلمين طلبوا قسمها فكتب اليه عمو : لا تقسمها
وذره يكون خراجهم فيل للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم . فأقرها عمرو وأخسى
اهلها وفرض عليهم الخراج . ففتحت مصر كلها صلح بفرضه دينارين على كل رجل
لا يزداد على احد منهم في جزية رأسه اكثر من دينارين الا انه يلزم بقدر ما يتوسع فيه
من الارض والزرع الا اهل الاسكندرية فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى
من ولهم لان الاسكندرية فتحت هوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح
ولا ذمة . " (٥)

ونحن نرى ان فتح الاسكندرية هوة كان في المرة الثانية عندما حاول الرومان
استردادها من ايدي المسلمين في سنة ٦٥ هـ بينما كان قد تم فتحها صلح نفس
بأدي الامركا جاء في كتاب حنا النقيوس . (٦) وعقد عمو بين الناس صلح
مكان المدينة الصلح .

(١) فتح مصر واخبارها ص ٢٤-٨٢

(٢) الخطط ج ٢ ص ٧٢-٧٤

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٩-٢٠

(٤) حسن المطهرة ج ١ ص ١٢٥-١٢٩

(٥) ابن عبد الحكم : فتح مصر واخبارها ص ٢٦

Chronique de Jean. P. 455.

(٦)

كما تشير بعض الروايات من هذه المجموعة ه الى عقود صلح مع كثير من المدن المصرية — وهى المدن التى صالح عمرو اطلبها على صلح شبيه بصلح بابليون ومن هذه المدن اخنا ورشيد والبرلس (١) والقيوم واخميم والبشرودات وقسرى الصعيد وسائر مدن الوجه البحرى فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصار ارضها ارض خراج (٢) وكان لهم فى عهدهم ستة شروط * ان يؤخذ من ارضهم شمس^{أية} ولا يزداد عليهم ولا يكلفون غير طاعتهم ولا يؤخذ د^{أية} ارضهم وان يقاتل عنهم عدوهم من ورائهم (٣)

اما المجموعة الثانية من الروايات التى يرى فيها روايتها ان صرفت غوة فتستند^{في} ذلك الى عدم وجود اى عقد او عهد بين المسلمين الفاتحين وبين المصريين سكان البلاد وقد جاء فى بعض هذه الروايات ان عمرو بن العاص كان يقول : " لقد تعدت مقعدى هذا وما لاحد من قبلى مصر على عهد ولا عقد ان شئت قتلت وان شئت بعت وان شئت خست " (٤)

ومهما اختلفت هذه الروايات التى ضمنها المؤرخون كتبهم فقد اجمعت هؤلاء المؤرخين على ان مصر قد عملت معاملة البلاد المفتوحة صلح ففرض العرب الفاتحون الجزية على الرئس والخراج على الارض وقد حدد صلح بابليون مصر مصر الساسى — كما ذكرنا من قبل — وهكذا كما تذهب بعض المصادر — الحديثة — بالرغم من ان مصر قد فتحت غوة فان العرب فى نفس الوقت قبلوا عقد الصلح مع المصريين لانهم اعتبروا انفسهم مطربين للرومان لا المصريين * كما انه عندما فتح العرب الاسكندرية فى سنة ٦٤٥ هـ غوة كان انتصارا على الرومان وعلى امبراطورهم قسطنطين الثانى ولم يؤثر ذلك فى عهد الصلح الذى اعطاه العرب للمصريين (٥)

- (١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٧٧
- (٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٨
- (٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٨ — وناه على ذلك رفض ورد ان عامل الخراج فى مصر فى عهد الخليفة لاموى معاوية بن ابي سفيان — ان يزيد على كل رجل من القبا قيراطا كما امره الخليفة وقال : كيف تزيد عليهم وفسى عهدهم ان لا يزداد عليهم شىء
- (٤) ابو عبيد : الاموال ص ١٤٠ — ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٨
- (٥) حيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٤٤

ويؤيدنا في ذلك ما ذكره البلاذري (١) في رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص فقال : " اُعْتَبِه عَلَى النَّاسِ امْرُؤٌ مِصْرِيٌّ ، فَقَالَ قَوْمٌ : فَتَحَتْ غُزَّةٌ . وَقَالَ آخَرُونَ : فَتَحَتْ صَلَاطٌ . وَالتَّلَاحُ (٢) وَفِي امْرَأَةٍ أَنَّ ابْنَ قَدَمَهَا قَاتَلَهُ أَهْلُ الْيَمِينَةِ (٣) فَفَتَحَهَا قَهْرًا وَادْخَلَهَا الْمُسْلِمِينَ . وَكَانَ الزَّيْبِرَاوِلُ مِنْ عِلَاقَتِهَا . فَقَالَ صَاحِبُهَا لِمَمْرُؤٍ : إِنَّهُ قَدْ بَلَغْنَا فَمَلِكُكُمْ بِالْشَّامِ وَوَضَعَكُمْ الْجُزْيَةَ عَلَى النَّصَارَى وَالْيَهُودِ وَاتَّوَارَكُمُ الْأَرْضَ فِي أَيْدِي أَهْلِهَا يَحْمَرُونَهَا وَيُؤَدُّونَ خَرَاجَهَا . فَإِنْ فَعَلْتُمْ بِهَا مِثْلَ ذَلِكَ كَانَ أَرْدُ عَلَيْكُمْ مِنْ قَتْلِنَا وَسَبِينَا وَاجْلَانَا . قَالَ : فَاسْتَشَارَ ابْنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ إِلَّا نَفَرٌ مِنْهُمْ . سَأَلُوا أَنْ يَقْسَمَ الْأَرْضَ مِنْهُمْ . فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ طَائِفَةٍ دِينَارَ جُزْيَةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فَقِيرًا . وَالزَّمَّ كُلُّ ذِي أَرْحَاحٍ الدِّيْنَارَيْنِ ثَلَاثَةَ أَوْدَابٍ خُطَّةً وَقِسْطِي زَيْتٍ وَقِسْطِي عَسَلٍ وَقِسْطِي خَلٍّ رَقًّا لِلْمُسْلِمِينَ تَجَمُّعٌ فِي دَارِ الرِّزْقِ وَيُقَسَّمُ فِيهِمْ . وَأَحْصَى الْمُسْلِمُونَ فَأَلْزَمَ جَمِيعَ أَهْلِ مِصْرَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ . جِذَّةً صَوْفَ مِزْنَانِ (٤) أَوْ عَامِصَةً وَسِرَاوِيلَ (٥) وَخَفَيْنَ فِي كُلِّ طَائِفَةٍ أَوْدَابَ الْجِذَّةِ الصَّوْفِ ثَمَانًا قُبْطِيًّا . (٦) وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ كِتَابًا وَشَرَطَ لَهُمْ إِذَا وَقَعُوا بِذَلِكَ أَنْ لَا تَبَاعَ نِسَاؤُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَلَا يَسْبَوْا ، وَأَنْ تَقْرَأَ أَمْوَالُهُمْ وَتُكْتَوَّزَ فِي أَيْدِيهِمْ فَكُتِبَ بِذَلِكَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ فَاجَازَهُ وَصَارَتْ الْأَرْضُ أَرْضَ خَرَاجٍ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا وَقَعَ هَذَا الشَّرْطُ وَالْكِتَابُ ظَنُّ بِمَعْضَى النَّاسِ أَنَّهَا فَتَحَتْ صَلَاطٌ . قَالَ : وَلَمَّا فَرَّغَ مَلِكُ الْيَمِينَةِ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ وَمِنْ مَعَهُ فِي مَدِينَتِهِ صَالِحٌ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ مِصْرَ عَلَى مِثْلِ صَلَاحِ الْيَمِينَةِ نَزَعُوا بِهِ . وَقَالُوا : هَؤُلَاءِ الْمُسْتَعْمُونَ (٧) قَدْ

(١) فتوح البلدان ص ٢١٦-٢١٧

(٢) التَّلَاحُ ما تَطْمَنُّ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَتَتَرَتَّبُ لَهُ وَتَشْرِبُهُ — سَيِّدَةُ كَاشِفٍ : مِصْرِيٌّ فَجَرِي
الْإِسْلَام — حَاشِيَةُ ص ٤٤

(٣) الْمَقْصُودُ بِهَا بِالْبُيُوتِ

(٤) الْبِرْنَسُ : هُوَ كُلُّ ثَوْبٍ غَلَاةٍ الرَّأْسِ جِزءٌ مِنْهُ كَمَا يَمْنَى الْقَلَنْسُوءَةُ الطَّوِيلَةُ
أَوْ رِدَاءٌ ذُو كَمِينَ يَلْبَسُ بَعْدَ الْحَمَامِ وَالْمَقْصُودُ هُنَا الْقَلَنْسُوءَةُ الَّتِي كَانَ يَرْتَدِّي بِهَا
الْمُسْلِمُونَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ . انْظُرِ الْوَسِيطَ ج ١ ص ٥٢

(٥) السَّرَاوِيلُ : لِبَاسٌ يَغْطِي الْجِزءَ الْأَسْفَلَ مِنَ الْجِسْمِ . الْوَسِيطُ ج ١ ص ١٣٠

(٦) كَانَتْ الثِّيَابُ الْقُبْطِيَّةُ ذَاتَةً الصَّيْتِ مَشْهُورَةً بِدَقَّةِ صَنَاعَتِهَا وَارْتِفَاعِ ثَمَنِهَا .

(٧) امْتَنَعَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْنِي كَفَّ عَنْهُ وَامْتَنَعَ بِالْأَمْرِ أَيْ تَقَوَّى وَاحْتَصَى بِهِ . وَالْمُنْعَى أَيْ
الْقُوَى الشَّدِيدَةُ . انْظُرِ الْوَسِيطَ ج ٢ ص ٨٩٥ وَالْمُسْتَعْمُونَ هُنَا بِمَعْنَى الْأَقْوِيَاءِ .

قد رضى وقسموا بهذا ، فمنهم من أخرج لانتا فرش (١) لامتعة لنا . ووضع الخراج على أرض مصر فجعل كل جريب (٢) ديتارا وثلاث أودب طعاما ، وعلى رأس كل حالم ديتارين . وكتب بذلك الى عمرو بن الخطاب رضى الله عنه .

وهكذا ترك العرب الأراضى فى ايدى اصطبها المصريين دون التمسس لهما وتقسيمها بين الفاتحين . ويؤكد ذلك ايضا ما جاء فى نص المهدى او الامان الذى منحه عمرو بن العاص للمصريين عقب الفتح مباشرة . هذا ما أعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم وممتلكاتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وحرهم ، لا يدخل عليهم شئ من ذلك ولا يتقص . وفى رواية اخرى ، ان من الشروط التى اشترطها عمرو بن العاص للمصريين اذا ان تكون لهم ارضهم وأموالهم لا يتمسس لهم فى شئ منها . (٤)

ويتضح لنا من رواية البلاذرى ان ضريبة الخراج فى مصر كانت قسمين : قسم يؤخذ نقدا بالدينارين . والقسم الثانى يؤخذ عينا من الحنطة والنبات والمسل والخل وغير ذلك من ألوان الطعام ، يؤكد ذلك لنا ما تضمنته كثير من أوراق البردى مما يشير الى ان ضريبة الخراج كان المصريون يدفعونها نقدا وعينا .

(١) الفرش : معنى فرش البيت او القضاء الواسع من الارض او صفار الانعام . قال تعالى : ومن الانعام حيلة وفرشا . الوسيط ج ٢ ص ٦٨٩ . والقصود هنا المعنى الثانى .

(٢) الجريب : وحدة تقاس بها الارض . وهو عبارة عن عشرة قصبات فى عشرة قصبات . الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤٧ . ويقول الاب انستاس الكوملى فى كتابه النقود العربية وطم النميات ان اهل البصرة يسمون الجريب الى يومنا هذا . وهو عند هم نحو مائة نخلة ومن غير النخيل ارض سمعتها هكتار والهكتار يساوى عشرة آلاف متر مربع .

سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام طاشية ص ٤٩

(٣) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٩٩ او ما يليها . ابوالبطرس : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤٢ وما يليها . القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٣٢٤

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٦٤

فهناك بردية تتضمن كتابا من قرة بن شريك فى سنة ٩١ هـ الى اهل شبراء
بسيرو من كورة اشقوه يطلب فيه منهم دفع متأخرات الجزية عليهم بالذنايرود فسمع
ضريبة الطعام قسط • وقد جاء فى هذا الكتاب : " بسم الله الرحمن الرحيم • هذا
كتاب من قرة بن شريك لاهل شبراء بسيرو من كورة اشقوه انه اصابكم من جزية سنة ٨٨ هـ
مائة دينار واربعة دینار وثلاث دینار وثمان دینار • ومن جزية الطعام احد عشر ارب وثلث
اردين قمح • وكتب راعدة فى صفر من سنة ٩١ هـ • " (١) وفى بردية اخرى نجده
كتاب قرة بن شريك الى اهل باكونيس من كورة افوديتى (اشقوه) يعلمهم ما اصابهم
من الجزية سنة ٨٨ هـ من ضريبة الراى وما اصابهم ايضا من ضريبة الطعام
الى الخراج فى هذه السنة • (٢)

وهكذا نجد ان ضريبة الطعام فى هذه البرديات وغيرها لا بد وانها تمنى
ضريبة الارض او بمعنى اخر الخراج • او جزاء منه وهو ما يدفع حينا ويسمى ثرتون (٣)
هذا الجزء من ضريبة الخراج بضريبة الفلة • اما فى اوراق البردى اليونانية فتسمى
امبولا - Embola (٤) بينما فى اوراق البردى المصرية تسمى كما رأينا •
ضريبة الطعام • وبذلك ذلك بردية اخرى تتضمن كتابا خاصا بضريبة الطعام مرسلا
الى والى قرة بن شريك من عاملين هما : بقطر بن شيود وسيوس وابا قهرس بسن
اندرياس • (٥)

ونجد فى اوراق البردى ايضا ما يؤكد ان جزاء من ضريبة الخراج كسان
يدفع نقدا • فهناك بردية تتضمن كتاب من قرة بن شريك لصاحب كورة اشقوة •

-
- (١) جوهان : اوراق البردى - السفر ٣ ص ٤٧ - ٤٩
(٢) دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٥
(٣) اهل الذمة فى الاسلام ص ٢١٣
(٤) Bell: Translation of the Greek Aphrodite Papyri, P.271.
(٥) جوهان : اوراق البردى : السفر ٣ ص ٦٠

يطلب فيه منه ان يرسل اليه القمح الغفوس على اهل كورته ويخبره انه اذا وجد
الاهالى صموة في دفع الجزية غلة فلا يأمن من دفعها نقدا . ويحدد له ما يعادل
عددا معيناً من الارادب نقدا ولكنه يطلب منه ان يعمل على ارسال القمح لا النقود .
وكذلك حفظت لنا اوراق البردي ايضا عن خراج سنة ٢٧٨ هـ وسنة ٢٨٢ هـ سنة
٢٩٢ هـ سنة ٢٩٢ هـ سنة ٣١٣ هـ . لبعض الاعطاش وتبين منها ان الخراج
دفع نقدا . (٢)

ويجدر بنا الاشارة الى ان اهم ما كان يجلب في ضريبة الدعام هو القمح
الى جانب انواع اخرى من الطعام . وكانت الفلال ترسل منذ السنوات الاولى
للحكم العربي في مصر الى العاصمة الاسلامية . المدينة ، ثم انقطع ارسالها
في فتنة عثمان بن عفان ثم اعيد حملها الى المدينة في عهدي معاوية وابنه يزيد ، ثم
انقطع في خلافة عبد الملك بن مروان . واستمر بعد ذلك حمل الفلال الى المدينة
حتى عهد الخليفة المبركي جعفر المنصور . (٣) ولعل هذا الامر هو الذي
جعل الابل لمانس (٤) Iamans يقول : ان مصر لم تكن ليعسا سوى اهمية
اقتصادية ان كانت تنتج الخبث وتدفع الضرائب

(١) Bell: Translation of the Greek Aphrodito Papyri, P. 22
(٢) جوهان : اوراق البردي - السفر ٣ ص ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥
١٥٦ ١٥٩ ١٦٠

(٣) البلاذري : فتح البلدان ص ٢١٢ ٢١٨
ويذكر ان اهل مصر صولوا بعد صلحهم الاول على ان يقدوا مكان الخطة
والزيت والصل والخل ديتارين . فالزم كل رجل ذي باداة اربعة دنانير
بينما يقول اليعقوبي ان عمرا جين بصر ١٤ مليون ديتار من خراج رؤسهم
اي الجزية لكل وأي ديتار وخراج غلاتهم من كل مائة اردب اردبين .
انظر : سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٤٠٠ . وتقول ان الفلال
كانت ترسل بطريق البحر حتى خلافة المنصور الذي امر بضم خليج امير
المؤمنين الذي كان يصل مصر ببلاد العرب بحرا . وكانت الفلال ترسل الى
المدينة في بادئ الامر باعبارها مقر الخلافة الاسلامية . ولم يطل ارسالها
اليها بالرغم من انه قد حل محلها عواصم اسلامية اخرى . وبالرغم من التغيرات
السياسية التي حدثت بمصر وفي الخلافة نفسها . انظر ص ٥٢

Un Gouverneur Omayyade d'Egypte, P. 102.

(٤)

ويتضح لنا من الروايات التاريخية المختلفة ان ضريبة الخراج كانت تجبى من المصريين على اساس مساحة الارض التى يمتلكها الشخص . كما انه كان يراعى فى ذلك حالة فيضان النيل فى كل سنة لا رتباطه بالزراعة . وقد امكننا ذلك من نصوص العهد الذى اعلاه عمرو بن العاص للمصريين . (١) ويتضح لنا ذلك ايضا من روايات سائرون عن مدى اهتمام المصريين بل والولاة ايضا بفيضان النيل حتى يتمكنوا من جباية الخراج وما كان يحدث . كما رأينا من اشتراك الجميع فى الدعاء والصلاة من اجل زيادته .

ويقول ابن مائى (٢) " وفى كتب المصريين ، اذا أوفى النيل ستة عشر ذراعا فقد وجب الخراج واذا زاد عن ذلك ذراعا زاد الخراج مائة الف دينار . فان نقص ذراعا نقص الخراج مائة الف دينار . ولا يبعد ان يكون ذلك فيما تقدم من السنين عند بلوغ العمارة الى حد اجبر به هذا القدر . فأما الان فقد تغيرت الاحوال واختلفت احكام الاعمال " كذلك كان يراعى فى تقدير الخراج كمية المحصول التى تنتجها الارض بواسطة الاراضى اذا كانت طمرة أو غامرة .

وقد كتب الماوردى (٣) فى هذا المعنى فقال : ان الارض تختلف من ثلاثة اوجه يؤثر كل واحد منها فى زيادة الخراج ونقصانه " احدها ما يخص بالارض من جودة يتركبها زرعها ، او رداءة يقل بها زرعها . والثانى ما يخص بالزراعة من اختلاف انواعه من الحبوب والثمار فمنها ما يكثر ثمنه ومنها ما يقل ثمنه فيكون الخراج بحسبه . والثالث ما يخص بالسقى والشرب لان ما القى المونة فى سقيه بالنواضح (٤) والدوالى (٥) ، لا يحتمل من الخراج ما يحتمله سقى الصبح (٦) والامطار .

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٩٩ - ٢٠٠ - ابو المظن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤ - ٢٥ . وقد ذكرنا نص هذا العهد .

(٢) قوانين الدواوين ص ٧٦

(٣) الاحكام السلطانية ص ١٤٣ - ١٤٤

(٤) الناضح اى الدابة التى تعمل الماء من البقرا والنهر لسقى الزرع والجمع نواضح . الوسيط ج ٢ ص ٩٣٦

(٥) الفرد دالية وهى الماقية او الناعورة او الدلو وثبت برأسه خشبه على شكل صليب ثم يشد بها طرف جبل وطرفه الاخر بجذع قائم على رأس البئر ويستقى بها . الوسيط ج ١ ص ٢٩٥ .

(٦) الماء الجارى الظاهر على سطح الارض . الوسيط ج ١ ص ٤٦٩

ومن الناس من أجبر شرطاً رايماً وهو قومه من البلدان والاسواق ز معد هـ
لزيادة اثمانها وقصانها ه وهذا انما يعتبر فيما يكون خواجه ورقاً (١) ولا يعتبر فيما
يكون خواجه جاً (٢) ه وتلك الشروط تعتبر في الحب والورق ه

وهناك نوعان من الخراج ه خراج الجزية ه وهو الخراج الذي يفرض على الارض
التي صلح اهلها على ان تكون لهم ه اما النوع الثاني فيسمى خراج اجرة ويفرض ^{للمولح}
على الارض التي صلح اهلها عليها على ان تصبر وقتاً ولا يعقل عنها باسالمهم او بانتقالها
الى غيرهم من المسلمين (٣) وكان الخراج في مصر من نوع خراج الجزية لان الاواشي
المصرية تركت في ايدي اصحابها يزرعونها ويؤدون الخراج عنها ه

ضرائب اخرى :

كان على المصريين الى جانب الجزية والخراج ه ضرائب اخرى متعددة الانواع ه
وان كنا لانجد اشارة لكثير منها في كتب الفقه والتشريع الاسلامي ه ويقول ترتون (٤) ^{المعتمد}
على ما وصل اليه من اوراق البردي اليونانية والقبطية والمصرية انه كان هناك ضرائب متعددة
فكانت ضريبة الارض تدفع نقداً او عيناً ه اما الضريبة الثلاثية - Tetartia فكانت
تدفع نقداً ه واما المعاتيد (٥) فالظاهر ان المادة جرت على دفعها نقداً ه وهناك
معاتيد معينة من اللبن والملح والجزية ه ولم يكن يدفع المسلمون شيئاً من هذه
الضرائب بمعنى ان عب الضرائب كله كان يقع على عاتق اهل الذمة في مصر ه ويقبول
في موضع اخر ان الضريبة الثلاثية كانت تبلغ على وجه التقريب جزء من مائة من الخسراج ه
وانه من الجدير بالملاحظة ان هناك قائمة واردة في مجموعة رينيه ه تحتوي على ثلاث
ضرائب نقدية كما يشير احد المؤرخين السريان الى الضرائب والجزية والخراج ه

(١) الفضة مضوية كانت او غير مضوية وجمعها اوراق ووراق ه الوسيط ج ٢ ص ١٠٣٨
وهنا بمعنى النقود ه

(٢) اي الفلال ه

(٣) الطوردي : الاحكام السلطانية ص ١٤٢

(٤) اهل الذمة في الاسلام ص ٢١١ - ٢١٢ ه ٢١٢

(٥) المعاتيد ترجمة لكلمة Requisitions والمعاتيد اصطلاح عراقى للمطلبات
المالية التي تقتضيها المصلحة العامة من الافراد لاسيما بين اعمشائر المصدر
السابق طبعة ص ٢١١

بينما نرى دانييل دينيت (١) يقسم الضرائب التي كان يؤديها اهل الذمة في مصر بناء على ما جاء في الاوراق البردية - الى سبع فئات هي :

١- الضريبة النقدية Demosia

٢- ضريبة ال Tetartia وقدرها واحد في المائة من الضريبة النقدية ويرجع انها كانت لتغطية نفقات جميع الضرائب.

٣- ما يسمى Aparurismos dianamon aneu-timesos وهو مقدار من المال مخصص لامدادات خصة * يطلبها العرب وتشتري حسب سعر السوق وقد ذكر تحت هذا البند الاغنام والدواجن الزبيب والتبغ واللاتاد الخشبية وجدوع النخل وغير ذلك *

٤- Apargurismos dianamon tetimései

وهو حساب شراء ادوات واعدادات تطلبها الحكومة حسب تسريفة محددة او جداول اسعار وقد ذكر من بينها الحصر والجمال والخيش للزمن لعمل الاجولة.

٥- ضريبة لبن لصنع الزبد وتسمى Apargurismos galaktus

٦- ضريبة على عمل النحل Apargurismos melitos

وهذه الضريبة لا يؤديها سوى افراد يقي نفسها ويوكانيس *

٧- Logismia وتتضمن مقدارا من المال يستقطع خصيما من جميع الحصص

الضريبة ما عدا الضريبة الثلاثية وضريبة العمل وكانت هذه الضريبة محددة بمعاية ويأخذ منها البالغ للزمن لجميع الافراض الاحتياضية لتغطية نفقات العمال وبناء السفن وشراء المسامير والجمال والقوارب وغير ذلك *

وتحفظ بعض اوراق البردى اليونانية كشونا بالضرائب المفروضة على بعض الاديرة * نذكر منها القائمة التالية : (٢)

(١) الجزية والاسلام ص ١٥٣ - ١٥٤

(٢) تترتون : اهل الذمة في الاسلام ص ٢١٧ و ٢١٨

وجه الصرف	ابا ارمانوس	بريوسية	مريم القدسة
لامير المؤمنين	—	—	—
بضائع للسفن	$\frac{2}{3}$	—	$\frac{2}{3}$
قماش لخيمة من الشعر	$\frac{5}{12}$	$\frac{1}{12}$	$\frac{5}{12}$
غرامسة	$28\frac{1}{3}$	—	$33\frac{1}{4}$
لبطارة الاسطول ومصاريف	$\frac{1}{7}$	$\frac{1}{7}$	$\frac{1}{7}$
وقسطن خل لامها جرين	—	$\frac{1}{7}$	$\frac{2}{4}$
قسطن من خل لمها جرى الاسطول	—	$\frac{1}{7}$	$\frac{2}{4}$
عربة بضائع عند القلزم	$\frac{1}{3}$	$\frac{1}{6}$	$\frac{1}{6}$
اكوام للموصف	—	—	$\frac{1}{6}$
مصاريف للوالى	$\frac{5}{6}$	—	$\frac{5}{6}$
المنايا بالاكوام	—	—	$\frac{1}{4}$
بضائع الى القلزم	$\frac{1}{6}$	$\frac{1}{4}$	—
بطارة للاسطول الاناضولى	$\frac{1}{4}$	—	—
ومصاريف اخرى	$\frac{1}{4}$	—	—
اريمون عملا لجامع دمشق	$\frac{1}{4}$	—	—
للمنايا بالاكوام والسلا	—	20	50
المجموع	$31\frac{2}{3}$	$22\frac{1}{4}$	$36\frac{11}{12}$

ويمقب تترتون (١) على هذه القائمة التي جاءت في احدى البرديات مستشهدا ببردية اخرى جاء فيها ان الوالى كان يحتاج الى مواد مختلفة " لاطلنا وللمعمال الذين معنا من العرب والنصارى على السواء ولغيرهم " كما ان الاساطيل كانت فى حاجة الى كثير من البطارة الذين يلتزم لهم دافعوا الضرائب باجورهم وكذلك الحال اراء العمال الذين كان لابد من انقاذهم للدخل فى بيت القدس ودمشق وبغداد الى ذلك فرار كثير من الفلاحين المصريين من قراهم وتخليهم عن اراضيهم . وقد لا نكون بعيدين عن الصواب اذا قلنا ان فداخلة الضرائب كانت احدى الدوافع لهم على ذلك وان هذا الموقف من جانب الحكومة العربية ادى الى حمل كثير من الفلاحين المصريين احيانا على ترك اراضيهم . ومن الجلى ان هناك تناقض واضح بين ما يراه الفقهاء والمشرعون وبين الوقائع الواردة فى اوراق البردى اذ تهرهن البرديات على وجود ضرائب لم تتضمنها احكام الاسلام نحو اهل الذمة .

ويقول دانييل ديفيت (٢) : انه من المؤكد انه كان " هناك حصة من المال لم تكن تسدد للعرب وانه كان فى استطاعتهم ان يرسلوا اوامر خاصة فى طلب اشياء معينة او خدمات تؤدي قيمتها من هذه الحصة حتى تستنفد . وبهذا نمعرف تماما ان جميع المطالبات الخاصة والاوامر التي تظهر دائما فى حسابات الوالى الى الباجمارك لاتمثل اعباء اضافية وانما هى امدادات قد دخل حسابها ضمن ميزانية قائمة بذاتها . نشأت من استقذاع مقدار معين من كل الضرائب المادية

ونستخلص من الروايات التاريخية التي تضمنتها المصادر العربية ان عمرو بن العاص قد فتحه البلاد المصرية ألزم المصريين ببعض الالتزامات المادية او بمعنى آخر بـضرائب عينية يأتى فى مقدمتها ارزاق المسلمين التي تجمع وتوزع على الجند المسلمين وتتكون من الحنطة والزيت والمسل والخل . وتحفظ لنا المصادر العربية نصين بشأن هذه الارزاق .

(١) اهل الذمة فى الاسلام ص ٣١٩ - ٢٢٠

(٢) الجزية والاسلام ص ١٥٤

فيشير ابن عبد الحكم (١) الى ان عمر بن الخطاب كان قد كتب الى امراء الاجناد لتحديد الجزية على الذين بلغوا من سكان البلاد المفتوحة الى جانب اوراق المسلمين ومن بين هذه البلاد مصر . وقد جعل على المصريين لكل مسلم اردبا فسى كل شهر ومقدارا معيناً من الودك والعسل وايضا يحمض الثياب

(٢) بينما يقول الهاذري والمسلم كل ذى ارض مع الدينارين ثلاث اوداب خطلة وقسطى زيت وقسطى عمل وقسطى خل رزقا للمسلمين تجمع فى دار الرزق، وتقسم فيهم والزم جميع اهل مصر ان يقدم لكل رجل منهم — اى من المسلمين — جبة صوف وبرنسا او عانة وسراويل وخفين فى كل عام او بدل الجبة الصوف ثوبا قبطيا .

والى جانب اوراق المسلمين وكسوتهم ، اشترط على المصريين ضيافة من نزل عند هم من المسلمين ثلاث ليال . تقول الرواية العربية " وعلى ان للمسلمين النزل لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين او اكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة ايام مفروض عليهم " (٣)

كانت الاسباب التى دفعت العرب الى اشتراط واجب الضيافة على المصريين — هو ان العرب فى بداية الامرات افادتهم قاصرة على الماصمة ولثغفور المصرية لحمايتها والدفاع عنها وواجب الضيافة اخذ العرب عن الرومان والبيزنطيين فى مصر . (٤)

وعكده اوراق البودى ما تشير اليه المصادر العربية من التزامات مادية — فخر الجزية والخراج — التزم المصريون بها عند الفتح العربى لمصر . فهناك بريدة يرجع تاريخها الى سنة ٢٢ هـ (٦٤٢ م) جاء فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم ، اننا الامير عبد الله اكب اليكما خوستوفورس وشيود وراكيس باوجا ركي هيراكليوبولس — اهناسيا قد حصلت منكما فى هيراكليوبولس لصالح من مسمى من العرب خسا وستين من الثمن ولا اكثر من ذلك وللعلم قد حررنا لكم هذا البيان . . . (٥)

(١) فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٥

(٢) فتوح البلدان ص ٢١٦

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٤

(٤) سيدة كاهف : مصر فى فجر الاسلام ص ٥٧

(٥) دانييل ديتيت : الجزية والاسلام ص ١٢٦

(١) كما ان ضيافة المسلمين ثلاثة ايام ، عريده البودية (رقم 555 PERF)
وتقديم مد من القمح لكل مسلم تشير اليه البودية رقم 555 و 556 من نفس
المجموعة اما البودية رقم 557 فتتضمن تقديم الزيت للمسلمين . وهكذا تؤكد اوراق
البودى الصادر الاسلامية في وصفها للضرائب الاعاقية . وتدل في الوقت نفسه على ان
الباजार كان في مصر الاسلامية الموظف الرئيسي في الادارة المحلية . (٢)

وجاء في بعض اوراق البودى اليونانية ما يشير الى وجود ضرائب غير عادية كمان
على اهل الذمة اذ جاء في مصر الاسلامية . فترى مثلاً قوة بن شريك يطلب من صاحب
كورة اشقوة جمع تلك الضرائب القهر عادية والعادية مع مراعاة العدل بين الدافعين
لها . (٣)

وهكذا ادخلت ضرائب جديدة في مصر الاسلامية في بعض المصور . ويبدو ان
الولاة المسلمين كانوا يلجأون الى فرض الضرائب الجديدة عندما تزداد مصروفات الدولة
عن ايراداتها او رغبة منهم في جمع اكبر مقدار ممكن من الاموال من مصر . ففي ولايته
موسى بن مصعب النخعي (١٦٢-١٦٨ هـ) فرضت ضرائب على الخوانيت وعلسى
الاسواق والدواب . (٤) ولما ولي احمد بن محمد بن مديح خواج مصر . ابتدع
ضرائب جديدة . تقول الرواية القبطية انه فرض ضرائب على الحشيش والنخيل
والشجر المثمرة . المفروسة في بيوت الرهبان في جميع انحاء البلاد
المصرية . (٥)

(١) هذه الحروف اختصار لمجموعة J. Karabacek; "Papyrus Erzherzog
Fuhrer Dutsch die Ausstellung".

(٢) دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٢٦

(٣) Bell: Translation of the Greek Aphrodito Papyri. PP. 272-281-283.

(٤) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٢٥ - وكان ذلك تقليدا لابن جعفر النصور الذي
وضع الضرائب على خوانيت بغداد - انظر : المقرئى : الخطط ج ١ ص ١٦٧

(٥) ابن المقفع : سيرة الابرار البطارقة م ٢ ج ١ ص ٢٤

بينما تذهب الرواية العربية الى انه اول من أدخل في مصر ضرائب سوى مال الخراج فكان من " دهانة الناس وشياطين الكتاب " . وابتدع في مصر بدعا استمرت مساعدة من بعده . فحجر على النطرون . محمد ان كان يماط لجميع الناس . وفرض ضرائب على الكلا^١ التي تربطها العاشية وسماها المراعى . كما فرض ضرائب على الاسماك وسماها المصايد . وغير ذلك من الضرائب التي عرفت انذاك باسم المرافق والمعاون . فانقسم مال مصر حينذاك الى خراجي وهلالى . والهلالى هو ما عرف باسم المرافق والمعاون وقد ألفها احمد بن طولون عندما ولى امانة مصر . وقد بلغت هذه الضرائب في مصر مائة الف دينار في كل سنة . وقد اعيدت الاحوال الهلالية في عهد الفاطميين وصارت تعرف باسم المكوس فلما استبد صلاح الدين بأمور البلاد ، أمر بإسقاط مكوس مصر والقاهرة . (١)

الضرائب على التجارة :

والى جانب ما تقدم نجد انه كانت هناك ضرائب على التجارة وتسمى المكوس (٢) منذ مطلع الفتح العربى لمصر . واول من ولى امر هذه الضرائب في عهد عمرو بن العاص وسيمعة بن شرحبيل بن حسنة . وكان ممن ساهم في فتح مصر من الصطبة (٣) ، ويبدو ان هذه الضرائب كانت تؤخذ عن التجارة الداخلية في البلاد المصرية وكان مقرر صاحب المكس الذى يباشر منه مهام منصبه هو ام دينين التى عرفت باسم المكس والمقس نسبة الى صاحب المكس الذى يقيم فيها . (٤)

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٧

تترتون : اهل الذمة في الاسلام ص ٢٤٤ و Zaki Hassan: Les Tulunides
والطال الخراجى هو ما يؤخذ مسانحة من الاراضى التى تزرع حبوا ونخلا وحب

وفاكهة وما يؤخذ من الفلاحين هدية . والمال الهلالى عدة ابواب استحدثها

ولاية السوء شيئا بعد شئ . انظر : المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٦

(٢) المكوس نوع من الضرائب فرض على التجارى الجاهلية وكلمة مكس مشتقة من اللفظ

السراني ماكوس . انظر جوهان : اوراق البردى السفر ٣ ص ٩ والمكس هو

الحشار ويقول له صاحب المكس . والمكس ايضا انتقاض الثمن في البيعة . انظر

الخطط ج ٢ ص ١٩٧ . سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام - طبعة ٥٥

ويقول جيوهمان (١) ليس من الشريب ان نجد نظام المكس منذ بداية الادارة المصرية في مصر اذا لاحظنا ان ثمة نظام مماثل تماما كان قائما في الصهدين اليوناني والروماني وانه ما لاشك فيه كان يوجد مركز تجارى للفلال في القساط عرف باسم ميدان القمح او ميدان الخلة . وكان يحده غربا المكان الذى يلى باب القنطرة حتى المقس ويصل الى خليج القاهرة من ناحية الشرق .

ونجد في أوراق البردى المصرية ما يؤكد وجود المكس على التجارة الداخلية في البلاد فهناك وثيقة خاصة بارسال القمح الى القساط واطلاق المكس لتجارة القمح . ويرجع تاريخ هذه الوثيقة الى ربيع الاول سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) وقد جاء فيها " .. الى القساط فاني وضعت عنهم مكسه فليسموه بالقساط . وعجل ذلك فاني قد خفست فلا الطعام بالقساط واني اذا وضعت للتجار مكسهم اصابوا ربط حسنا . وانما الحصاد ان شاء الله في اربعين ليلة او قريب من ذلك فعجل ما كنت تساعد به من لذلك واكتب الى كيف فعلت في ذلك ، وما بأرضك من التجار الذين يبيعون الطعام والسلام على من اتبع الهدى .. " (٢) .

وقد ولى مكس مصر في عهد الخلفاء الامويين الوليد بن عبد الملك وسلطان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وزيق بن حيان . وكان عرب بن عبد العزيز قد كتب اليه ان : " انظر من مريك من المسلمين فخذ ما ظهر من اموالهم ، ما يدرون للتجارات ، من كل اربعين دينار دينا ، فما نقص في حساب ذلك حتى يبلغ عشرين دينار ، فان نقص عن عشرين دينار بثلاث دینار فدعها ولا تأخذ منها شيئا . ومن مريك من اهل

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٣١ طبعة ليدن .

بينما رفض ولاية المكس انذاك خالد بن ثابت الفهسي وقال ان كتب بن ضنة

قال : " لا تقرب المكس فان صاحبه في النار " واثرت عن النبي عليه الصلاة والسلام

انه قال : " لا يدخل صاحب المكس الجنة " وقال ايضا " اذا لقيتم عشارا فاقتلوه "

(٤) جيوهمان : أوراق البردى : السفر ٣ ص ١٠٠ - السيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٦٥

(١) أوراق البردى : السفر ٣ ص ١٠

(٢) نفس المصدر ص ٨ - ٩

المسرح ؟

الذمة ، فخذ ما يديرون من التجارات من اموالهم من كل عشرين دينار ديناراً ، فما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرة دنانير ، فان نقصت ثلاثة دينار فدعها ولا تأخذ منها شيئاً ، واكتب لهم بما تأخذ منهم كتاباً الى ملته من الحول . (١)

ونستظهر من هذا النص ان المكس كان يؤخذ من التجار المسلمين بنسبة اثنين ونصف في المائة من تجارتهم بينما كان يؤخذ من الذميين ضعف ذلك ، اى بنسبة خمسة في المائة من تجارتهم وان المكس كان يؤخذ من التجارة مرة واحدة في السنة ، ويحطون ايضاً بذلك حتى لا يدفعون على نفس التجارة مكسا ثانياً . بينما يرى بعض الفقهاء وجوب اخذ المكس على التجارة في كل مرة يمر بها صاحبها . (٢)

وكما اهتمت الحكومة المصرية في مصر بفرض الضرائب على التجارة الداخلية ، ففكرت اهتمت ايضاً بفرض الضرائب على التجارة الخارجية التي تمر بشورها بين الشرق والغرب وكذلك على التجارة الصادرة والواردة . فكانت هناك ضرائب مقررة على التجار في الشفور المصرية . مياط وتنيس ورشيد وعيذاب واسوان والاسكندرية . فالمكس قبل الاسلام كان عبارة عن حق فرض الضرائب على الامواق او حق فرض الضرائب التي تجبى في الموانىء والبلدان التي على الحدود المصرية . وقد حافظ المسلمون على هذا الحق وقربوه من نظام الذكاة والمشور . (٣)

هذه هي الضرائب التي التزم اهل الذمة في مصر بدفعها . ويمكن القول بصفة طامة ان النظام المالي المسمى كان مأخوذاً — الى حد كبير — من النظام البيزنطى

(١) الشافعى : الام ج ٧ ص ٢٢٨
ابو عبيد : الاموال ص ٥٣٤

(٢) تترن : اهل الذمة في الاسلام ص ٢٤٢ — ويقول ان انشرين مالك رفض ولاية المكس " لانعدام ما كان من التقوى عند السلف " . وربما كان الرفض من جانبها قائماً على اساس تفسير مدلول كلمة المكس اذ كانت في البداية بسيطة يقصد بها الخراج ثم تبدل مفهومها بعض الزمن ، فأصبحت تطال على ضرائب مهيئة لم يرد ذكرها في القرآن ولا في الحديث . واصبح جميع المسلمون — الخبيرين ينظرون اليها نظرة ملوها بالشك والريبة .

(٣) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٧٠

ولم يكن أخف منه وطأة الا انه كان يعتاز بتبسيطه بعض الشيء عن سالفه . فقد ابطال
المصر خاصة في اول عهدهم بعض الضرائب النافعة التي استحدثها البيزنطيون .
وقد زادت وطأة النظام الضرائبي خاصة في عهد اصحاب الاقطاع في مصر الاسلامية من
الترك . كما يتبين من اوراق اليردى . (١)

طرق جباية الضرائب :

وننتقل الى دراسة طرق جباية الضرائب في مصر الاسلامية . والواقع ان المصر
بعد فتحهم لمصر ، ابقوا على نظام الجباية الذي كان سائدا في مصر البيزنطية ، اذ
كانت كل كورة او قرية مسؤولة بالتضامن عن دفع ما على سكانها من الضرائب ويؤدى ذلك
الرعاية العربية واوراق اليردى العربية والهونانية .

يقول ابن عبد الحكم (٢) انه لما استوثق الامر لمعمر بن العاص في مصر ، اقر
قبطها على جباية الروم وكانت جبايتهم بالتعديل اذا عوت القرية وكثرا هلبا زيد
عليهم وان قل اهلها وخوت نقصوا . فاجتمع عرفاء كل قرية وماوتها (٣) ورؤساء
اهلها فبتناظروا في العمارة والخراب حتى اذا اقرروا من القسم بالزيادة انصرفوا
بتلك القصة الى الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى
وسعة المزارع ثم ترجع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من
الارض العمارة فينظرون فيخرجون من الارض فدادين لكتائبهم وحاماتهم ومعداتهم ،
من جملة الارض ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فاذا فرغوا
نظروا الى ما على كل قرية من الصانع والاجراء فقسوا عليهم بقدر احتمالهم ، فان كانت
فيها بطلية قسموا عليها بقدر احتمالها وقل ما كانت تكون الا الرجل الشاب او المتزوج .
ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الارض ثم يقسمون ذلك بين من
يريد الزرع على قدر طاقتهم فان عجز احد وشكى ضمنا من زرع ارضه . وزعوا ما عجز عنه
على الاحتمال وان كان منهم من يريد الزيادة اعطى ما عجز عنه اهل الضعف فان تشاحوا
قسموا ذلك على عدوتهم وكانت قسمتهم على قراريط والدينار اربعة وعشرين قيسراطا
يقسمون الارض على ذلك .

(١) نفس المصدر ص ٥٩ Zaky Hassan: Les Tulunides, P.244

(٢) فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٦-٢٠٧

(٣) الماروت لفظ صرياني الاصل معناه كبير الوجها . انظر المصدر السابق خاشية

نرى من هذا النص ان رؤساء القرى وذوى النفوذ بها هم الذين كانوا يقدمون الضرائب تحت اشراف صاحب الكورة ، الذى كان عليه الاتصال بالوالي او عامل الخراج لتأدية الضرائب المقررة على كورته وعلى الذى تدخل فى دائرة نفوذه .

ويؤيد ذلك كثير من اوراق اليردى ، ففى كتاب من قوة بن شريك الى صاحب قرية شبرا بسمرو فى سنة ٩١ هـ نجده يطلب منه ما على قريته من جزية سنة ٨٨ هـ . وقد رها مائة واربعة وثلاث دینار ، ومن ضريبة الطامام احدى عشر وثلاث ارب من القمح وهناك بردية اخرى تتضمن ايضا كتابا من قوة بن شريك فى نفس السنة الى اهل قرية شبرا اجية نيوتية من كورة اشقوة يذكر لهم فيه انه اصابهم من جزية سنة ٨٨ سبعة وثلاثين دینار . (٢) ونجد بردية ثالثة فيها كتاب لنفس الوالى وفى نفس السنة الى اهالى قرية اروس من قرى الشرقية — يحملهم فيه ما اصابهم من جزية سنة ٨٨ ايضا ويملئها ثلاثين وسدس دینار . (٣) وفى بردية رابعة كتاب من قوة بن شريك ايضا فى نفس السنة الى اهالى هروس ابهرميوطى من كورة اشقوة — يذكر لهم فيه ما عليهم من جزية وقد رها ثمان وعشرين وسدس دینار . (٤)

وكما كان الحاكم العام فى مصر البيزنطية يقدم الضرائب التى تفرض على نواحي البلاد المختلفة على اساس المخطوطات والقوائم التى يقدمها اليه حكام الاقاليم نجسده الوضع كذلك فى مصر الاسلامية اذ يتبع العرب نفس النظام . وتشير بعض اوراق اليردى الى ذلك فهناك بردية فيها ان قوة بن شريك قد اوسل الى صاحب كورة اشقوة تعليمات خاصة بجباية الضرائب واما امره فيها بجمع رؤساء كل قرية وذوى النفوذ فيها كى يختاروا رجلا امنا اذ كياه ليكلفهم تقدير ما على كل قرية من الضرائب بقدر استطاعتهم ويحدد ان يقوموا بمقتضى هذه تحت اشراف صاحب الكورة ويطلب منهم ان يرسل اليه نتيجة عملهم بعد ان يحتفظ بنسخة لنفسه ويطلب منه ايضا ان يكتب اسماء والقبائل .

(١) جروهان : اوراق اليردى السفر ٣ ص ٤٧ — ٤٩

(٢) نفس المصدر ص ٥١ — ٥٢

(٣) نفس المصدر ص ٢٣ — ٥٤

(٤) نفس المصدر ص ٥٥

ومحل إقامة هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وينذره بأنه إذا وجد أن قرية حملت أكثر مما تحتمل من الضرائب أو أقل فإنه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وصاحب الكورة أيضاً أشد عقاباً (١)

ويشرح بعض الكتاب المحدثين الإجراءات الضريبية أو بمعنى آخر الخطوات المتبعة في جمع الضرائب في مصر الإسلامية معتمداً في ذلك على ما جاء في أوراق بردى أفروديتي كما أنه يذكر أرقام بعض هذه البرديات مستشهداً بها. ونذكر فيما يلي بعض هذه الخطوات .

تتضمن الخطوة الأولى عند جمع الضرائب أعداد قائمة لا يحددها الحاكم نفسه وإنما أفراد احسن اختيارهم ويكونون من رؤساء القرى ومن كبار ملاك الأراضي وكانت هذه القوائم تشمل جميع السكان من الرجال وفيها ضريبة الرأس التي قدرت على كل منهم والأرض التي يملكها والضريبة المقدرة عليها وكذلك الخدمات الخاصة التي قام بها كل واحد منهم . ثم ترسل هذه القوائم بعد الانتهاء من إعدادها إلى موظفي ديوان الخراج بالقسطنطينية وكثيراً ما كان يطلب من مقدرى الضرائب أن يصحبوا قوائمهم إلى العاصمة الإسلامية (٢) ويتضح ذلك من إحدى البرديات وقد جاء فيها : " واحضروا معكم رجال اقليةكم الذين ذكرنا أسماءهم في خطاباتنا السابقة وكذلك قائمة بالاماكن في كل منها أسماء الذكور من السكان وضريبة الرأس التي قدرت على كل منهم ومساحة الأرض التي يملكها كل رجل من أرض الكروم والأرض الزراعية والخدمات التي قام بها سواء بناءً على تعليمات بذلك أو بغير تعليمات . وقائمة بأسماء الأبقين وألقابهم

(١) Bell: Translation of the Greek Aphrodito Papyri, P. 282

(٢) بردى أفروديتي The Aphrodito Papyri نسبة إلى مدينة أفروديتي أو كوم اشقاو البطنية في مصر العليا جنوب طما . والبردي في ثلاث لغات اليونانية والقبطية والعربية ويشمل مكاتبات رسمية وقوائم ضرائب وغير ذلك من النصوص الإدارية والقانونية ومعظمها ينتمي إلى عصر قريش بن شريك (٩٠-٩٢ هـ = ٧٠٩-٧١٤ م) انظر : دانييل دينيت : الجزية والإسلام ص ١٣١

(٣) دانييل دينيت : الجزية والإسلام ص ١٤٩-١٥٠

فى كل مكان وباختصار اوضحوا لنا فى قائمتكم كل ماتحفون .. على ان تخبروا اولئك الذين سيصبحونكم فى كل مكان فى اقليمكم ان يحضروا معهم قوائم اماكنهم حتى اذا احتاج الامر ان نستقى منهم المعلومات عن موضوع ما كانوا على استعداد لى يزودونا بكل ما يعلمون وان يقدموا لنا كل ما يستطيعون * (١)

ثم تأتى الخطوة الثانية فى جمع الضرائب ذلك انه بعد ان تصل القوائم المختلفة من الكور المصرية يقوم موظفى بيت المال فى العاصمة * بتقدير حصص الضرائب على كل ^{منظر} اقليم وكل قرية تدخل فى سلطة حاكم الاقليم (البا جارك) وبعد ذلك يأتى دور الوالى فى اعلان النتائج المختلفة لكل قسم من اقسام الاقليم فى "امر طلب" مقرا فيه مقدار الضرائب النقدية - وخاصة الجزية والخراج - التى كان على هذا القسم من الاقليم ان يؤديها ويؤكد وجود هذه الخطوة وحوالى احدى عشر بردية نشرها بكره * وهذا نص ماجاء فى واحدة منها : "بسم الله الرحمن الرحيم * هذا كتاب من قوة بن شريك لاهل باكونيس من كورة افودييتى انه اصابكم من جزية سنة ٨٨ اربمات دى - ثمانية وتسعون ومن ضريبة الطعام مائة وثمانية وعشرون اربمات ونصف وارب و نصف وية * (٢) * وبعد ما يصل هذا الامر الى اقسام الاقليم كان يختار اشخاص ليقوموا بجمع الضرائب بعد تقديرها على افراد السكان وكان جامعو الضرائب يقومون بحمل قوائم للتقدير توضح ما يجمعون ويطلق عليها اسم Merismois * (٣)

وهكذا نجد انه كانت هناك عليتان منفصلتان لتقدير الحصة الضريبية الاولى عند اعداد القائمة التى ترسل الى القسطنطينية والتى تقدر الحصة على اساسها * اما العملية الثانية فهى اعداد قوائم التقدير التى توضح ما يجمع من الضرائب وتسمى - Merismois - وكانت تعد لجمع الضرائب عددا يصل امر الطلب من الوالى * وهذه الخطوات فى الواقع كانت بشأن الضرائب الاعيادية * اما الضرائب الاخرى الغير اعيادية فكانت تحسبها تعد بالقسطنطينية بنفس الطريقة * (٤)

Bell : Op. Cit. P. 273.

(١)

(٢) الزميمة مكيال معين وكانت وية عربين الخطاب ستة امداد والمد ربع ساع * انظر

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٦٠ - ٦١ طبعية نفس الصفحة

(٣) دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٥١ - ١٥٢

(٤) نفس المصدر ص ١٥١

ونحن نرى انه من المسير قبول ما ذهب اليه بل Bell من انه لما كانت الضرائب فى السنوات الاولى للحكم العربى فى مصر كما كانت فى العهد البيزنطى تفرضها الحكومة فى شكل اجالى على القرى لا على الفرد • فان اساس النظام العالى كان دائما مبدأ الضرائب الجماعية التى تفرض على الجماعة لا الفرد • وان علاقة هذا الاخير كوحدة لفرض الضريبة كانت بالجماعة التى ينتمى اليها لا بالحكومة. (١) ذلك لان نظام الضرائب كان اساسه الفرد فى المحل الاول • الفرد وما يديه من عمل وما يفلحه من ارض فكانت الخطوة الاولى لجمع الضرائب المقررة اعداد قائمة التقدير لكل فرد على ذلك جمع المبالغ الفردية كما تظهر فى القائمة بعضها الى بعض • اما الخطوة الثالثة فكانت تتضمن ان يؤخذ من كل فرد ما فرض عليه • على ذلك الخطوة الرابعة والاخيرة — وكان يمثل فيها المظهر الجماعى — اذ كان التسديد بواسطة القرية لكل الحصص المجموعة. (٢)

(٣) ثم ظهر فى مصر فى العصر المملى نظام اخر لجماعة الضرائب وهو نظام قبالات الاراضى • وقد بدأ العمل به خاصة بعد ان انتشر الاسلام بين القبط ونسزل العرب الى القرى المصرية بعد ان كانت اقامتهم قاصية على العاصمة والثغور المصرية • يقول القزوينى : (٤) وكان من خبر اراضى مصر بعد نزول العرب بأرضها • واستيطانهم

(١) نفس المصدر ص ١٥١-١٥٢

(٢) نفس المصدر ص ١٥٢

(٣) يقول دى سامران لفظ قبالة معناه ضمان الاشخاص دفع ضريبة معينة او التزامه بتنفيذ عهد او ارتباط • انظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام — طبعة ١٩١١ ص ٦١

وشهير بعض المصادر الى رغبة الخليفة ابو جعفر المنصور فى ان يجعل والى مصر ضابطا لخارجها فقد حدث ان ارسل هذا الخليفة الى واليه على مصر محمد بن الاشعث (١٤١-١٤٢ هـ) يعرض عليه ضمان خراج مصر — بمعنى انه اراد ان يلزمه بدفع مبلغ معين عن مصر كلها — الا ان ابن الاشعث رفض ذلك — والواقع انه لا يمكن ان يرفض احد ولاية خراج مصر بينما من الجائز بل من المعقول ان يرفض الشخص ضمان خراجها كما فعل محمد ابن الاشعث.

(٤) الخطط ج ١ ص ١٣١-١٣٢

وأهلهم فيها • واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا • وانقياد جمهور القبط الى اظهرهم
الاسلم واختلاط انسابهم بانساب المسلمين لتكاثرهم السلطات • ان متولى خراج مصر
كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص فى القسطنطينية فى الوقت الذى تنهى فيه قبالسة
الاراضى وقد اجتمع الناس من القرى والمدن • فيقوم رجل ينادى على البلاد : صفقات •
صفقات • وكتاب الخراج بين يدي متولى الخراج يكتبون ما ينتهى اليه مبالغ الكور • والصفقات
على من يتقبلها من الناس وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالاربع سنين • لاجل الظلم
والاستهطار وغير ذلك • فاذا نقص هذا الامر خرج كل من كان قبل ارضا وضعتها الى ناحية
فتولى زراعتها واصلاح جسورها ومائرجوه اعاله بنفسه واهله ومن يتعده لذلك
ويحتل ما عليه من الخراج فى ابائه على اقساط وحسب له من مبلغ قبائله وضمانه لتلك
الاراضى • وما ينفقه على عارة جسورها وسد ترعها • وغير ذلك بضرابة مقسدة
فى ديوان الخراج (١) وتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين •

(١) يقوم ديوان الخراج مقام خزينة الدولة او وزارة المالية بها وحصل اليه جباية
الاقاليم ونفق منها على رواتب الموظفين واعمال الجند وغيرها من النفقات
الحربية ثم يحل ما تبقى الى بيت المال العام فى عاصمة الخلافة المدينة ثم
دمشق ثم بغداد • واخيرا استقلت مصر عن الخلافة العباسية فى العصر الفاطمى
كما حدث من قبل فى عصر الطولونيين والافنديين وقول ابن خلدون : المقدمة
ص ٢٤٣ • الملكية التجارية بمصر • عن ديوان الخراج والجبايات • اظن ان
هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهى القيام على اعمال الجبايات وحفظ
حقوق الدولة فى الدخل والخروج واحصاء المصاير باسمائهم وتقدير اراقاتهم
وصرف اعطياتهم فى ابائاتها والرجوع فى ذلك الى القوانين التى يريتها نفسه
تلك الاعمال وقهاية الدولة وهى كلها مسطرة فى كتاب شامد بتفاصيل
لملك فى الدخل والخروج مبنى على جز كبير من الحساب لا يقوم به الا المهبرة
من اهل تلك الاعمال •

ولقد ابقى عمرو بن العاص من جاء بعد • من ولاية مصر على ديوان الخراج
الذى كان فى مصر البيزنطية وكانت اللغة المستعملة فيه اليونانية والقبطية
واستمر على ذلك حتى كانت خلافة الوليد بن عبد الملك فجعل عبد الله بن
عبد الملك اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى البلاد بدلا من اللغتين اليونانية
والقبطية وصرف عن ديوان الخراج انتساب القبطى وجعل عليه احد المسلمين
وهو ابن يهودى الخزاري سنة ٨٧ • انظر : القهزى : الخطط ج ١ ص ١٥٨
وتذهب بعض المصادر الحديثة الى ان عبد الله بن محمد بن ابي مرزوق
مصر بعد عمرو بن العاص طول هو ومن جاء بعده اذ ظل بعض التمديلات على
النظام العالى فى مصر جاهاين وذلك بتدارك بعض عيوبه ونفا تصويها ديوان
الخراج فى مصر الى ادارتين • انظر دانييل ديفيت : الجزية والاسلام ١٢٥ ١٢٦

ويقال لما تأخر من مال الخراج البواقي • وكانت الولاية تتعدد في طلب ذلك مسرة،
وتسامح به مرة، فإذا مضى من الزمان ثلاثون سنة • حولوا السنة (١) وراكوا (٢) البلاد
كلها وعدلوهما تسديلا جديدا فزيد فيها يحتمل الزيادة غير الضمان للبلاد ونقص
فيها يحتاج إلى التقصص منها ولم يزل ذلك يعمل في جامع عمو بن الماصر إلا أن عمر
أحمد بن طولون جامعهم وصار المحكم (٣) منزل لأمراء مصر • فنقل الديوان إلى
جامع أحمد بن طولون • ثم نقل إمام العزيز بالله تزار إلى دار الوزير يعقوب بن
كلشور • فلما مات الوزير نقل الديوان إلى القصر بالظاهر واستمر به مدة الدولة
الفاطمية •

وهكذا كان يقال في جامع عمو بن الماصر ثم في جامع أحمد بن طولون ثم في
قصر يعقوب بن كلشور في مصر الفاطمية ومن بعد وفاته في قصر الخلافة مزاد علي بن
لتقبل الأرض أو بمعنى آخر ضامن خراجها • وكان تقبل الأرض لمدة أربع سنوات حتى
تتجدد سنوات المحصول الطيب مع سنوات المحصول الضعيف • كما كان الشخص
المتقبل للأرض يخص من الأموال المقرر عليه دفعها ما يصرفه في رى الترع وأصلاح الجسور
وما إلى ذلك كما نفهم من هذا النص أيضا أن الخراج كان يتم دفعه على أقساط
ولا يدفع مرة واحدة كل سنة وإن ما تبقى منه كان يسمى البواقي •

(١) تحويل السنة : يعني تحويل السنين القمرية أو الهلالية إلى السنين الشمسية
أو الخراجية التي يرتبط بها الزواجة وجباية الخراج ذلك لأنه إذا جمع الخراج
حسب السنين الهلالية فكأننا نجعل الخراج في اثنين وثلاثين سنة شمسية ثلاث
وثلاثين مرة وهذا ضد طبيعة الأشياء • ولذلك تحذف كل ثلاث وثلاثين سنة
قمرية خراج سنة وهذا ما يسمى بالتحويل • ويسمى أيضا الأزدي لأن لكل ثلاثة
وثلاثين سنة قمرية اثنين وثلاثين سنة شمسية • انظر : القرطبي : الحسائط
ج ٢ ص ٣٩ — آدم مرق : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٩٠ — ١٩١ • سيادة
كاشف : مصر في فجر الإسلام — حاشية ص ٦٤

(٢) رآك : يعني تقويم الأراضي وصحبها • مصر في فجر الإسلام حاشية ص ٦٤

(٣) لا شك أن المقصود القطار وليست المسكر التي بناها المباسيون بعد غلبتهم
على الأمويين •

ميؤك ابن حوقل^(١) الذي زار مصر في القرن الرابع الهجري في عهد
الفاطميين - ان الخراج كان يتم دفعه في مصر على أقساط وأنه كان لا يجري جمعه
دفعة واحدة بل يبقى منه ما يصى بالبواقي وان ذلك قد أصبح عادة متبعة بين المصريين •
فيقول "•••••" وادوة يطالب الناس باقتراح الخراج ومحاسبة المتقبلين على الثمن من
السجلات من جميع ما بأيديهم من المظول والمعقود • وهما مشير يؤخذ الناس فيه باتمام
مع الخراج من السجلات وبرمهاط يطالب الناس فيه بالبيع الثاني والثمن من الخراج
وبرمودة تقع المساحة على اهل الاعمال وطالب الناس بإغلاق نصف الخراج • من
سجلاتهم ••••• ويشتمل تقدير المساحة وطالب الناس بها يضاف الى المساحة من ابرواب
وجوه الاموال كالصرف والجهنزة وحق المراسي والقرب والكتاب على رسوم كل ناحية •
ويستخرج منذ اتمام البيع ما تقررت عليه المعقود والمساحة ويطلق الحصاد لجميع الناس
ويؤونة يستخرج فيه بتمام نصف الخراج ما بقي ولم يوزن بعد المساحة • ويأبى سبب
يستتم فيه ثلاثة ارباع الخراج وهو اصل زيادة ماء الفول ويكون ضعيفا • ومصرى ويفلق
فيه الخراج وفيه جمهور زيادة ماء النيل • وفي ذى المشهرين تتأخر البقايا على دق
الكتان لانه يصل في ثوب ويدهق بأب •••••"

وربك وجود نظام الالتزام او القبالة في جباية الضرائب المختلفة في مصر
الاسلامية ما جاء في الاوراق البردية وخاصة في مصر المباسى فهناك برديات تشير
الى ذلك ويرجع تاريخها الى القرن الثالث الهجري •^(٢) ، وبرديات اخرى يرجع
تاريخها الى القرن الرابع الهجري •^(٣)

(١) كتاب صورة الارض ص ١٢٩ - ١٣٠

(٢) جوهان : اوراق البردية السفر ٣ ص ١٣٦ - ١٤٠ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧

(٣) نفس المصدر ص ١٥٩ - ١٦٠

والواضح ايضا من الروايات التاريخية ان نظام الالتزام في جباية مصر ظل سائدا حتى عصر الفاطميين . فقد عهد الخليفة الفاطمي العزيز لدين الله في سنة ٣٦٣ هـ الى يعقوب بن كسر وعسلج بن الحسن ، بولاية الخراج ووجوه الاموال والحسبة والموا حسل والاعشار . (١) والجوالي (٢) ، والاحباش والموارث والشرطيين ، وجميع ما يرتبط بذلك في مصر وسائر الاعمال . وكعب العزيز لهما سجلا بذلك ، قرى على منبر جامع احد بن طولون . وقد باع هذا الرجلان مهامهم بحزم وسياسة حسنة . فكانا يقومان بالمزاد على الناس لتقبل الاراضى وغيرها من وجوه الاموال . كما كانا يتشددان فسى العدالة بالهواقي .

تقول الرواية التاريخية : " وجلسا غد هذا اليوم — اى اليوم الذى اعلن فيه توليها الخراج — فى دار الامارة فى جامع احد بن طولون للنداء على الضياع وما اثر وجوه الاموال . وحضر الناس للقبالات وطالبوا بالبقايا من الاموال ما على المالكين والمقبولين والمعامل . واستقصيا فى الطلب ونظروا فى المظالم " . (٣)

(١) اول من وضع الاعشار فى الاسلام عرب بن الخطاب ففرس على التجار المسلمين ان يدفعوا مهر ما معهم اما اهل الذمة فهدفهمون نصف المشر على تجارتهم . انظر : حسن ابواهم حسن : العزيز لدين الله — حاشية ص ١٧٧

(٢) الجوالي هى ما يؤخذ من اهل الذمة من جزية خيرة على رؤسهم فى كل سنة . وهى تسمن مائى حضرة الديار المصرية — القسطنطينية او القاهرة — وما هو خارج عن ذلك . اما فى حضرة الديار المصرية فوجدنا نظريتهم باشر من شاد وامل وشهود ، وتحت يده حشر لليهود واخير للقبط ويصرف ارباب الاسماء الواردة فى الدواوين ومن ينضم اليهم من يبلغ كل سنة من الصفار ومن يقدم الى الحضرة من البلاد الخارجة عنها ويمير عنه بالطارى ومن يمتنع الاسلام او يموت ويملى على كتاب الديوان ما يتجدد من ذلك . اما ما هو خارج الحضرة من سائر الاقاليم فان جزية الاقليم تكون لزاما او مقبل . انظر ابن صاقي : قوانين الدواوين ص ٣١٧ — ٣١٩ — القلقشندي : صبح الاعشى ج ٢ ص ١١٢ — ١١٧ .

(٣) ابن مسر : اخبار مصر ج ٢ ص ٤٥ — القهزى : اتماظ الحنفا ص ١٤٤ — ١٤٥ . الخطيب ج ٢ ص ١٢٢ .

وكما كان بعض الولاة يتشددون في حل المتقبلين على اداء ما عليهم من البواقي كان هناك من يتماهل في ذلك بل كان بعضهم احيانا يتسامحون في ترك هذه البواقي دون المداية بها . وقد حدث مثل ذلك في عهد الخليفة القاطن في الامر وزيره الافضل ابن امير الجيوش وذلك في سنة ٥١٥ هـ حين كتبت سجلات تضمنت ترك البواقي التي على المتقبلين والضامين في هذا العام وارسلت الى جميع انطايا البلاد لقراءتها على الناس . (١)

وكان يحدث بعد انخفاض النيل ونذر البذور المختلفة ان يرسل من العاصمة المصرية القسطنطينية القاهرة بعض الاعيان المشهورين بالثقة والعدل والنباهة ممن يكون لهم معرفة بالخراج . وكان يصحب هؤلاء في المادة كاتب من القبط ويخرجون الى كل ناحية من نواحي البلاد فيحررون مساحة ما شملته الري — الاراضي ما لملكه بار او شقي . ويكتب بذلك في سجلات واضحة — تسمى كالفسات — بالافدفة والقطائع وما تتضمنه من الاصناف المزروعة . وفي الشهر الرابع من المنسوبة القبطية يعين من العاصمة ايضا بعض الرجال المحروفين بالحاسة وقوة البسطة ويصاحبهم بعض الكتاب المشهورين بالعدل والامانة وايضا كاتب من القبط — وهؤلاء غير الذين خرجوا لمسح الاراضي — ويذهب هؤلاء لكل ناحية فيستخرجون ما شروكل يلد ثلث ماوجب عليهم من الخراج وفقا لما جاء في المكلفات ومن هذا الثلث كان يدفع ما تتطلبه المساكن من النفقات . وكانت تبقى في جهات الضمان والمتقبلين جلة البواقي . والظاهر ان المتقبلين للاراضي كانوا يدفعون ما عليهم من الخراج نقدا او مينا ما تنتجه الارض من الفلال والاصناف المختلفة . (٢)

(١) المقريزي : الخطط ج١ ص ١٢٤

(٢) نفس المصدر ص ١٢٨ — وفي عهد الخليفة القاطن الطغتكين انتدب بعد انتهاء الفيضان جماعة من العدول والكتاب القبط الى الولايات والاعمال المختلفة لتحرير ما شملته الري وما زرع من الاراضي وتقدير الخراج وكتابة المكلفات فخرج الى الجهات من يمسحها من شاد وناظر وعدول وتأخر الكتاب القبطي ثم لحقهم فاراد عبور النهر الى الناحية التي مقررا له الذهاب اليها واصر صاحب المعدي اخذ اجرة منه فأعطى ذلك الكتاب القبطي .

كان يختلف من سنة الى اخرى وحسب حلة البرى والمصلحة المزروعة .

وعشر بعض المصادر الاخرى الى ان الذى كان يقوم بمسح الاراضى الزراعية ،
وكتابة المكلفات هم حولة البلاد ويمسحهم مباشر الخراج الخاص بالناحية او الاقليم .
وان مباشر الخراج فى كل ناحية هو الذى يمين ايضا من يقومون باستخراج الخراج ،
ومن شاد وعدول تدوى خبوة يعلم المساحة وكاتب امين ، وقصا بين لقياس الاراضى ،
ولم يكن هؤلاء جميعا يقتدون من العاصمة . (١)

فلما انتهت عليه مسح الاراضى فى هذه الناحية وكتابة المكلفات التى تحل
الى ديوان الخراج الرئيس كما جرت العادة اضاف هذا الكاتب عشرين فدانا
سميت باسم " ارض اللجام " ونسبها الى صاحب المعدية وجعل عليها لكل فدان
اربعة دنانير ومدة خرج المكلفون باستخراج ثلث الخراج من هذه الناحية
وفقا لما جاء فى المكلفات المذكورة فاستدعوا اصحاب الزرع وكان من بينهم صاحب
المعدية وارغوه على دفع ستة وعشرين وثلاثى دينار . فانكر ملكيته للارض وايدى
فى ذلك اهل قريته . فلما اعيد النظر فى قوائم الخراج لم توجد اية اشارة
الى ارض اللجام وانتهى الامر بمقابلة الكاتب القبطى على ذلك اشد العقاب
انظر : توتون : اهل الذمة فى الاسلام ص ٣٢٣-٣٢٢

(١) النهرى : نهاية الارب جلد ٢ ص ٢٤٢-٢٥٣ . وقول بشأن ذلك ان الذى
يحتاج اليه مباشر الخراج بمصر ويمسح عليه فى مباشرته انه اذا شمل البرى ارض
الجهة التى مباشرها ان يبدأ بالزام حولة البلاد وفرد ما غولى وهو الذى يقاس
الارض برفع قوانين البرى ولتضمن هذه القوانين ما شمله البرى وعلاه النيل من
اراضى الناحية لسنة كذا الخراجية وتكون المساحة بالفدان ويفصلون ذلك بالرى
اى ما شمله النيل والفرافى وهو ما لم يشمل ما النيل بعد ذلك بمقارن ما جاء به
سبق ذلك فى سنة بلغ فيها النيل ما بلغه فى تلك السنة . ومعدان يسجل ذلك
على المزارعين بنظم اوراقا مشتملة بالاسماء والقبائل جميع قبالة . ويشهد على
ذلك ومن ثم تسجيل كل هذا فى حضرته ثم يمسح جريدة على اوراق المجلات
يشرح فيها اسم كل فلاح وما يسجله من الفدان وفصل ذلك بقبائله وجهته
وقطاعه فاذا تمت الزرع وان وقت حصاده ذهب عند ذلك ما مباشر مساحة الارض
من شاد وعدول وكاتب وقصا بين يمسحون الاراضى المزروعة بالاسماء والقبائل
ويمسحون اصناف المزروعات ويكون مباشرها المساحة قد مسطروا ايضا سجلات التخدير
فاذا تكاملت المساحة نظم مباشرها اوراقا يمسحونها المكلفة ثم يحقد المباشر
على جميع ذلك كله ويتفقد ما استخرج منه وجلة ما يتجهن للديوان فاذا تم كسل
اسم بما عليه كتب ما ثبتت ذلك وان بقى عليه شئ . اجمعه من بين البواقى .

ونحن نرى انه لما كان لكل اقليم ديوان خراج خاص به — وهو قرح لديوان الخراج الرئيسى فى العاصمة — فمن ثم كان لكل اقليم مباحسون للخزاج وعليه كان يعتمد مباشر الخراج على موظفين وعمال من نفس الاقليم ، الى جانب انه كان يحضر من ديوان الخراج الرئيسى موظفون يشرفون على الموظفين والعمال الضليين عند القيام بعملهم ، ويحصلون على صورة مسجلة لما تم بشأن الاراضى وتقدير الخزاج فى كل ناحية ، حتى يطلق عليها صاحب الديوان الرئيسى وموظفيه .

وكان الذين يقومون بدفع ما عليهم من الضرائب يتسلمون ايصالا عرف فى اوراق اليردى المصرية باسم براءة وكانت هذه الايصالات او الروايات تختم بخاتم بيضاوى الشكل يتضمن عبارة دينية ، يليها اسم الجيهنذ والصراف ، ^(١) وقدر جاه ذكر البراءة فى بعض الروايات القبطية التى تشير الى ان الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك كتب الى والى مصر امره باعطاء براءة لكل من يدفع الخزاج ، حتى لا يظلم احد ، ولا تكون فى دولته ظلم . ^(٢) وكان جابى الضريبة المعينة ينتخبه المكان ويسمى القبال . ^(٣)

(١) جروهان : اوراق اليردى السفر ٣ ص ١٣٩ — ١٤٢ — ١٤٣ — ١٥١ — ١٥٢ —
١٥٣ — ١٥٤ — ١٥٥ — ١٥٦ . وقد عرفت هذه الايصالات ايضا بهذا الاسم فى
قطع الاوستراكا — انظر Crum: Coptic Ostraca. PP. 36-37

(٢) ابن المقفع : سيرة الالباء البطارقة ١ ج ٢ ص ١٥٣

(٣) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٦٣ — ونسج عن قبائل قوية فى كورثا لاشمونين فى احدى اليرديات المصرية ترجع الى القرن الثانى الهجرى فى رجب سنة ١٣٤ هـ (يناير او فبراير سنة ٧٠٢ م) وتتضمن امر صادر من عامل اشمون الى احد رؤسائه ويقول جروهان فى تعليقه على هذه اليردية ان كلمة قبائل او قبائل ليس بمعنى الجابى Erheber der grundsteuer بل ينهى ان ينطبق هذا الاسم انطباقا تاما على الوثان الذى يكيل القمح الذى يدخل الى القرى المختلفة برسم ضريبة الطعام . كما ان هذا اللقب يستعمل كثيرا فى المسائل الخاصة بالنصارى فى وري اليردى المخطوط بكتبة جامعة هايدلبرج . مثلا بولة بنند واق القبائل وفى اوراق اليردى بدار الكتب رقم ١٥٩ مينا القبائل ورقم ٥٢٤٣ ذرى بن مينا القبائل . انظر جروهان : اوراق اليردى السفر ٣ ص ٩٩ — ١٠١

ونستخلص من أوراق البردى ومن المصادر التاريخية المختلفة ان ديوان الخراج
والاموال فى العاصمة كانت له فروع فى الاقاليم المختلفة وانه كان يتولاها موظف
يسمى القسطل وكان هؤلاء الموظفين غالبا من القبط . (١) اما من يقوم بجسم
الضرائب ، ويضطلع بتسليم وتحرير دفع الخراج والاعفا منه والاشراف على الضرائب
فيسمى الجيهنذ وكان هؤلاء الجهابذة فى مصر الاسلامية ، فى الغالب من القبط
أيضا . (٢)

ويقول النويرى (٣) انه كان يجب على مباشرى الجوالى - أى الجزية - ان يلزم
رئيس اليهود ورئيس القبط وغيرهما من طوائف اهل الذمة بكتابة اوراق يسمونها الرقاع ،
يوضحون فيها من استجد فى منطقتهم من الطواري (٤) والنوابت (٥) كما يشير
منهم فى نهاية الرقاع الى من تحول الى الاسلام ومن تولى وأيضا من خرج من بلده
الى بلد اخر والى أى جهة ذهب ان امكن ذلك وكان هؤلاء ينتقدون دائما احوال
النوابت حتى اذا وصل احد هم الى سن البلوغ ألزم باداء الجزية .

(١) جروهمان : اوراق البردى - السفر ٣ ص ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧
١٤٨ .

وتسميه بعض المصادر الحدبشة بالجسطل أى الجيم بدلا من القاف .
سنة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٦٤

(٢) جروهمان : اوراق البردى - السفر الثالث ص ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ -
١٦٠ - ١٦٢ - ١٦٧ .

(٣) نهاية الاربع ج ص ٢٤٢ - ٢٤٥

(٤) الطواريء هم الذين يطرئون على البلاد ولم يكونوا منها .
انظر المصدر السابق حاشية ص ٢٤٢

(٥) النوابت : جمع نابتة ، أى النشىء الصغار والمراد بها هنا من دون البلوغ .
نفس المصدر - حاشية ص ٢٤٢

كان اهالى بعض الكور يقدمون الشكاوى فى بعض الاحيان ضد عمال الضرائب فى مناطقهم ويرفعونها الى صاحب الخراج وطاكم الكورة نفسه للذين كانا من جانبهما يصرطان الى التحقق من مدى صحة الشكاوى او التظلمات . ويتضح لنا ذلك من بردية يرجع تاريخها الى الفترة بين سنتى ١٣٧-١٤٠ هـ (٧٥٤-٧٧٢ م) . وتتضمن هذه البردية اخطارات مدونة بثلاث لغات — اليونانية والقبطية والعربية وخاصة بخطابات من القمى من قبل عمال الخراج . وهذه الاخطارات خاصة باهالى اخميم الذين رفعوا ظلاماتهم الى صاحب بيت المال والى يزيد بن عبدالله صاحب كورة اخميم وطلما ضد عامل الضرائب عمرو بن عمار ومروسيه . على اساس انهم ظلموا الاهالى ظلما واضحا . وفرضوا عليهم ضرائب لا تتفق مع المدالة . فنشط يزيد بن عبدالله لفحص اسباب هذه الظلمة وتبين الحقيقة وطلما تقريراً بشأن ذلك وقع عليه المسئولون المحليون الذين تبينوا ان عمرو بن عمار ومروسيه لم يلحقوا اى ظلم ولا اجفاف باهالى اخميم فكتب لهم برأيه بذلك اشهد عليها بعض اليهود الحاضرين . (١)

ونلاحظ فى الاوراق البردية المتضمنة لقوائم دافعى الخراج والجزية وغيرهم من الضرائب ان هناك كثير من الافراد الذين يؤدون ضريبة الارض — اى الخراج — بينما لا يؤدون ضريبة الرأس (اى الجزية) . وطبعاً فاننا نشاءل لماذا لا يؤدى هؤلاء الافراد كثيرهم من الذميين الجزية ؟

ومن المؤكد انه ليس من هؤلاء الذين يدفعون الخراج ولا يدفعون الجزية ذميين تركوا دينهم اليهودى او المسيحى واعتنقوا الاسلام . لان مثل هؤلاء يشار اليهم فى اوراق البردى بكلمة *Mouléus* . (٢) ونحن نرجح ان هؤلاء الذميين لا يؤدون الجزية من الفئات التى اشارت احكام الاسلام بشأن الجزية الى اغنائها من ضريبة الرأس .

ونذكر من الاطلة على ذلك بردية تذكر سبعة وخمسين شخصاً يؤدون الخراج ولا يؤدون الجزية . ومن بين هؤلاء اثنا عشر امرأة ، وأربعة اطفال وأربعة قمر وشماس واحد .

(١) جروهان : اوراق البردى المرفوعة من ٢٧-٢٩

(٢) دانيل ديهيت : الجزية والاسلام ص ١٦٥

وليس في بردى افروديتي كله جالة واحدة يؤدي فيها احد الكهنة ضريبة الرأس ، وكذلك الشماسة وغيرهم من رجال الدين المسيحي ، لم يذكر احد منهم — سم كدافى الجزية . (١)

وهناك مجالات كثيرة لاديرة وكنائس تؤدي ضريبة الارض وضريبة القمح بينما لا يأتى فيها ذكر لضريبة الرأس الا في بردية واحدة تتضمن حالات كثيرة لاديرة وكنائس تدفع الضرائب الخاصة بها ثم تتضمن تفاصيل مبالغ تؤديها ستة اديرة خمسة منها خاصة بضميرتلا أرض والقمح . اما الدير السادس وهو دير انبا هرموت Anba Hermaotos فأما مبالغ تحت اسم ضريبة الرأس ومن المرجح ان هذا الدير كان يقوم بدور الوسيط في جمع الضرائب من سكان منطقته . ولقد ذكرنا ان انبا هرموت كان يؤدي عن هؤلاء ضريبة قمح مقدارها سبعة وستين اردب — بينما يتضح من بردية اخرى ان ضريبة القمح الخاصة بهذا الدير كانت ستة ارباب فقط ، وخفض النظر عن هذه الحالة ، لا يوجد دليل آخر ، على ان الرهبان والقسس كانوا يؤدون ضريبة رأس .

وتتفق ما جاء في هذه البرديات مع ما ذكره الفقهاء والعلماء المسلمون من انهاء الرهبان ورجال الدين الذميين من الجزية . يقول الشمراني (٢) : " واتفقوا على ان الجزية لا تضرب على نساء اهل الكتاب مطلقا ولا على عبيانهم حتى يملفوا ولا على عبيد هم ولا على مجنون وامس وشيخ فان هولا على اهل الصوامع " .

وهكذا وجد في مصر منذ الفتح العربي طبقة ممتازة من اهل الذمة لا تؤدي ضريبة الجزية وهم جماعة الرهبان وغيرهم من رجال الكنيسة . ولذلك لجأ كثير من القبط الى الاديرة وحياة الرهبنة كي يتخلصوا من دفع الجزية وغيرها من الالتزامات المالية التي فرضها العرب على المصريين الغير مسلمين واستمر الوضع على ذلك حتى كانت

(١) دانييل ديفيت : الجزية والاسلام ١٦٥-١٦٦

(٢) نفس المصدر ص ١٦٦-١٦٧

(٣) الميزان ج ٢ ص ١٤٥ — بينما يرى ابو يوسف ان الرهبان يؤخذ منهم الجزية اذا كانوا اهل يسار . اما اذا كانوا مساكين يتصدق عليهم . فلا يلزمون بادائهم . الخراج ص ١٢٦ .

امارة عبدالمزيز بن مروان . (١)

عهد الوالي الاموي عبدالمزيز بن مروان الى ابنه الاصبح بولاية الخراج وجميع وجوه المال في البلاد المصرية فامر الاصبح باحصاء الرهبان في كل الكور ووادي هبيب وسائر الاماكن وجعل على كل واحد منهم جزية رأس دينار فكان ذلك اول جزية وزنها الرهبان . كما امر الا يدخل احد في سلك الرهينة بعد من احصاه . ولم يتكسب الاصبح بذلك بل ألزم الاساقفة بدفع مبلغ القوي دينار سنويا الى جانب الخراج املك كما تسهم المقرر عليهم ادائه . (٢)

ويبدو ان الزام الرهبان باداء الجزية لم يستمر بعد اولاية عبدالمزيز بن مروان والدليل على ذلك ما تشير اليه المصادر التاريخية من ان اسامة بن زيد قد اعاد احصاء الرهبان ثانية اثنا ولايته لخراج مصر . ذلك انه امر بمنح القربى في عهده ثم ارجع الرهبان في جميع ارجاء البلاد . وان يؤسم كل راهب منهم حلقة من حد يد في يده اليسرى عليها اسم بيمعتود يره بغير صليب وطبعا تاريخ ملكة الاسلام .

(١) ساعد على انتشار الرهينة في مصر قبل الفتح العربي ما قاماه المصريون من اطماعهم في ظل الحكم البيزنطي ففضل كثير منهم ان يعيش في عزله عن العالم حتى لا يلزمون باداء الضرائب المختلفة وكانت الاديرة تزداد كثرة على مر الياهم وما لبث ان وقف عليها املاك كثيرة وزادت ثروتها . وكانت الحكومة البيزنطية تدفع لها المساعدات العالية . فلما فتح العرب مصر حافظوا على اعطاء هذه الطبقة من القبط من الضرائب . انظر سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢٢

(٢) ابن العلقم : سير الابطاء البطاركة م ١ ج ٢ ص ١٤٢ - ابن المصنف : تاريخ المسلمين ص ٢٨ - ٢٩ . الراهب البطاركة : حسن الملوك في تاريخ البطاركة والملوك ج ١ ص ٢٣١ الانبا ايسيدوروس : الخريدة النفيسة ج ٢ ص ١١١ سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢٢ - ٢٢٣ والمصادر كلها فيها عدا ابن العلقم تنسب احصاء الرهبان وفرض الجزية عليهم الى عبدالمزيز بن مروان ونحن نرى انه لا بد من ان يكون الاصبح قد حصل على موافقة ابيه على فرضه الجزية على الرهبان . يقول هاريسون ان الاصبح فعل ذلك لكراهيته الشديدة للقبط ولكننا نضيف الى ذلك شدة الحاجة انذاك للاموال لتغطية نفقات تعمير مدينة حلوان وما كانت تحتاجه البلاد من التعمير والاصلاط وغيرها من وجوه الاتفاق وقد بلغ الامر بعبد المزيز بن مروان انه كان يجمع خراج مصر كل اسبوع وان كان البعض يرى انه فعل ذلك خوفا من فتنة تنزل به ويحتاج فيها للاموال . انظر ابن عسك : التاريخ المجمع ص ١٠٤١ ابو صالح الارمني ص ٢٢

(١) اى التاريخ الهجرى وكان ذلك فى سنة ٩٦ هـ — كما انه ضيق على هؤلاء الموسومين
ويقول ابن المقفع (٢) : " واذا ظفروا بهارب او غير موسوم قدموه الى الامير فينقب
اعصابه يبقى اعرج * ولم يكن يحصى عدد من شوه به على هذه القضية وحلق لحسا
كثير وقتل جماعة وقلع اعين جماعة بغير رحمة *"

ولم يكتف اسامة بن زيد بما قام به من احياء الرهبان ووسمهم وانما اراد التاكيد
من ان جميع الرهبان موسومين وانهم لم يلحق بهم رهبان جدد بعد احصائهم * ففطجا
عالمه الديارات المختلفة حيث وجدوا جماعة من الرهبان بدون رسم * فالحق اسامة بهم
هتافا شديدا فطمعهم من قطع رقبته ومنهم من ضرب بالسوط حتى مات * كما ألزم الرهبان
بدفع الف دينار وان يقدم كل واحد منهم دينارا كجزية * وهددهم بهدم الاديير وقول الكنائس
اذا لم يقوموا بذلك * (٣)

ولما ان نساء كل هذا الحرس من جانب بعض الولاة المسلمين على
فرض الجزية على الرهبان وكانوا لا يؤدونها من قبل في مصر الاسلامية ؟ الواقع ان كثيرا
من الناس كانوا يهيجون قراهم * ويتركون اعمالهم وارضهم تخلصا من الضرائب المفروضة
عليهم وكانت اراضى الادييرة غير معفاة من الضرائب اذ كان عليها الخراج شأنها فى
ذلك شأن غيرها من الاراضى الزراعية * ولم يكن على الرهبان اعباء مالية اخرى * لذلك
كان دخول الادييرة والتهرب من ايسر السبل امام هؤلاء الاشخاص الهاربين من الضرائب
فلما ولي الخراج الاصمغ بن عبد العزيز ثم اسامة بن زيد فطنا الى ذلك فعملا على
الجهولة دونه بفتح التهرب وفرض الجزية على الرهبان وذلك قضى فى الوقت نفسه على
الدافع العادى الذى كان يشجع كثيرا من الذميين على الرهينة *

فلما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز المشهور بحزمه وشدته فى تطهير الحكم
الاسلام اهلل جميع اجوات اسامة بن زيد بالنسبة للرهبان بل بلغ به الامر انه اغشى
الاساقفة والكنائس من الجزية والخراج * (٤) ومن الصلح به ان الكنائس والادييرة

(١) ابن المقفع : سير الالباة الهاركة م ١ ج ٢ ص ١٥١ — ابن العميد : تاريخ

المسلمين ص ٢٩ — القزوينى : الخطط ج ٤ ص ٣٩٥

(٢) سير الالباة الهاركة م ١ ج ٢ ص ١٥١

(٣) نفس المصدر ص ١٥٢

(٤) نفس المصدر ص ١٥٢

قبل خلافة عمر بن عبد العزيز كانت تؤدى الخراج • ويبدو ان الجزية قد اسقطت من على الرهبان ورجال الكنيسة منذ عصر هذا الخليفة الاموى حتى منتصف القرن الثالث الهجرى حينما اعيدت الجزية على الرهبان فى مصر العباسى فى ولاية احمد بن محمد بن مديبر على الخراج • فأرسل عماله الى الديارات فى مختلف الاقاليم وامرهم باحصاء الرهبان بها • وطالبهم بالجزية والخراج عن الحشيش الذى فى الكنائس وعن النخل والعجر المثمرة والمشروسة فى بيوتهم • (١)

ونحن نرجح ان الجزية على الرهبان قد اسقطها احمد بن طولون عندما ولى امره مصر من بين ما اسقطه من الضرائب من على المصريين التى اثقلت كواهلهم فى ولاية ابن مديبر لخراج مصر • والدليل على ذلك انه قد حدث فى بداية القرن الرابع الهجرى — اى الفترة ما بين سقوط الدولة الطولونية وقيل قيام الدولة الاخشيدية وهى الفترة التى عادت فيها مصر الى التبعية للخلافة العباسية فى بغداد وصار ولايتها يمينون من قبل الخليفة — فقد حدث فى سنة ٣١٣ هـ • ان الوزير عبد الله بن محمد بن خاقان • ارسل على بن موسى الى مصر ليتفقد احوالها فلما دخلها لزم جماعة الرهبان والاساقفة والضعفاء والساكين من اهل الذمة فى جميع انحاء البلاد المصرية بأداء الجزية • فما كان من هؤلاء الرهبان والاساقفة الا ان ارسلوا جماعة منهم الى بغداد للاستغاثة بالخليفة العباسى المقتدر الذى كتب لهم سجلا يتضمن اعفائهم من الجزية • وان تجرى امورهم على ما كانت عليه قديما • • • (٢) وكان هذا الحدث فى عهد والى ابي منصور تكين بن عبد الله المقتصد • (٣) وفيما عدا هذه الفترات التى تحدثنا فيها • كان الرهبان ورجال الكنيسة لا يسودون الجزية •

ذكرنا من قبل انه الى جانب الرهبان كان يمتنع من الجزية النساء والاطفال والفقراء • فيقول ابن عاتى (٤) • ان الجزية واجبة على اهل الذمة الاحرار

-
- (١) ابن المقفع : سير الابرار البطارقة ٢ ج ٢ ص ٢٤
 (٢) ابن باريق : التاريخ المصنوع ص ٨٢ • ابن المصنف : تاريخ المسلمين ص ٩٦—٩٧
 (٣) ابو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٧—٢١٠
 (٤) قوانين الدواوين ص ٢١٧—٢١٨

البايعين دون النساء والصبيان والرهبان والعبيد والمجانين • وأما الشيخ الفانسي وغيره فقيها قولان والفقهاء الذين لا كسب لهم ففقيهم أيضا قولان الأول تجب عليهم • والثاني لا تجب عليهم ومطالبوا كذا إذا أيسرو • وإن كان منهم من وجن ويفيق يومئذ • فالضوضون تؤخذ منه الجزية • ومن مات منهم أو اطم في أثناء الحول • قبل أن تؤخذ منه لما مضى بقسطه وقيل أنه لا تجب عليه فليس عليه شيء •

وقد جاء في بعض أوراق البردي ما يؤكد ذلك • كما كان هناك أيضا بعض أفراد مميزين من أهل الذمة محققين من أداء الجزية • ويدل على ذلك قول عمر بن عبد العزيز أن تؤخذ الجزية من سائر الناس الذين لا يمتنعوا الإسلام ولم تجر عادتهم على القيام بها • ويذكر دانييل ديفيت • (١) بعض الأخطاء لهذه الطلالت معتمدا على ما جاء في بعض الأوراق البردية سواء أكانوا من الفقهاء أو النساء أو الأطفال أو بعض العلماء والموظفين الذين كان لهم بعض المميزات •

وتساءل : هل كان من يمتنع الإسلام من أهل الذمة يلزم بأداء الجزية والخراج أم أن هذه الضرائب كانت ترفع عن الذم الذي يمتنع الإسلام ؟

أما من ناحية الجزية فيبدو أنه في بداية الحكم العربي في مصر لم يفكر أحد من الولاة في فرض الجزية على من أسلم من أهل الذمة • وقد أراد عبد العزيز بن مروان أن يبدأ في فرضها بإيطاء من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلا أن ابن حجرية نهاه عن ذلك • وقال له : " أعينك بالله أيها الأمير أن تكون أول من من ذلك بمصر • فوالله أن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم • فكيف تضعها على من أسلم منهم " فتركهم على ما كانوا عليه لا يؤدون الجزية عند اعتناقهم الإسلام • (٢)

(١) الجزية والإسلام من ١٢٧-١٢٨

(٢) ابن عبد الحكم : فتح مصر والمغرب ص ٢١٠

وكان أول من أخذ الجزية من أسلم من أهل الذمة الحجاج بن يوسف

فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، رغب في تشجيع الذميين على الاسلام وذلك عن طريق اغاثتهم من بعض الاعباء المالية التي كانوا يلتزمون بأدائها للحكومة المصرية ، واهمها الجزية . فكتب الى عاله : " من شهد شهادتنا واستقبل قبيلتنا • واختسن فلا تأخذوا منه جزية • " (١) وطلبه أمر واليه على مصر بالعمل على ذلك وتسجيل اسماء من يمتنق الاسلام من اهل الذمة في الديوان وكتب الى حيان بن صريح يأمره برفع الجزية عن اسلم من الذميين واستشهد في ذلك بقوله تعالى (فان تابوا واقاموا الصلاة ، واتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، ان الله غفور رحيم) • (٢)

وسيدوانه قد نتج عن ذلك ان ضعفت ايرادات مصر فلما ادرك ذلك واليه حيان بن صريح كتب الى الخليفة عمر بن عبد العزيز يقول له : " اما بعد فان الاسلام قد اضر بالجزية حتى سلفت من الطرث بن ثابتة عشرين الف دينار وتعت عطاء اهل الديوان • فان رأى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل • وهكذا رغب والى مصر فسي اخذ الجزية من اسلم من اهل الذمة — بينما رفض الخليفة ذلك وكتب اليه بفتح رأيه ويقول له : " فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ولمصرى • ليعرأحق من ان يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه • " (٣)

ويعلق توماس ارنولد (٤) على ذلك فيقول : ولكن الولاة الذين جاءوا بعد ذلك اءرقوا ان هل هذه السياسة تضرب الدولة لاسباب تتعلق بمال الجباية والحواء بان يؤدى الذين يدخلون فى الاسلام الضرائب كما كانوا يؤدونها من قبل • على ان هل هذه السياسة لم يقد ر لها الاستمرار ، وعمل كل والى من هؤلاء الولاة برأيه بصورة تقوم على التمسك وعدم النظام •

(١) ابن قهم الجزية : احكام اهل الذمة فى ١ ص ٥٩

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢١

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٥٦ ط ليون

المقرئى : الخطط ج ١ ص ١٢٥

(٤) الدعوة الى الاسلام ص ١٢٤ — ١٢٥

ونحن نشفق مع توماس رنولد فيما ذهب اليه من ان سياسة عمر بن عبد العزيز قد اتبعتها بعض الولاة والخلفاء الذين حكموا بعده ومنهم والي خفرين الوليد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب سنة ١٠٨ هـ (٧٤٤ م) فقد حدث انه لما وعد اهل الذمة بالاغناء من الجزية اذا هم تركوا دينهم اليهودي أو المسيحي واعتقوا الاسلام أسلم من اهل الذمة حوالي اربعة وعشرون الفا . (١)

وكرر حدوث ذلك ايضا في عهد الخليفة ابي العباس عبد الله السفاح - في مطلع الدولة العباسية - حينما اظن هذا الخليفة سياسته - فقال : " ان كل من يصير على دينه ورضى كصلاته يكون بشير جزية . فمن عظم الخراج والكلف عليهم انكثر كثرت من الفقراء والاغناء دين المسيح وتبعوه " . (٢) وهكذا حوّل اقليم ولاية مصر على اخذ الجزية من اسلم من اهل الذمة الا في الفترات المحدودة التي اشرفنا اليها .

اما بالنسبة للخراج - ووضعه عن ارض من يمتنع الاسلام من اهل الذمة فلم يكن نجد اية اشارة اليه في المصادر المختلفة . ونحن نرى انه لما كانت مصر قد عرفت معاملة البلاد المفتوحة صلحا - ففرض على رؤس واطبالها الجزية وعلى اوضاعها الخراج فلا يبعد ان الخراج لم يرفع عن ارض الذي احتل بعد تركه دينه واعتناقه الاسلام . وكان ذلك في الواقع يتفق وما ذهب اليه الفقهاء المسلمون .

قال مالك بن انس : ان من اسلم من اهل الصلح فهو احمق بأرضه وماله . أما اهل العنوة فمن اسلم منهم تصير ارضه للمسلمين . لان اهل العنوة ظلموا على بلادهم . وصارت فبيضا للمسلمين ولان اهل الصلح انما هم قوم اعتمدوا وشحوا بلادهم حتى صالحوا عليها وليس عليهم الا ما صالحوا عليه . ولا أرى ان يزيد عليهم ولا يؤخذ منهم الا ما فسروا عن الخلفاء لان عمر خطب الناس فقال : قد فرضت لكم الفوائض وسقنت لكم السنن وتبركتكم على الواضحة . (٣)

(١) نفس المصدر السابق ص ١٢٥

(٢) ابن القتيبي : معجم الايام البطركية م ١ ج ٢ ص ٢٠٥ - ٢٠٦

(٣) كتاب الخراج ص ٢١

لما ورد في كلامه

(١) بينما يقول يحيى بن آدم القوشى : " من اسلم من اهل الصلح ، رفع الخراج عن رأسه وعن ارضه ، وتصير ارضه ارض عشر . الا ان يكون من اهل الصلح ، صولحوا على ان يوضع على رؤوسهم الجزية وعلى ارضهم الخراج ، فعن اسلم رفعت الجزية عن رأسه ، وكان الخراج على ارضه على حاله . "

ونلص من دراستنا ان كثيرا من الولاة كان يحرص اشد الحرص على تحصيل الجزية والخراج من الذمى الذى يترك دينه ويعتق الاسلام . بل بالغ بعض الولاة فى ذلك حتى انهم اصرروا على اخذ جزية الموتى الذميين من تركاتهم او من اقاربهم من اهل الذمة ، وتشهر بعض الروايات التاريخية الى حدوث ذلك فى مصر على ايدى الولاة الامويين . بينما لم يحدث ذلك فى عصر الولاة العباسيين او عهد الدولة المستقلة — الطولونية والافطحية .

وكان اول حدوث ذلك فى عهد الوالى عبدالله بن عبدالملك — الذى ولى امرة مصر بعهد عبدالعزیز بن مروان — الذى اشتهر بتقديده مع اهل الذمة وزيادة الخراج عليهم . فتشهر الرواية القبطية الى تمسكه الشديد باخذ جزية موتى القبط . فتقول : " وامر ان لا يدفعن ميت حتى يقربوا منه بالجزية . " حتى ان المستورين الذين لا يقدمون على الخبر اذا ماتوا لا يدفعهم احد الا بأمره . " (٢) والواضح لنا ان مثل هذا الاجراء كان لا يستمر طويلا ، ان سلطان ما يظل الاخذ به بوقاة من منه او زوال امره .

اما المرة الثانية التى ألزم فيها الاحياء من اهل الذمة وخاصة القبط بمداة جزية موتاهم فكانت فى عهد الخليفة الاموى عمر بن عبدالعزیز وولاية حيان بن سريح . وقد سبق ان ذكرنا ان اسلم الذميين المتوالى فى عصر هذا الخليفة ووضع الجزية عن اسلم قد اضر بايرادات مصر وانقص دخلها . ويبدو ان حيان بن سريح فكسر فى ان يلزم الاحياء من اهل الذمة بدفع جزية موتاهم لهموض بذلك ما حدث فى دخل

(١) ابن المقفع : سيرة الائمة الهداية ج ١ ص ١٤٥

(٢) المرجع السابق .

مصر من نقص فكتب في هذا الامر الى الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي تردد فمضى
بأدى الامر وسأل عراك بن مالك واستفتاه بشأن ذلك فقال له عراك : " ما سمعت
لهم بمقد ولا عهد انما اخذوا غنوة بمنزلة العبيد " عند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز
بأمر واليه على مصر ان يجعل جزية موتى القبط على احيائهم . (١)

ويقول ابن عبد الحكم (٢) في ذلك : " وذلك يدل على ان عمر بن عبد العزيز
كان يرى ان ارض مصر فتحت غنوة وان الجزية انما هي على القرى فمن مات من اهل
القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم " وان موت من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئاً
... ويحتمل ان تكون مصر فتحت بصلح ، فذلك الصلح ثابت على من بقى منهم " وان
موت من مات منهم لا يضع عنهم ما صالحوا عليه شيئاً " .

ولعل ذلك هو الذي دفع هذا الموضع الى ان يقول ان الجزية في مصر جزيتان :
جزية على رؤوس الرجال وجزية جملة تؤول على اهل القرية ويؤخذ بها اهل القرية . فمن
هلك من اهل القرية التي عليهم جزية ساء على القرية وليست على رؤوس الرجال .
ومن لا ولد له ولا وارث ، ترجع ارضه الى قريته في جملة ما عليهم من الجزية . ومن هلك
من جزيته على رؤوس الرجال ولم يدع وارثاً ، فان ارضه للمسلمين . وقال عمرو بن عبد
المزيز : ان الجزية على الرؤوس وليست على الارض " . (٣)

وقد اثقل كثير من الولاة في مصر ، كاهل اهل الذمة وخاصة القبط بالاعباء
المالية وتشددوا في جباية الضرائب فلجأ كثير من القبط الى المقاومة السلبية في بأدى
الامس ، فهرب كثير منهم من المناطق التي يقيمون فيها الى مناطق اخرى
وخاصة بمصر ان ادركوا انه لا فائدة من الاعصام بالاديرة بعد ان فوض الاصبغ بسن
عبد العزيز الجزية على الرهبان — وما لاشك فيه ان حركة الهروب هذه كان لها

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٨١ وفتح مصر والمغرب ص ٢٠٨

ابن الجزية : احكام اهل الذمة ق ١ ص ٦٠

(٢) فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٨-٢٠٩

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٨

اثرها في مالية البلاد ، الى جانب ما كانت تشيره من القوضى والاضطراب

وقد اخذ الولاة المسلمون منذ ولاية عبداللہ بن عبدالملك — الذي زاد الخراج على القبط فجعل من عليه خراج دينار يؤدي ديناراً وثلاثين — يتشددون في مراقبة الابقين والحد من حركتهم . فأمر عبداللہ بن عبدالملك بوصم الثغراء الذين وجدوا في الاقاليم المختلفة على ايديهم وجباههم ثم امر بارسالهم الى مناطق مختلفة فيفسر التي نزلوا فيها . (١)

استمرت حركة الهروب بعد ذلك في ولاية قرّة بن شريك بل اتخذت في مصر هذا اللوالب شكلاً واسع النطاق — فكانت عائلات باكملها من الرجال والنساء والاطفال تهرب من منطقة الى اخرى تخلصا من عب الضرائب ما اضطر قرّة بن شريك الى تعيين جماعة خاصة لمراقبة هذه الحركة وايقافها . ويقول ابن المقفع (٢) بشأن ذلك : " وكان الناس يهربون ونساءهم واولادهم من مكان الى مكان . ولا يأويهم موضع مسن اجل البلايا . ومطالبات الخراج وعظام ظلمه اكثر من تقدمه ثم انه ولي انسان اسمه عبدالعزيز من مدينة سبط وكان يجمع الذين هربوا من كل موضع ويردّهم ويوطئهم ، ويحاقبهم ويعيد كل منهم الى موضعه " .

ونحن نرى ان ذلك كان طبيعياً من جانب القبط في مصر في ذلك المصمر ، وخاصة اذا علمنا ان قرّة بن شريك قد طالب اهل الذمة بدفع الجزية المتأخرة عليهم ، منذ عهد سلفه تشدد في ذلك . (٣) كما انه كان يفرض احياناً ضرائب غير عادية عليهم . (٤) ثم انه قسّر على البلاد مائة ألف دينار الى جانب ما هو مقرراً مسن الخراج . (٥)

(١) ابن المقفع : سيرة الالاء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٤٥

(٢) نفس المصدر ص ١٤٦

(٣) جروهمان : اوراق البردي — السفر ٣ ص ٤٨ — ٤٩

(٤) Bell: Translation of the Greek Aphrodis Paptiri. (٤)

PP. 272, 281, 283.

(٥) ابن المقفع : سيرة الالاء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٤٦

[illegible]

وهناك بودية اخرى تشير الى ان قرة بن شريك ارسل عند وبين من قبله للنظر
فى حركة الابقين وفى نفس الوقت يطلب من صاحب الكورة تيسير مهمة هؤلاء السندوبين بان
يرسل معهم رجلا ثقات يعرفون الكتابة ليقوموا بكتابة اسماء الابقين والقابهم ، وليبينوا
ايضا الاماكن التى هربوا منها والا تكن التى لجأوا اليها من اجل حصر الذين
عادوا الى قواهم والذين منح لهم بالاستقرار فيها على ان يودوا الضرائب ثم يأمر
صاحب الكورة ان يوصف هؤلاء الاشخاص بالتزام الجد والنشاط فى هذا العمل ويحذرهم
بعدم قبول الهدايا والرشوة والا الحق العقاب بصاحب الكورة والشخص المذنب
ايضا . (٣)

(١) كنان يقال لاهل الذمة "الجانبة" لان عربين الخطاب اجلاهم عن جزيرة العرب والزمهم هذا الاسم اينما حلوا ثم لزم كل من لزمته الجزية من اهل الكتاب بكل بلد وان لم يجلبوا عن اوطانهم . انظر : سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام حاشية ص ٢٧٧ - عطية مشرق : نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين حاشية ص ١٧ وكان يحدث مثل هذه الحركة اى الحركة الاقبح - في العصر البيزنطي فكثيرا ما كان الفلاحون يهيجون قواهم تخلفا من دفع الضرائب الباهظة : انظر :
Lammaurs: Un Gouverneur Omayyade..., P.107

(۲) جبروہمان: اوراق البردی - السفر ۳ ص ۲۳ - ۲۴

وهناك بردية تالفة ياللب فيها قوة بن شريك من صاحب كورة اشقوه ان يرسل اليه الهاربين واسرهم ومقتاعهم . وان يعد له سجلا باسماء الاعراض الذين ارسلوا ، ويحدد في اى موضع من كورته هموا ، واملاك كل شخص والوقت الذى امضاه في كورته وكل معلومات لازمة عن الهاربين كذبة او مطبأة . وان يرسل الهاربين وهذه المعلومات عنهم مع المندوب الذى ارسله قوه لهذا الغرض ويهدده بأشد انواع العقاب الجسماني والمالي . اذا توانى في تنفيذ ذلك ، او تفاقل عن احد الهاربين . كما نراه في هذا الكتاب يهدد الذين يأوون الهاربين ، بدفع غرامة كبيرة تفوق قدراتهم وامكانياتهم المادية . (١)

Bell : Op. Cit., PP. 269 - 270

(١) =

دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٧١ — سيدة كاشف : مصرفى فجر الاسلام ص ٢٢٨ — ونذكر جزءا من نص البردية المشار اليها وقد جاء فيه : " ابعثوا الى الابقين رجلا يتوفر فيهم العدل ويعرفون الكتابة بتعليمات ان ينقلوا معهم الى لجنة الابقين وان يسجلوا في خضرهم اسم كل ابق ولقبه وكذلك المكان الذى فر منه والمكان الذى حل فيه ونفى اى اقليم . وذلك في الحالتين : حلة الذين ردوا الى بلادهم . وحلة الذين سمح لهم بالبقاء حيث نزلوا ومشروط ان يؤدوا ما عليهم من ضرائب انظر . Bell: P. 270

Bell : Op. Cit. , PP. 274 - 275

(١)

دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٧١ — ١٧٢ — سيدة كاشف : مصرفى فجر الاسلام ص ٢٨٨ وهذا بعض ما جاء في هذه البردية — اقمنا اننا اذا وجدنا بعد عودة رسولنا ابقا واحدا لم يسجل اسمه في القائمة التى تبمشون بها اليينا لنعاقبكم اعنف العقاب الامر الذى يسحقكم سحقا . بغرامة فاحشة وقصا عريضة موقمين الغرامة ايضا على سكان المكان الذى يوجد فيه مثل هذا الابق غرامة فاحشة باهظة وسنجرده رؤساءه والقائمين على الادارة فيها وحراسها تجريدا ثم نوقع عليهم قصاصا بدينا لاهلك يفوق اقصى ما يتصورونه من عذاب . فلن تتحرك بمون الله اقليما واحدا في مصر دون ان نبعث اليه بعمالنا الامناء القادرين مزودين بتعليمات ان يتقبوا ويفتشوا بحمية وغيرة ودقة عن اولئك الابقين وان يأمرنا كذلك بحكافة كل سيمطى معلومات عن اى ابق مخفى من اولئك الابقين الذين امرنا بارسالهم اليينا ومكافأة تفوق كل مكافأة يتوقعها كل من يزود بمعلومات . انظر . Bell: P. 275

ونستخلص من هذه الوثيقة أن بعض الأهالي كانوا يرجعون بالابقين إلى بلادهم، ويخفونهم في منازلهم. وبذلك لنا ذلك ما جاء في البردية رقم ١٢٨٤ من بردى أفندي، لكل من يثبت أنه يخفي أحداً من الأبقين بعد هولا، سنوقع عليه غرامة وقد رها عشرة دنانير عن كل رجل وسنوقع على الأبق غرامة قد رها خمسة دنانير وعلى الإداريين والرؤساء والبوليس خمسة دنانير. وسيكافأ بدنانيرين عن كل آبق. كل من يزود بمعلومات بمعد اعداد القائمة" (١)

وهكذا استمر قوة بن شريك يراقب حركة الأبقين بمزم ونشاط مطولا وقفها بمختلف الوسائل حتى توفي وانتهت ولايته على مصر في سنة ٩٦ هـ، وولي خراج مصر في هذه السنة أسامة بن زيد. وقد استمرت في عهده حركة الهروب. ذلك أنه تشدد في جباية الضرائب المقررة على أهل الذمة ولذلك نجده يأمر المصريين بالآوى أحد منهم غريباً في الكنائس والفنادق أو السواحل ولشدة الخوف منه طرد الناس من كان يلوذ بهم من الغرباء الأبقين. (٢)

ومن أجل وضع حد لهذه الحركة التي كانت تسمى إلى مائة البلاد بالاضافة إلى ما كانت تسببه من الفوضى والاضطراب أمر أسامة بن زيد بعمل سجلات للأهالي أشبه بجوازات السفر اليوم والزم كل شخص يريد الانتقال من جهة إلى أخرى فسي الإبلاد المصرية أو يريد ركوب سفينة أو النزول فيها أن يحمل معه سجلاً. وأمر عال به بالقبض على أي شخص يوجد ماشياً أو عابراً من موضع إلى موضع وليس معه سجله. وإذا وجد شخص في سفينة بدون سجل ينهب ما في المركب وتشمل فيها النساء،

(١) Bell: Op.Cit., PP. 379 - 380

دaniel دينيت : الجزية والاسلام ص ١٧٢ - وأمر حاكم الكورة أن يجمع كبسار رجال كورته ورجال الشرطة. ويقروا عليهم هذا الكتاب، ويطلب منهم كتابة نسخة مضمونة بها على جميع الناس في كل مكان داخل الكورة.

(٢) ابن المقفع : سيرة الأباء البطارقة م ١ ج ١ ص ١٥١

اما من فقد سجله أو أصابه التلف لسبب من الاسباب فلا يمكنه الحصول على سجل آخر
الا بدفع غرامة قدرها خمسة دنانير. (١)

على المهر

وهكذا كان اهل الذمة — خاصة — والمصريون عامة — يقاسون احيانا من التعمد
في جباية الضرائب المختلفة التي اشقت كواهلهم في بعض الفترات. وبالرغم من ان الخليفة
عمر بن عبد العزيز كان قد امر برفع الجزية والخراج — كما ذكرنا — عن الكتاس والاساقفة
والرهبان — الا ان خلفه يزيد بن عبد الملك — أعاد الجزية والخراج الى ما كانت عليه
قبل عصر سلفه عمر بن عبد العزيز واخذ جميع المسيحيين بالشدّة في اداء الالتزامات
المالية. (٢)

-
- (١) نفس المصدر ص ١٥١ — وسوق لنا قصة امرأة ارملة خرجت مع ولدها من الاسكندرية
ومعهما سجلهما فنزل ولدها يشرب من البحر فغرق ومعه السجل — فمادت الي
الاسكندرية — واخبرت المسؤولين عما حدث لها ولكن لم يوافق احد بحالها — بل
امر حاكم الاسكندرية باعتقالها حتى تدفع عشرة دنانير نظير سجلها آخر مما اضطرها
الى بيع ثيابها وكذا ماتت بل اضطرت الى طلب الصدقة حتى تجمع المبلغ
المطلوب انظر نفس المصدر ص ١٥١ — ١٥٢. ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٦٩
(٢) ابن المقفع: سيرة ابناء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥٢

٧- ثورات المصريين وأثرها في التعريب

استمر ولاية مصر في تشدد هم في جباية الجزية والخراج وغيرها من الالتزامات المالية التي يلتزمها أهل الذمة ، بل زادوا في مقدارها أحيانا مادفع القبط وهم يمثلون جانباً كبيراً من أهالي مصر إلى المقاومة الايجابية وترك المقاومة السلبية وتلمس ذلك في العهد الذي تولى فيه عبد الله بن الحبيب خراج مصر في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك فقد أمر عبد الله بإحصاء الناس والدواب وأن تقاس الأراضى وتحصى الكروم حتى يمكن تحديد مساحة كل من الأراضى الزراعية والأراضى البور . ووضع فائضات في الأراضى المصرية . على الحدود والطرق كما أنه ضاعف الخراج . وأمر بختم رقاب الذميين من (١) سن العشرين إلى المائة — بختم من الرصاص ، ووسم أيدي المسيحيين منهم بوسم الأسد . وقد زاد عبد الله في الخراج على كل دينار قهراطاً . (٢)

وأمام هذه الأعباء المالية المتزايدة ، بدأ المصريون القبط لأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية يتكون المقاومة السلبية ويقاومون الحرب مقاومة ايجابية . فقاموا بأول ثورة في وجه الحكومة الإسلامية في سنة ١٠٧هـ — وتركزت الثورة في الوجه البحرى . وكان والى مصر آنذاك الحروب يوسف الذى بادربار سال الجند اليهم فطربوهم وقتلوا من القبط نفراً كثيراً . (٣)

وقد تباينت ثورات القبط بعد ذلك وشملت الوجه القبلى الى جانب الوجه البحرى ففي سنة ١٢١هـ . في ولاية خنظلة بن صفوان انتفض أهل الصعيد وحسارب القبط عالمهم فأصرح خنظلة بإرسال الجند لمطربهم وإلقائهم على هذه الحركة . وتمكن الجند من قمع هذه الحركة وقتل كثير من القبط . (٤)

-
- (١) ابن المقفع : سيرة الأباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥٤
 (٢) المقرئى : الخط ج ٤ ص ٣٩٤ — ويقول ابن المقفع أنه زاد على الدينار ثمن دينار . انظر سيرة الأباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥٩
 (٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٣-٧٤ — المقرئى : الخط ج ٤ ص ٣٩٤
 أبو الصمصام : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٥٩ — ولحل هذه الثورة وما كان من قمع الحكومة لها هي ما قصد به ابن المقفع بحبارته التالية : " فلما عظم التمسب والقيام بالخراج الذى أضغفه عليهم ثار حرب على النصارى والمسلمين حتى سفكت دماء كثيرة بأرض مصر بين القبيلتين في أول مدينة بنا ومدينة صا ومدينة سمند وما يجاورهم ومواضع كثيرة في أسفل الأرض . وكذلك كان في الطرق والجبال والبحار ."
 انظر : سيرة الأباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥٤-١٥٥

وفي سنة ١٣٢ هـ خرج رجل من القبط بمحمود وكان يسمى يحنس وثار ضد حكومة العرب في ولاية عبد الملك بن موسى النصيري الذي بحث اليه بالجيش فهاجمهم وقتل نفر من اصحابه (١)

ثم ثار القبط في رشيد في نفس هذا العام ولما وصل مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين الى مصر قارا من وجه خصومه العباسيين ارسل اليهم جيشا تمكن من هزيمتهم (٢) كذلك ثار اهل البشرد في نفس السنة اي سنة ١٣٢ هـ وكان على رأسهم مينا ابن بقيقة واستنموا عن اداء الخراج وخرج عبد الملك بنفسه لقتالهم وقمع ثورتهم الا ان البشرديين تمكنوا من هزيمته فأرسل اليهم عسكريا آخرأ يساعده اسطول في البحر ولكنهم تغلبوا عليهم ايضا في البر والبحر ورأى مروان بن محمد مصالحتهم ومصالحتهم نظرا لاقترب خصومه العباسيين منه فكتب اليهم بالمهاد والامان الا انهم رفضوا ذلك فأرسل اليهم جيوشا كثيرة ولكنها لم تتمكن من الوصول اليهم لانهم تحصنوا في مواضع الوحلات التي لا يقدر ان يصل اليها سوى رجل رجل فاذا ذلك قدمه في الطريق هلك وكان الصاكر يخرسونهم برا فيخرجون لهم في الليل البشامة من طرق يعرفونها يتلصصوا عليهم ويقتلوا من قد روا على قتله ويسرقوا اموالهم ويخيلهم فيطول عليهم الامر فيرحلوا عنهم (٣)

وهكذا اخفق مروان وجنوده في القضاء على ثورة البشرديين والزامهم الهدوء وأرغمهم على اداء ما عليهم من الضرائب وقد اتهم البطرك انبا خيال بأنه حرضهم

(٤) الكندي : الولاة والقضاة ص ٨١ — المقرئ : الخطط : ج ٤ ص ٣٩٥
ابوالمحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٨١

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٩٤
المقرئ : الخطط ج ٤ ص ٣٩٥

(٢) الكندي الولاة والقضاة ص ٩٦ — المقرئ : الخطط ج ٤ ص ٣٩٥

(٣) ابن المقفع : سير الالبا البطارقة م ١ ج ١ ص ١٩١

على الثورة والصبيان فقبض عليه وألحق به قواد مروان كثيرا من ألوان التعذيب ، وأرادوا قتله ولكنهم في نهاية الامر فكروا في حيلة معهم الى البشامة ليهدي من روعهم ، وعضطهم الى السكينة والهدوء ، ويعلمهم ان كل ما أصابه يرجع الى تمردهم وعضيانهم . وعليه خرج الجند ومعهم البطرك الى البشامة . الا انهم تمكنوا من هزيمتهم ، هزيمة ساحقة ، وقتلوا اكثر جند مروان ، وطردوا الباقي . ومن ثم عجز مروان وجنده عن القضاء على انتفاغ هؤلاء القبط . وما لبث ان تمكن العباسيون من دخول مصر والقضاء على الخلافة الاموية نهائيا . فتفاهل القبط خيرا في مصر ، وخذت ثورة البشامة . (١)

وبالرغم من ذلك فالمشكلة العالية بالنسبة للقبط لم تنته بقيام الدولة العباسية وزوال حكم الامويين ، بل زادت الضوايق كانت عليه زمن الامويين . ان لم تكن ثلاث سنوات على قيام الدولة العباسية حتى ضعف الخراج على القبط . ولم يتحقق ما وعدهم العباسيون به من التخفيف عنهم في الاجاء العالية . (٢)

وسرطان ما عاد القبط الى الانتفاخ والثورة والامتناع عن أداء الخراج وفرضه من الضرائب . فثار قبط سنود في سنة ١٣٥ هـ في عهد والي ابي عون عبد الملك بن يزيد عندما ولي مصر في المرة الاولى (١٣٣ - ١٣٦ هـ) فبادر بارسال جيش لقتالهم فتمكن من هزيمتهم وقتل زعيمهم (أبو مينا) . (٣)

وثار قبط سغا في سنة ١٥٠ هـ في عهد والي مصر يزيد بن حاتم بن قبيصة ، وطردوا العمال المسلمين وانضم الى هذه الثورة جماعة البشوريين ومضوا الى الوجه البحري فبعث اليهم يزيد بن حاتم بالمساكر لقتلهم والقضاء على ثورتهم الا ان القبط في هذه المرة تمكنوا من هزيمة المسلمين وقتل كثير من امرائهم وقوادهم . (٤)

(١) نفس المصدر ص ١٩١ - ١٩٢ و ١٩٤ - ٢٠٥

(٢) ابن المقفع : سيرة الابطاء البطرك الم ١ ج ٢ ص ٢٠٥ - ابو المطسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٢٥ - ٣٢٦

(٣) القريزي : الخطط ج ٢ ص ٩١

(٤) الكندي : الولاة والقضاة ص ١١٦ - ١١٧ - القريزي : ج ٢ ص ٩٣ - ج ٤ ص ٣٩٦
ابو المطسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣

وفي سنة ١٥٦ هـ انتفض القبط على العمال العرب وكان ذلك في عهد الوالي موسى بن علي رباح اللخمي فويلهيب هـ فأرسل موسى بن علي اليهم جيشا تمكن من هزيمتهم والقضاء على تمردهم . (١) ويبدو انه قبض على نفر كثير من القبط . ويقسول ابو المحاسن (٢) انه قتل منهم جماعة وغنى عن جماعة اخرى .

واستمر الولاة المسلمون بالرغم من ذلك يخافون الخراج ويتشددون في جباية الضرائب وعليه استمر القبط من جانبهم في الانتفاض واعلان العصيان خاصة في بعض اقاليم الوجه البحري وقد شاركهم في الثورة والانتفاض العرب في مصر ففي سنة ١٧٨ هـ زاد اسحق ابن سليمان الخراج على المصريين فخرج عليه اهل الحوف فقاتلهم ولكنهم لم يتمكن من القضاء على عصيانهم نهائيا هـ فبعث الخليفة هارون الرشيد اليه هرثة بن اعين في جيش عظيم ونزل اقليم الحوف هـ فأدعن اهل له بالطاعة ودفعوا ماقرر عليهم من الخراج ثم خرج اهل الحوف مرة ثانية على الليث بن الفضل لانه بعث بمساحين لمسح الاراضي الزراعية فانقصوا من القصة اصابعا هـ فنظم الناس الى الليث الا انه لم يستحب اليهم فساروا الى القسطنطينية في سنة ١٨٦ هـ لقتاله الا انه تمكن من هزيمتهم وامتصوا عن اداء الخراج في السنة التالية مما اضطر لليث بن الفضل الى الخروج الى بغداد في المحرم سنة ١٨٧ هـ وطلب من الخليفة الرشيد ان يرسل برفقته جيشا يمكنه من جباية خراج اهل الحوف فسال مخوف بن سليم هـ الخليفة ان يوليه خراج مصر ومن له الجباية بلا حوط ولا عا هـ فعهد اليه الخليفة بذلك الا ان اهل الحوف كانوا كثيرا ما يمتنعون عن اداء الخراج المقرر (٣) وبالرغم من اننا لانجد في هذه الاحداث تحديدا للقبط هـ او سواهم ممن قاموا بالثورة فاننا نرجح انه قد شارك العرب المسلمون هـ القبط في هذا العصيان والامتناع عن اداء الخراج هـ وخاصة ان عددهم قد زاد في مصر وتوسع انتشارهم في المدن والقرى المصرية واشتغل الكثير منهم بالزراعة هـ

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ١١٩ - المقرئ : الخط ج ٢ ص ٩٣ ج ٤ ص ٣٩٦

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٥

(٣) المقرئ : الخط ج ١ ص ١٢١ - ١٣٠

كانت آخر ثورة للقبط في مصر او بمعنى آخر ، آخر مطولة لهم في المطروحة
الاجابية نتيجة تشدد بعض الولاة وضاعفة الخراج عليهم في سنة ٢١٦ هـ في عهد
الخطيفة العباسي المأمون ، وولاية عيسى بن منصور على مصر . وقد شارك المصري
القبط في هذه الثورة وتقول الرواية المصرية : " انتقضت اسفل الارض كلها عرشها
وقبطنها في جمادى الاول في سنة ٢١٦ هـ . واخرجوا العمال وخالفوا الطاعة وكان
ذلك لسوء سيرة العمال فيهم " . (١) بينما تشير الرواية القبطية الى ان الخراج ،
كان يتولى امره في ذلك الحين شخصان هما : احمد بن الاسبط والثاني : ابراهيم
بن تميم . وكانا يتصفان بالقسوة والعنف في جباية خراج مصر ، ما أزهق الناس
وجعلهم في ضيق شديد ، أدى الى الثورة وعلان العصيان . (٢)

ويبدو ان هذه الثورة كانت من اشد ثورات القبط . واغنها خاصة وانه قد
تعاون كل من القبط والحرب المسلمين فيها فصاروا قوة لا يستهان بها لدرجة بلغت
معها ان والى مصر عيسى بن منصور وجنوده لم يفجحوا في الصمود امام جموع الثائرين
حتى قدم اليهم الافشين من بركة . (٣) وتمكن من التغلب على الثائرين وبتشدد
جمعهم ثم توجه الى مذاقة الحوافل شرقى حيث تمكن من هزيمة الثائرين به ، وارسل فسي
نفس الوقت عيسى بن منصور وبعض القواد الاخرين الى مختلف الجهات بالوجه البحرى .
ثم سار الافشين الى الاسكندرية فهزم الثائرين فيها وسيطر على المدينة وتفرغ الافشين
بعده ذلك للقضاء على تمرد البشوريين وعصيانهم (اهل البشور) . (٤)

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٠ .

المقريزى : الخطط ج١ ص ١٣٠

(٢) ابن القتيق : سير الالاء البطارقة م ١ ج٢ ص ٢٧٦

(٣) ابرالمطاسن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ٢١٥-٢١٦

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٠-١٩٦ . ابرالمطاسن : النجوم الزاهرة

ج٢ ص ٢١٦ .

ويقول ابن القتيق (م ١ ج٢ ص ٢٧٦) انه لما انتهى الى المأمون حل مصر وامنحه
الثائرون بها بعث اليهم عسكريا بقيادة الافشين فقتل الذين نافقوا والخارجين عليه
في شرقى مصر الى ان وصل الاسكندرية فأراد قتل اهلها لانهم مكثوا الثائرين
من دخول المدينة .

ويبدو ان البشوريين كانوا قد قاسوا كثيرا من عذاب الخراج ما اضطرهم الى بيع اولادهم والعمل في الطواحين بدلا من الدواب فتقول الرواية القبطية : " واكثر النصارى البشوريين • كانوا يعذبون بعذاب شديد مثل بنى اسرائيل الى ان باعوا اولادهم في الخراج من كثرة المذاب لانهم كانوا يضطرون في الطواحين ويضربونهم حتى يبلحوا مثل الدواب • وكان الذي يعذبهم رجل يصوف (غيث) او (بغيت) وتماذت عليهم الايام وانتهوا الى الموت " (١)

وما لاشك فيه ان الظلم يولد الانفجار • وكان من الطبيعي — نتيجة لذلك — ان ينتفض البشوريون ويمتنعوا عن أداء الخراج المقرر عليهم • وكان من اكبر المواصل المشجعة لهم على ذلك طبيعة ارضهم • فلما نظرا هل البشوريين ان لهم موضع يخرجوا منه وموضعهم لا يقدر عسكر يسلكه لكثرة الوحل فيه وما يصوف طريقهم الا هم فبدوا بنافقون ويمتنعوا ان يدفعوا الخراج • واتفقوا وآمروا على ذلك • (٢)

ومع ان انتهى الافشين من امر الوجه البحرى واخضع مدينة الاسكندرية • ففرغ للقضاء على ثورة البشامة ولكنه عجز عن التغلب عليهم فقد استمروا في عصيانهم • وكتب الافشين بذلك الى الخليفة المأمون في بغداد • (٣) فلما علم المأمون بما وصلت

(١) ابن المقفع : سيرة الابطاح البطارقة م ١ ج ٢ ص ٢٧٦

(٢) نفس المصدر ص ٢٧٦ • وقد حزن البطرك انها يوساب لتمرد هؤلاء القوم لانهم في النهاية سوف يمجزون عن المقاومة • فكتب اليهم كتابا كثيرة يخوفهم فيها ويردعهم عما هم متعادون فيه • الا انهم لم يكونوا يحيطون بذلك اى اهتمام • ومع ذلك استمر يقاتلهم ويستشهد لهم في كتبه ببعض الاقوال المأثورة مثل : " كل من يقاوم السلطان فهو مقاوم حدود الله • والذى يقاوم يدان ويذكر ابن المقفع انه لما وصلت كتب البطرك الى البشامة وثبوا على الاساقفة ونهبوا جميع مامهم وأهانوهم كثيرا • انظر نفس المصدر ص ٢٧٧

(٣) ابن المقفع : سيرة الابطاح البطارقة م ١ ج ٢ ص ٢٧٧ — الكندي : السولة والقضاء ص ١٩١

اليه حال البشامة في مصر قدم اليها واصطحت بطرك انطاكيا انبا ديمونسيوس . (١)
ودخل المأمون مصر في المحرم سنة ٢١٧ هـ وسخط على الوالي عيسى بن منصور
وعاله وقال له : " لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك حملتهم
الناس ما لا يطيقون وكنتموني الخير حتى تفاقم الامر واضطرب البلد " . (٢)

ونحن نرجح ان المأمون اراد باصطحاب بطرك انطاكيا ان يعتمد على الاثر
الذي ينفذ على كل من بطرك انطاكيا وطررك مصر على الثائرين . فيستجيبوا له
لما لهط من مكانة وحية لدى المسيحيين ورعاية دينية عليهم . ولذا طلب المأمون من
البطركين التوجه الى هولا الثائرين لتهدئة وعهم وارضائهم . وقال لهط : " ان تضيا
الى هولا القوم وتردعهم كما يجب في ناموسكم ليرجعوا عن خلافهم . ويطلبوا امري
فان اجابوا فانا افصل منهم الخير في كل ما يطلبوه مني وان تعادي على الخلافه
فنحن برئين من دمائهم " . وتوجه البطرك ديمونسيوس والبطرك انبا يوساب الى
اهل البشود وحاولا ارشادهم ونصحهم حتى يتخلوا عن هيبائهم ويضعوا حدا لتمردهم
ولكن بدون جدوى فقد اصر البشوريون على موقفهم من الحكومة الاسلامية . (٣)

فلما ادرك المأمون اصرار البشوريين على الثورة ارسل الافشين على رأس الجيش
لقتالهم ولكنه اخفق لحصانة موضعهم . فخرج المأمون لقتالهم وحشد معه جميع من
يعرف طريقهم من اهل المدن والقرى المجاور وترك كل قوته ضد هم حتى اضطروا
الى التسليم فاعل الجند فيهم السيف واخربوا مساكنهم ونهبوها . واشعلوا فيها
النار . وهدموا كنائسهم . (٤)

ويقول المقرئ : (٥) " فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والذرية . فبيموا
وسبي اكرهم . ومن حينئذ ذلت القبط في جميع ارض مصر ولم يقدر احد منهم بمعد

(١) ابن المقفع : سيرة ابا البطاركة م ١ ج ٢ ص ٢٧٨ . وميخائيل يعنى البشوريين

Biamayé أنظر Chronique de Michel le Syrien, T.3/, fasc.1, P.67

(٢) الكندي : الولا والقضاء ص ١٩٢

(٣) ابن المقفع : سيرة ابا البطاركة م ١ ج ٢ ص ٢٧٩ Chronique de Michel le Syrien, T.3, fasc.1, PP.77-78

(٤) ابن المقفع : سيرة ابا البطاركة م ١ ج ٢ ص ٢٧٩

(٥) الخطاط ج ٤ ص ٣٩٦

ذلك على الخروج على السلطان وطلبهم المسلمون على عامة القرى ، فرجموا
من المطاردة الى المكيدة ، واستعمال المكر والحيلة ، ومكيدة المسلمين ، وعملوا
كتاب الخراج

وقد لمنا هذه دراستنا لدور اهل الذمة في الحياة السياسية كيف كان الولاة
والخلفاء يتوسعون في استخدامهم في دواوين الخراج وما يتصل بها من الاعمال .
وخاصة في العصر الفاطمي . كما لاحظنا ان كثيرا من القبط كان عندما يصل
الى المناصب المرتفعة يمتد الى خدمة اخوانهم القبط واستخدامهم واخلاقهم محل
الموظفين المسلمين .

ويمكننا ان نقول بحد ذلك ان الجزية والخراج وغيرهما من الضرائب المفروضة
على اهل الذمة كانت من اهم موارد الحكومة العربية في مصر . وكان اول من جبا
خراج مصر وجزيتها عمرو بن العاص وذلك في عهد الخليفة عشرين الخطاب . وبلغ مقدار
ما جباها عمرو بن العاص اثنا عشر مليون دينار . (١) وشهر القريزي (٢) الى ان هذا
المبلغ جباها عمرو بن العاص من جزية الرؤس فقط دون الخراج . ولعل البلاذري (٣)
كان يقصد بمبارته " جبا عمرو خراج مصر وجزيتها الف الفى . ما جباها عمرو بن العاص
من الخراج وهو اثنا عشر مليون دينار .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢١٥
ابن زولاقي : فضائل عمرو بن ورقانة ٢٩ . ابن حوقل : صورة الارض ص ١٢٩ .
بينما يذكر الهمقوس (البلدان ص ٣٣٩) ان عمرو جباها في اول سنة اربعة عشر
مليون دينار ثم في السنة التالية اثنا عشر مليون دينار . وكان نصيب الاسكندرية
من هذا المبلغ ثمانية عشر الف دينار . انظر البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٥
ويقول ابو صالح الارمني ص ١٠٢٩ ان هذه الجزية التي جباها عمرو بن العاص
من مصر والتي حطت الى دار الخلافة كانت من القبط فقط دون اليهود بمصر
واعمالها . والواقع ان هذا المبلغ الذي بحث بن عمرو الى المدينة كان بمصر
حسرا ما يحتاج اليه من النفقات المطية اذ كان يلزم مصر لحفر الخلدان واقامة
الجيوش وبناء القناطر من المال حوالي مائة وعشرين رجلا وغير ذلك من وجوه
الاتفاق . انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٤

(٢) الخطط ج ١ ص ١٥٩

(٣) فتوح البلدان ص ٢١٢

وكان الخلفاء يبدون اهتماما عظيما بجباية مصر وقد ظهر ذلك بوضوح منذ السنوات الاولى للمغرب في مصر . ويدلنا على ذلك الكتابات المتبادلة بين الخليفة عربين الخطاب وواليه في مصر عمرو بن العاص . ويجدر بنا الاشارة الى نص ما جاء في بعض هذه المكاتبات والواضح منها ان عربين الخطاب استبطا عمرو بن العاص في ارسال الخراج فكسب يستحمله ويبيحه على تأخره . فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد ، فاني فكرت في امرك والذي انت عليه ، فاذا ارضك ارض واسعة عريضة رفيعة قد اعطى الله اهلها عددا وجلدا وقوة في بر وبحر وانها قد عالجها الفراغة علوا فيها عملا محكما مع شدة عهدهم وكفرهم فصجبت من ذلك واعجب مما عجبت انها لا تؤدى نصف ما كانت تؤدى من الخراج قبل ذلك على غير قحوط . ولا جدوب . ولقد اكرت في مكاتبتك في الذي على ارضك من الخراج . وظننت ان ذلك سيأتينا على غير نزر . ورجوت ان تفهق فترفع الى ذلك ، فاذا انت تأتيني بمصاريفتفتالها . لا توافق الذي في نفسي ولست قابلا منك دون الذي كانت تؤخذ به قبل ذلك من الخراج ولست ادري بعد ذلك ، ما الذي انفرك من كتابي وقهضك فلئن كنت مجزئا كافئا صحبا ان البراءة لنافعة من ان كنت مضيقا نطقا . (١) ان الامر لم يلى غير ما تحدثت به نفسك وقد تركت ان ابتلى ذلك منك في العام الماضي رجاء ان تفهق فترفع لى ذلك . وقد علمت انه لم ينعك من ذلك الا هالك حال السوء . وما توالى عليه . وطفف اتخذوك كهفا وعصى باذن الله دواء فيه شفاء عما اسألك عنه فلا تجزع ابا عبد الله ان يؤخذ منك الحق فتمطاه فان النهز (٢) يخرج الدر . والحق ابلغ ودعنى وما عه تلجلج فانه قد بهج الخفاء والسلام . (٣)

(١) نطف الرجل — اذا اتهم برية .

(٢) نهز الناقة : اى ضرب ضرثها لتدر .

(٣) ابن عبد الحكم : فتح مصر والمغرب ص ٢١٣-٢١٤ . وقد تأثر عمرو بن العاص بما جاء في هذا الكتاب وكتب الى الخليفة عمر يلومه " بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمرا امير المؤمنين من عمرو بن العاص سئتم عليكم فاني احمد الله الذي لا اله الا هو ، اما بعد ، فقد بلغنى كتاب امير المؤمنين في الذي استبطانى فيه من الخراج والذي ذكر فيه من عمل القراة قبلى واعطبك من شراجه عيسى ايدهم ونقد ذلك منها منذ كان الاسلام . ولمصرى للخراج يومئذ اوفر . واكثر . والاربعاء عصر لانهم كانوا على كفرهم وعهدهم ارض في عارة ارضهم منا منذ كان الاسلام وذكرت ان النهز يخرج الدر فحطبها حطباً قطع ذلك درهما واكثر في كتابك وانبت وعرضت وشرحت وعلمت ان ذلك عن شىء تخفيه على غير خبر . فحجنت لعمريها المقطعات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صام بليغ صادق وقد عملنا لرسول الله ولعن بعدة قبلنا بحمد الله مؤدين لا مانعنا

ثم كتب عمرو بن الخطاب الى عمرو بن العاص ثانية وقد جاء في كتابه هذا :
 " من عمرو بن الخطاب سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو . اما بعد ،
 فقد عجبت من كثرة كتبي اليك في ابطالك بالخراج وكتابك الى بينات الطريق . وقد علمت
 اني لست ارضى فعلا الا بالحق العيين ولم اقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك
 ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحصن سياستك فاذا اتاك كتابي هذا ،
 فأحمل الخراج فانما هو في المسلمين وغدي من تعلم ، قوم محصورون والسلام . (١)

وبعد عهد عمرو بن العاص زادت جباية مصر فقد بلغ خراج مصر في ولاية عبد الله
 ابن سعد بن ابي سرح اربعة عشر مليون دينار فاستحسن الخليفة همان بن عثان ذلك
 منه واستحضر الوالي السابق ، عمرو بن العاص ، واطمه مقدار ما جاءه عبد الله بن سعد ،
 وقال له : " يا ابا عبد الله درت اللقطة باكثر من درها الاول . فاجابه عمرو : انصروتم
 بولدها " . (٢) ونفهم من هذا الحديث كيف كان الخليفة شديد الاهتمام بجباية مصر ،

ويصدق فيه قائلنا معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجزاء على كل مأثم
 فاقبض عليك فان الله قد نزهني من تلك الطاعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك
 الذي لم تستبق فيه عرضا ولم تكرم فيه اخا ، والله بابن الخطاب لانا حين يراد
 ذلك مني اشد لنفسي غصبا . ولها انزاهها واكواما . وما علمت من عمل ارى على فيه
 متعلقا ولكني حفظت ما لم تحفظ ولو كنت من يهود يثرب ما زدت . يفر الله لك
 ولنا وسكت عن اشياء كتبت بها علما وكان اللسان بها مني ذلولا ولكن الله عظم
 من حقك ما لا يجهل . والسلام " انظر نفس المصدر ص ٢١٤-٢١٥

(١) نفس المصدر ص ٢١٥ . وقد رد عمرو بن العاص على هذا الكتاب موضحا سبب
 تأخره فسمى ارسال الخراج . فكتب " بسم الله الرحمن الرحيم لعمرو بن الخطاب
 من عمرو بن العاص . سلام عليك . فاني احمد الله اليك لا اله الا هو ، اما
 بعد فقد اتاني كتاب امير المؤمنين يستبطنني في الخراج ويؤزم اني اعند على الحق
 وانك على الطريق وانى والله ما ارجب عن صالح ما تعلم ولكن اهل الارض استنظروني
 الى ان تدرك ظنتهم فنظرت للمسلمين فكان الفرق بينهم خيرا من ان يحرق فيصيروا
 الى بيع ما لا فني بهم عنه . ويضيف هذا الموضع الى ذلك ان عمرو بن الخطاب
 قد سأل بمصر القيد عن خراج مصر وشأنه قبل الاسلام فأجابه بما جعله الخليفة
 يقبل اعتذار عمرو بن العاص عن تأخره في ارسال خراج مصر . انظر نفس المصدر
 ص ٢١٥-٢١٦

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢١٦ - البلاقري : فتوح البلدان ص ٢١٧
 ابن زولاقي : فضائل مصر ورقة ٢٩ - وصغير ابن زولاقي الى ان هذه الزيادة
 في ولاية عبد الله ومصدرها انه زاد في الخراج المرسل الى الخليفة بينما انقص
 المؤن والنفقات المحلية .

ويحرص من جانبه على زيادته • ولكن الواقع ان خراج مصر قد نقص بحد ذلك ولم يسم
يصل طوال هذا العصر الذي ندرسه الى ما كان عليه في ايامه كل من عمرو بن العاص
وعبد الله بن سعد بن ابي سرح •

تشير بعض المصادر التاريخية الى ان نجاية مصر في عهد الخليفة معاوية بن ابي سفيان
كانت خمسة مليون دينار (١) • وانه ارسل منها الى الخليفة معاوية بن ابي سفيان •
ستمائة الف بعد ان ادى الى اهل الديوان اعطياتهم وازاقهم وأداء رواتب الكتاب
وغير ذلك من المصروفات كما ارسل ايضا القمح الى المدينة (٢)

ويرجع هذا النقص في خراج مصر الى عدة اسباب • اولها : تحول كثير من اهل
الذمة الى الاسلام — يتعاقب السنين — وبالتالي اغاثهم من كثير من الالتزامات العادية
التي كان يؤديها الذي وخاصة الجزية • مما كان يؤثر في خراج مصر ويراوداتها
المالية • اما العامل الثاني فهو ان ولاية مصر في العصرين الاموي والمباسي كانت
كل ههم جمع ما يمكن جمعه من الاموال لارضاء الخليفة من ناحية وادخار ما يمكن ادخاره
لانفسهم من ناحية اخرى • لقصر فترات توليهم الحكم فلم يحسنوا بمعايرة الاراضى • وما تتطلبه
من اصلاح الجسور وحفر الترع والقنوات واقامة السدود • وغير ذلك من وجوه الاصلاح
والتعمير • اما العامل الثالث فهو ما كانت تتمرض له البلاد من فتن وثورات داخلية
او حروب خارجية • تتطلب كثيرا من النفقات كما انها كانت تشغل الناس عن الاهتمام
بأراضيهم واعمالهم • ومن ثم ينقص الدخل ويتمذر على المصريين أداء ما عليهم من الاعمال
المالية •

ويقول القريزى (٣) بشأن تناقص خراج مصر ويراودها " وانحط خراج مصر •
بعد هذا — أى بعد عهد كل من عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد — لنمو الفساد
مع الزمان وسريان الخراب في اكثر الاراضى ووقوع الحروب فلم يجبها بنى امية وخلفاء بنى المباس
الا دون الثلاث ألاف وما خلا ايام هشام بن عبد الملك فانه وصى عبيد الله بن الجحاب
عامل مصر بالعمارة • • ذلك ان عبيد الله امر عامله بعصج الاراضى المصرية لتحديد مساحة
الاراضى العامة الصالحة للزراعة من الاراضى الفائرة او بمعنى آخر البور • وما ترويه
مياه النيل من هذه الاراضى • كما انه اصالح كثير من الاراضى وعمل على تقويمها وتمكن

(١) اليمقوس : البلدان ص ٣٣٩ ويشير الى ان هذا المبلغ كان من خراج الارض والجزية •

(٢) القريزى : الخطوط ج ١ ص ١٢٧

(٣) الخط ج ١ ص ١٥٩

نتيجة لهذه الحماة من جباية خراج مصر أربعة ملايين دينار* (١)

ونلاحظ نقص خراج مصر كثيرا في نهاية العصر الاموي ، فقد بلغ ما أرسله والى مصر الى دمشق في عهد الخليفة الاموي مروان بن محمد بمعد خصم النفقات والمطالبات الداخلية مائتي ألف دينار* (٢)

وبلغ خراج مصر في خلافة المهدي العباسي في سنة ١٦٢ هـ حوالي مليون وثمانمائة وثمان وعشرين ألف وخمسمائة دينار* (٣) ثم زاد في خلافة هارون الرشيد وولاية موسى ابن عيسى فبلغ مليونين ومائة وثمانين ألف دينار* (٤) وما لاشك فيه ان هذه المبالغ كانت تحمل الى بغداد بمعد استقداح ما تتطلبه النفقات المحلية فكان مجموع ما جباها موسى بن عيسى من الجزية والخراج أربعة مليون دينار* وقد استمر خراج مصر بمعد ذلك ثلاثة ملايين دينار* (٥) وان كانت بعض المصادر تشير الى ان خراج مصر بلغ في عهد الخليفة المأمون أربعة مليون ومائتين وسبعة وخمسون ألف دينار* (٦)

(١) المقرئى : الخطاط ج١ ص ١٥٩ وتشير بعض المصادر الاخرى الى ان جباية مصر في ولاية ابن الجبب كانت مليونين وسبعمائة ألف وثمان مائة وسبعة وثلاثين دينار (٣٧٠٠٠٠٢٧) دينار* وما لاشك فيه ان هذه المصادر تقصد بهذا المبلغ ما أرسله ابن الجبب الى دمشق بمعد اعطاء الرواتب والنفقات المختلفة على المرافق والعمارة* انظر : ابن رسته : الاغلق النفيسة ص ١١٨
ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٨٣-٨٤ ويشير البلاذرى الى ان نصيب الاسكندرية من هذا المبلغ كان حوالى ٦٣٠ ألف دينار* انظر فتوح البلدان ص ٢٥٥

(٢) تاريخ ابو صالح الارمنى ص ٢٥

(٣) نفس المصدر ص ٣١

(٤) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٧٦ ابن رسته : الاغلق النفيسة ص ١١٨

(٥) البيهقى : البلدان ص ٣٣٩

(٦) المقرئى : الخطاط ج١ ص ١٣٠ وفي مصر المأمون كان اهل تنيس يلزم كل واحد من اهل الذمة بدفع خمسة دنانير جزية دون فرق بين غنى وفقير* فجعل امير مصر عبد الله بن طاهر الجزية مستويات ثلاث تتناسب وحالة كل ذى من الفنى والفقير*
انظر : Chronique de Michel, T.3, Fasc.1, P.64 et Quatremere: Memoires Geographiques et Historiques..., T.T., P. 221.

وفي عهد الامراء الطولونيين ، زاد خراج مصر عما كان عليه قبل ذلك العصر ، وترجع هذه الزيادة الى اهتمام الامراء بمساحة الارض وتحسين المحصول . فقد تعلم احمد ابن طولون اراضى مصر من احمد بن محمد بن مديبر وقد اصابها الخراب ونقص خراجها كثيرا . فاهتم ابن طولون بتعميرها حتى بلغ خراج مصر اربعة ملايين وثلاثمائة الف دينار ونقصت جباية مصر عن هذا القدر قليلا في ايام ابنته خمارويه فجبى اربعة ملايين دينار^(١)

اما في عهد الامراء الاخشيديين فقد نقص خراج مصر عن ذلك كثيرا وبلغ فى عهد كافور الاخشيدى ثلاثة ملايين ومائتين وسبعين الف دينار . وكان هذا المبلغ اقل كثيرا من الاموال المطلوبة للنفقات المحلية .^(٢) وقد ساهمت الفيوم وحدها فى جملة هذا الخراج بستمائة وعشرين الف دينار .^(٣) وساهمت فيه الاديرة وحدها (فى كورة الفيوم) بحوالى خمسمائة دينار . وكان عدد الاديرة المؤدية لهذا الخراج عن اراضيها خمسة وثلاثون ديورا .^(٤) بينما زاد الخراج عن ذلك قليلا عندما تم للفاطميين فتح مصر ، فجباها قائدهم جوهر الصقل فى سنة ٣٥٨ هـ ثلاثة ملايين واربعمائة الف دينار . وربما كانت هذه الزيادة واجمة الى زيادتهم الضريبة النقدية على الفدان اذ انه فى هذا العام جباها جوهر سبعة دنائير عن الفدان الواحد . بينما كان المصريون يؤدون قبل ذلك عن الفدان ثلاثة دنائير ونصف وربما زاد او نقص عن ذلك قليلا .^(٥)

- (١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ١٥٩
(٢) ابن المقفع : سير الالباء البطارقة م ٢ ج ٣ ص ٢٢٤ — تاريخ ابو صالح ص ٣٩ — ٣١
(٣) تاريخ ابو صالح ص ٢٤
(٤) نفس المصدر ص ٢٤ — والواضح من الروايات التاريخية ان خراج هذا الاديرة لم يتغير فى ذلك العصر عما كان عليه فى عصر الولاة الامويين . اذ كان خراج هذه الاديرة فى خلافة هشام بن عبد الملك وولاية ابو القاسم بن عبد الله نفس المبلغ (خمسمائة دينار) — انظر : ابن المقفع : سير الالباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٦٣ .
(٥) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٥٢ — المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٢٠ . بينما كانت الجزية اربعة دنائير وسدس للموسرين بينما يدفع المتوسط الحلال . دينارين وقيراطين ومن دون ذلك دينار وثلاث وربع وجبتين ويضاف الى كل طبقة درهمين وربع للموظفين القائمين بالتحصيل وهذه المستويات الثلاثة منذ خلافة الحافظ ووزارة رضوان بن ولخشى ويبدو انها استمرت كذلك حتى عهد الايوبيين . انظر ابن المقفع : سير الالباء م ٣ ج ١ ص ٣١٠ . ابن مائى : قوانين الدواوين ص ٣١٨ — ٣١٩ . حصر ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٩٠

نستخلص من دراستنا هذه وجود عديد من الضرائب التي يلتزم بها الذي فسى
 مصر الاسلامية فتجد الى جانب الجزية والخراج ضرائب لتغطية الاحتياجات الرسمية والاعباء
 الغير اعتياد يقوضها الصلحون وازقاتهم وكسوتهم وضرائب لتغطية نفقات الموظفين المحليين
 وضرائب على التجارة الداخلية والخارجية وتسمى المكوس • وكان يقوم بتقدير هذه الضرائب
 اشخاص معينون من القوية نفسها او الكورة • ويكتبون بذلك سجلات • ترسل الى ديوان
 الخراج الرئيسى فى العاصمة المصرية بناء على تعليمات واردة منه قبل القيام بهذا
 التقدير • ثم يمد ذلك يرسل الى الخراج أمر طلب بجباية الضرائب المقررة لكـ
 قرية او قسم من الكورة • فيقوم موظفوا ديوان الخراج المحلى بجبايتها وعمل قوائم
 باسماء الافراد ومقدار ما دفعه كل منهم •

ونلاحظ انه لم يكن هناك حصة معينة من الضرائب النقدية او العينية تلتزم بها
 كل قرية أو كورة وانما كان اساس الضرائب فى مصر آنذاك الفرد • وعليه كان مقدار الضرائب
 يختلف من مكان الى آخر حسب عدد السكان وحالتهم وساحة الاراضى المزروعة • وكان
 يعفى من الجزية بعض الفئات من اهل الذمة وهم : النساء والاطفال والشيخوخة والفقراء
 والماجزين والرهبان وان كان هؤلاء الرهبان قد ألزموا فى بعض الفترات المحدودة
 بأداء الجزية كما انه كان يعفى من الجزية دون الخراج كل من يعتنق الاسلام
 من اهل الذمة وان كان كثير من الولاة قد حرصوا ان يدفعها الذى الذى اسلم
 حتى لا يضر ذلك ديوان الخراج ومالية البلاد •

وقد افادتنا كثيرا من أوراق البردى اليونانية والمصرية فى توضيح نظام الضرائب
 المفروضة على اهل الذمة ومقدارها • وكيفية جبايتها • وان كان اكثر هذه البرديات
 خاص بالقرن الاول الهجرى • أو بمعنى آخر بمصر الى قرون شريك بمفقه خاصة •
 كما نلاحظ ان ما جاء فى أوراق البردى من معلومات يتفق كثيرا مع ما جاء فى المصادر
 الفقهية والتاريخية •

ونستخلص ايضا من دراستنا للضرائب المفروضة على اهل الذمة فى مصر
 وانرها فى العواهد المالية للبلاد وان اهم هذه الضرائب كانت الجزية والخراج كما
 ان اهل الذمة قد قبلوا اداءها فى بداية الامر وسلموا بها دون مقاومة او مطالبة

للاعتناع عن ادائها • ولكنهم امام زيادة الاعباء المالية المتوالية عليهم عمدوا الى المقاومة المسلحة في بداية الامر والهروب من منطقة الى اخرى مستغلين من دفع الضرائب المقررة • الا ان ولاية مصر فطنوا لذلك وطولوا جاهد بين وضع حد لحركة الاثمين والقضاء عليها ثم بدأ القبط منذ سنة ١٠٧ هـ المقاومة العلنية الدامية ضد عمال الخراج وجباة الضرائب • الا ان ثورات القبط التي استمرت اكثر من قرون من الزمن كانت سرعان ما يقضى عليها • وكانت آخر ثورة لهم في سنة ٢١٦ هـ • وبعد القضاء عليها سنة ٢١٧ هـ لم يبق احد القبط يقومون بلأى محاولة للانتفاض والثورة واصبح الذميون اقلية في مصر فعمدوا الى وسائل المكر والدهاء • ولجأ امراء مصر وخلفائها الى استخدام الذميين في دسوان الخراج وغيره من الاعمال فصاروا يعدون ما عليهم من الجزية والخراج وغيرها من الضرائب كما تطلب منهم طوال تاريخ مصر الاسلامية حتى نهاية العصر الممناطى •

الباب الثاني

مظاهر التمريب

وأثاره في الحياة الفكرية

- ١- تمريب الدواوين وأثره في انتشار اللغة العربية في مصر
 - ٢- أثر التمريب في قيام المدرسة العلمية الإسلامية
 - ٣- دور الذميين المصريين في الحياة الفكرية المصرية
 - ٤- دور الصحابة والتابعين والقضاة في التمريب في النهضة الفكرية
 - ٥- دور الموالى في النهضة العلمية
 - ٦- أثر التمريب في ظهور الفكر الصوفي ودوره في الحياتين السياسية والاجتماعية في مصر
 - ٧- دور التمريب في نهضة الدراسات اللغوية والنحوية
 - ٨- ديوان الرسائل ودوره في تدعيم التمريب في مصر الإسلامية
-

١- تعريب الدواوين وأثره في انتشار اللغة العربية

ففى

كانت مصر إحدى الأمم القليلة التي تخلت نهائياً عن ماضيها الوطني ، وعن لغتها القديمة ، وروت بنفسها في أحضان الإسلام والمدينة الإسلامية * ، واخذت تندمج في مجموعة الشعوب العربية . (١)

يقول اسراييل ولفنسون " ان أول عهد العصرية باللغة العربيين يبدأ من ذلك اليوم الذي تم فيه لمعروا بن العاص فتحها . فلما تم للمعرب فتح مصر ، بدأت اللغة العربية تنتشر ولكن بصعوبة وبطء " . (٢) إذ لم يكن من الطبيعي ان تظل لغة العرب وثقافتهم بناءً على أهل البلاد ، بعد ان ساد العرب البلاد حريباً وسياسياً . وبعد الفتح العربي كانت اللغة العربية في أول الامر في حيز محدود في مصر يتكلمها العرب ومن جاورهم من المصريين الذين اضطروا بحكم الجوار ان يختلطوا بالفاتحين وان يمعروا لغتهم وكان لهذا الاختلاط بين الطرفين طرقاً متعددة ، ومن ذلك انه بالرغم من اختطاط الجند العربي بالفسطاط الا ان هؤلاء لم يقيموا بصفة دائمة فيه ، فكانوا يتحركون في البلاد ويخرجون الى الريف في كل ربيع . تقول الرواية التاريخية (. . .) كان عمرو بن العاص يقول للناس اذا قفلوا من غزوهم : انه قد حضر الربيع فمن احب منكم ان يخرج بفرويه بريحة فليفعل ، وفي موضع اخر كان عمرو بن العاص يخطب في الناس قائلاً : يا معشر الناس انه قد تدلت الجزاء ، واذكت الشمرى وأقلعت الساء وأرفع الوباء . وقل الندى وطاب المرعى . فحس لكم على بركة الله الى ربكم فقالوا من خيروه ولبنه وخرافه . . . واستوصوا بمسا جاورتهم من القبط خيراً . . . (٣) ولم يقف الامر عند هذا فتحة عامل آخر ادى الى تقارب العرب بالمصريين وهو ما فرضته شروط الصلح بين عمرو بن العاص وحاكم

(١) زكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ٢٤ - د . سيدة كاشف :

مصر في فجو الاسلام ص ٢٣٢

(٢) اسراييل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٢٢

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها (طبعة تورى) - ابو الحسن :

النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧٣

مصر • فقد اشتط واجب الضيافة على اهل البلاد للجند المسلمين الذين
يمرون فى البلاد (وهو ان للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا • ومن نزل
عنه ضيف واحد من المسلمين أو اكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة ايام مفترضة
عليهم) (١) ولا شك ان هذا الاختلاط قد اتاح للطرفين تبادل الافكار واللغات
ويبدو ان بعض المصريين كانوا قد اتقنوا اللغة العربية وتشير بعض المصادر الى
ان " اول نقل فى الاسلام من لغة الى لغة هو نقل كتب الصنعة من اللسان اليونانى
والقبطى الى العربى لخالد بن يزيد بن معاوية على يد جماعة من فلاسفة اليونانيين
من كان ينزل مدينة مصر وتفقّه بالعربية " (٢) • على ان ارضاعات حركة
التعرف بمصر بدأت فى عهد الوالى الاموى عبدالعزيز بن مروان (٦٥ : ٨٦ هـ)
ذلك " انه اراد ان يتعرف حقيقة العلاقات التى كانت بين بطركية مصر وبين
الجبشة والنوبة على اثر ما كتبه البطرك الى ملكى الجبشة والنوبة ليزيل سوء التفاهم
الذى كان بينهما لان قوما من اهل السمايات وشوا بالبطرك لدى عبدالعزیز
حتى ساء ظنه به " (٣) ويذكر ساويرس ابن الخفج " ان الاصحاح بن عبدالعزيز
بن مروان كان يولى كثيرا من امور مصر فى ولاية ابيه وكان يعصب شعابا اسمها
بنيامين كثيرا لما كان يظلمه على اسرار النصارى حتى انه نزع له الانجيل باللغة
العربية " (٤) وعدة كتب دينية اخرى • وذلك ليعرف المسلمون اذا كان
فى هذه الكتب ما يمس الدين الاسلامى بمصر " (٥)

-
- (١) ابن عبد الحكم : السابق ص ٢٠ - القيرى : الخطط ج ١ ص ٢٩٢ -
السيوطى : حسن المطهرة ج ١ ص ٥١
(٢) ابن القيم : الفهرست ص ٥١١ - ٥١٢
(٣) ساويرس : سيرة الابرار البطرك م ١ ج ٢ ص ١٤٣ - سيدة كاشف :
مصر فى فجر الاسلام ص ١٢٨
(٤) ساويرس : السابق م ١ ج ٢ ص ١٤٣ - عز تشو : تاريخ الامم القبطية
ج ٢ ص ١٦٧ - سيدة كاشف : السابق ص ١٢٨
(٥) ساويرس : السابق ج ٢ ص ١٤٣

ولكن الترجمة ملبن القبطية الى العربية كانت تهدف الى التعرف على ثقافة المصريين وحضارتهم وطرق تفكيرهم * (١) كما كان ما قام به الاصبح من ترجمة هذه الكتب مقدمة لسيادة اللغة العربية وجعلها لغة رسمية في البلاد فعملا بمبدأت في خلافة عبد الملك بن مروان حركة التنظيم والتعديل * وعلى حد تعبير المؤرخين العرب * فعمد عبد الملك الى صيغ الدولة بصيغة عربية * الى الاعتماد على الموظفين من العرب او الذين يتقنون العربية من اهل البلاد المفتوحة وكما امر عبد الملك في سنة ٦٧ هـ بضرب نقود عربية بدلا من النقود الفارسية والبيزنطية التي كان يتداولها الناس حتى زمنه نراه يتجه الى تمريب لخط الادارة والحسابات وكانت الدواوين تكتب بلغات البلاد المحلية * وكان كل اعتماد العرب على اهل البلاد المفتوحة * او على السوم الذين بقوا في مصر والشام فكانت الدواوين يحصر تكتب باليونانية والقبطية * (٢) فقد كانت الحكومة تستخدم اللغة اليونانية بينما كانت السلطات المحلية في الريف تكتب كثيرا بالقبطية * (٣) وهكذا لم تكن الدواوين تكتب بالقبطية فقط كما يذكر بعض المؤرخون القدامى * (٤) فهناك اوراق بردي ذات صيغة رسمية ويرجع تاريخها الى عهد الوليد نفسه * دونت باللغتين اليونانية والعربية معا * منها بردية يرجع تاريخها الى سنة ٨٦ ق تتضمن مرسوما صادرا من والي مصر عبد الله بن عبد الملك * (٥) وكانت عملية تمريب الدواوين عملية طويلة بدأها عبد الملك بن مروان وسار الوليد بن عبد الملك على سياسة ابيه * ففي عهد الوليد نقلت دواوين المواق الى العربية * (٦) كما

(١) سيدة كاشف : تمريف مجمع الاسكندرية — قال بمجلة كلية الاداب — جامعة الاسكندرية ١٩٧٣ م ص ١٩٧ * سيدة كاشف : عبد الميز بن مسروان ص ١٤٣

(٢) سيدة كاشف : الوليد بن عبد الملك ص ١٨٤ — ١٨٨

(٣) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٣٠٥ وما ذكرته من الوثائق البردية *

(٤) الكندي : الولاة والقضاة ص ٨٠ — ٥٩ — القرينى : الخط ج ١ ص ٩٨

ابو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٠

(٥) جروهمان : اوراق البردي العربية ج ١ ص ٢٥ — ٢٦

(٦) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ٣٨ — القرينى : الخط ج ١ ص ٩٨

استعملت العربية في دواوين الشام سنة ٨١ هـ (١) وفي مصر نرى الوليد بن عبد الملك يأمر والده على مصر عبد الله بن عبد الملك (٨٧ هـ / ٧٠٦ م) بتدوين الدواوين باللغة العربية (٢)

وقد كان الدافع القوي وراء تمريب الدواوين وهو توسع خبرة العرب واستقرار الدولة وتطورها ، وازدياد خبرة العرب بفنون الكتابة وتلكيد سياسة الدولة العربية وسيادة اللغة العربية التي سار عليها بنو أمية . يقول ابن خلدون (٠٠٠٠) لما كانت خلافة عبد الملك بن مروان استحال الامر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداة التي رونق الحضارة ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة وظهر في العرب ومواليهم مهرة فسي الكتابة والحساب فأمر عبد الملك سليمان بن سعد والي الاردن لعهد ان ينقل دواوين الشام الى العربية فأكمله لسنة ٠٠٠٠٠ ووقف عليه بما سرجويه كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم أطلبوا المشفى في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله بحكم (٠٠٠) (٣)

وقد أدت عملية تمريب الدواوين في مصر الى نقل كثير من المصطلحات اليونانية والقبطية الى العربية ومن ثم صار للمصوب السيادة اللغوية الى جانب السيادة السياسية والحربية . وبدأت تنتشر اللغة العربية في جميع المدن والقرى المصرية وأصبحت لغة الادارة والحكم وبالتدريج صارت بعد ذلك لغة الثقافة ولغة التخاطب ، فضلا عن انها لغة السياسة والدين (٤) . والملاحظ ان تمريب الدواوين لم يقض

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٠١ - ابن خلدون : المقدمة - الفصل الرابع والثلاثون ص ٢٤٤

(٢) الكندي : الولاة والقضاء ص ٥٨ - ٥٩ - العنبري : الخطط ج ١ ص ٩٨
أبو المطسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٠ - سيدة كاشف : الوليد بن عبد الملك ص ١٨٦

(٣) ابن خلدون : المقدمة - الفصل الرابع والثلاثون ص ٢٤٣ - ٢٤٤

(٤) سيدة كاشف : عبد العزيز بن مروان ص ١٤٥ - الوليد بن عبد الملك ص ١٨٤

نهايا على استخدام اليونانية في كتابة الوثائق الرسمية. فكان من الضروري ان يكون هناك فترة انتقال يتم بعدها توقف استخدام اللغة اليونانية في الاعمال الرسمية. فقد استمرت اللغة اليونانية تدون بها الوثائق الى جانب العربية ويوجد ذلك بمسند الوثائق المكتوبة بين سنتي ٨٦ هـ - ٩٦٠ هـ (١) . وهناك بردية مؤرخة سنة ١٣٧ هـ - ١٤٠ هـ (٢٥٤/٢٥٧ م) تتضمن تظلم بعض القوي المصرية من عمال الضرائب - كتبت باللغات الثلاث : القبطية واليونانية والعربية (٢) وتشير اوراق البردي المصرية الى ان اللغة القبطية كانت تستخدم في كتابة بعض الوثائق في مصر الاسلامية وكانت تسمى في العربية الثالثة بمد اللغتين العربية واليونانية (٣)

على ان اهم عوامل تمزيب مصر هو نزول القبائل العربية في الريف المصري واستقرارها على جانب المدينتين الخصبين بواي النيل وفي الدلتا مما أدى الى اختلاطهم بالاقباط اختلاطا كبيرا ومن ثم الى انتشار اللغة العربية في مصر والى تمزيب البلاد (٤) ذلك لا ينافي الريف المصري جامع الشعب كله.

وكان أغلب الولاء الذين غلبوا مصر يحسون منهم بغيرها عربية حتى نهايتهم العصر الاموي او عربية ومن شعوب اخرى غير العرب كالأخريانيين والأتراك في العصر المباسي . او ييمت بهم الخلفاء لتميز الجند واستيطان البلاد (٥) . وكانت نتيجة ذلك ازدياد اعداد القبائل العربية في مصر وما يدل على ذلك اعادة تدوين الديوان ثلاث مرات في فترات متقاربة منذ ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر ٤٣ هـ حتى

(١) جروهمان : اوراق البردي المصرية ج١ طراز ٦ ص ١١ - طراز ٦١ ص ١٣ هـ طراز ٦٢ ص ١٤ هـ طراز ٦١ ص ٢٠

(٢) جروهمان : اوراق البردي المصرية ج٣ ص ٦٢ : ٧٠

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج١ ص ٤٥١ - ٤٥٢
جروهمان : اوراق البردي المصرية ج١ الطراز رقم ٤ ص ٤١ - الطراز رقم ٦١ ص ١٣ - الطراز رقم ٦ ص ١١

(٤) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢

(٥) المرجع السابق ص ٢٢١ - ٢٢٢

عهد بشر بن صفوان سنة ١٠٢ هـ * (١)

وفي خلافة هشام بن عبد الله بن عبد الملك حدث تطور في تاريخ القبائل العربية في مصر * ذلك ان عبد الله بن الجبظ عامل خراج مصر وقد على الخليفة * في سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م * وسأله ان ينقل الى مريوطا من قيس أو عرب الشمال وكانسبوا أقلية بها فأذن له الخليفة بترحيل ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر على ألا ينزلهم بالقسطاط * فقدم بهم ابن الجبظ وأنزلهم الحوف الشرقي وفوقهم فيسه وحين توفي هشام بن عبد الملك ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م كان ببليبس ألف وخمسة أة أهل بيت من قيس * (٢)

وقد تخلى العرب عن سياسة الترفع عن الاختلاط بالاهالي وعن الاشتغال بالزراعة في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك * وقد ساعد وجود العرب في القسرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالاهالي وكان لهذا الاختلاط اثره في انتشار الاسلام بمصر نتيجة للتزاوج او للموالاة بينهم وبين اهالي البلاد * (٣) ويشير القرظي الى تحول العرب الى سكنى الريف ويوضح الاثر الكبير الذي أحدثه هذا التحول في انتشار الاسلام * فيقول مانعه (. . .) فانظر ما كان عليه الصطبة وتابعوهاهم عند فتح مصر من قلة السكنى بالريف ومع ذلك فكانت القرى كلها في جميع الاقليم أعلاه وأسفله ملوّه بالقبط والروم * ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبد الله بن الجبظ بسولي سلول قيسا بالحوف الشرقي فلما كان في المائة الثانية من سني الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها * (٤)

(١) ابن عبد الحكم : فتح مصر ص ١٠٢

(٢) الكندي : الولاة وكتاب القضاء ص ٢٦-٢٧ - القرظي : الخطط ج ١ ص ٨٩

(٣) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢٤

(٤) القرظي : الخطط ج ٢ ص ٢٦١

وقد كان نتيجة الاختلاط امتزاج الفاتحين العرب بالمصريين الاقباط في المدن والقرى ، ولعل في اباحة الاسلام لمثل هذا الزواج كان المشجع الاول للعرب على الاقدام عليه ما كان له اثر في الامتزاج الجنسي ، قال تعالى : (اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اذا اتيتوهن اجورهن محسنين غير منافحين ولا متخذى اخدان ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الاخرة من الخاسرين) (١) وبذلك احل زواج المسلم المهرى بالكتابة المسيحية المصرية ، ومن ثم كان الاقتداء بالرسول (صلعم) بزواجه من مارية القبطية وما اثر عنه من احاديث في هذا الصدد منها : " اذا افتتحتم مرفقا ستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما " (٢) ونفس خلافة المعتصم بالله العباسي ثم اندماج العرب بالمصريين ، فقد حدثت تغييرات جوهرية في اجناس الجند واجناس الولاة ايضا فقد ظهر منذ بداية عهد الدولة العباسية المنصر الفارسي والمنصر التركي الذي استكثر منه الخليفة العباسي المعتصم " فلما بوسع بالخلافة (٢١٨هـ / ٨٣٣م) — ارسل الى واليه على مصر كيد بن نصر ابن عبد الله يأمره باسقاط من في ديوان مصر من المبروقطع المطاء عنهم ، ففعل ذلك " (٣) وكان من اثر هذا ان انتشر العرب في أرجاء مصر من اقاصها الى اقاصها يلتصقون الزق ويسمون وراة القوت عن طريق اخر غير الجندية والحرب " فنزل منهم الكثيرون بأرياف مصر واستوطنوها واتخذوا الزرع محاشا وكسبا ، وانقاد جسمهم للقبط الى اظهار الاسلاموا اختلطت انسابهم بانساب المسلمين لنكاحهم المصلمات " كصا احترف منهم من احترف التجارة والصناعة وغير ذلك من الاعمال التي كانت

(١) سورة المائدة الآية ٥

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٨ — ابن عبد الجكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٨٦

(٣) الكندي : الولاة والقضاء ص ١٩٢ — المقرئ : الخطط ج ١ ص ٩٤

(٤) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٨٢ — سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢٩

كانت وقفا على أهل البلاد المصريين . ويعتبر هذا التاريخ نقطة تحول في تاريخ مصر الاسلامية . ويمكن اعتباره بداية لظهور المجتمع المصري المعاصر الاسلامي . فبعد ان كان العرب يمهشون في نطاق ضيق وكان تأثيرهم ضعيف ، أصبحوا منذ ذلك الوقت يخططون بالمصريين اختلاطا كاملا ويمتزجون بهم ما كان له اثره في خلق مصر العربية الاسلامية من الفواحي السياسية والاجتماعية واللغوية والادبية ومرار الوقت ترك العرب الانتساب الى قبائلهم ولافتخار بأصولها والانتساب الى الجهة أو الاقليم الذي عاش فيه الشخص منهم . ففي شواهد القبور التي اكتشفت في مقابر اسوان والفسطاط كسان اسم الميت يتبع باسم قبيلته في خلال القرنين الاولين للهجرة ولكن في خلال القرن الثالث الهجري نجد ان اسم القبيلة قد حل محله اسم الجهة أو الاقليم الذي ينتمى اليه المتوفى . (١) فنرى ان شاهد قبر ابن لهيعة المحدث الشهير كان مكتوبا عليه (بسمه هذا ما يشهد به عبدالله بن لهيعة الحضرمي المتوفى ١٧٤ هـ) (٢) وكذلك (عبدالرحمن بن يحيى المعافري المتوفى ١٩٠ هـ) (٣) وفي القرنين الثالث والرابع نجد الانتساب الى الجهة أو الاقليم واضحا فهناك شاهد قبر (يوسف بن مسراد المصريمي المتوفى سنة ٣١٠ هـ) (٤) وشاهد قبر (زينب ابنة عيسى المدني المتوفى ٣١٦ هـ) (٥) كما صار يكتب فلان المصري أو الاسواني أو الادفوي وهذا يدل على انه في القرن الثالث الهجري أصبح العرب في مصر لا يتميزون عن أهل البلاد ، ولم يكن هناك بعد قرار المتمم ما يحصد عليه العرب من نسل الفاتحين والقبائل العربية الوافدة الى مصر فأختلطوا بالمصريين وكان هذا الاختلاط ما قسوى عروبة مصر فتمرب المصريون وتصر العرب . (٦)

-
- (١) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢٩ وما ذكرته من مصادر
 (٢) Wiet (G.): Catalogue Général du Musée Arabe du Caire. Steles Funéraires. Vol. I, P. 2.
 (٣) Wiet (G.): Op. Cit. Vol. I, P. 13.
 (٤) Wiet (G.): Op. Cit. Vol. V. P. 5.
 (٥) Wiet (G.): Op. Cit. Vol. V. P. 2.
 (٦) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢٩-٢٣٠

ومن الموامل البارزة في تعريب مصر ايضاً انتشار الدين الاسلامي ، فقد كان يجب على من يعتنق الدين الاسلامي ان يتعلم اللغة العربية حتى يمكنه قراءة القرآن واداء الصلاة وانما كان انتشار اللغة العربية ابطاً من انتشار الدين الاسلامي . (١)

وكان التسامح في الدعوة اليه واضط كما تشير الاية (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) . (٢) ولذلك لم يكره أحد عليه بالسيف واللسان . (٣) وقد اخذ الدين الاسلامي ينتشر تدريجياً كلما تقدم الصهد بالمرب فيها على انه وجدت هناك فترات معينة كان التحول فيها الى الاسلام بكثره . وكان هذا تحت ظروف وعوامل نشأت من جراء سياسة الخلفاء وولاتهم المنفذين لتلك السياسة . ومن أبرز هذه الموامل (الرغبة في التخلص من الجزية التي كان يدفعها الذميون نتيجة بقائهم على دينهم) وكانت الجزية سبباً في اسلام كثير من الاقباط الذين أرادوا التخلص منها (٤)

وكانت موجات الداخلين في الاسلام من القبط تتابع وشهد النصف الاول من القسرين الثالث الهجري (التاسع الميلادي) انتشاراً واسماً للاسلام في مصر . حتى اذا كانت امارة احمد بن طولون على مصر سنة ٢٥٤ هـ . كان اكثر مسيحي مصر قد تحولوا الى الاسلام . وصار المسلمون يكونون الاغلبية المظن بين سكان مصر وصار أهل الذمة اقلية قليلة . ومن ثم اخذت المصبة الاسلامية نتيجة لذلك تشكل المجتمع المصري وتطبعه بطابعها في المادات والتقاليد . وفي الحياة الاجتماعية بصفة عامة . (٥)

(١) سيدة كاشف : السابق ص ٢٣٠

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٦

(٣) دى كاسترى : الاسلام خواتم وسوانح ص ٤٩٠ ، سيدة كاشف : مصر قس فجر الاسلام ص ١٩٧ .

(٤) سيدة كاشف / مصر في فجر الاسلام ص ١٩٣ - يقتل : فتح الحرب للمصر ص ٣٤١

D. Zaki Hassan: Les Tulunides. P. 216.

(٥) حسن محمود : حضارة مصر في العصر الطولوني ص ٤٠

وقد أشاد بعض المستشرقين بأهمية المسجد كمركز لنشر اللغة العربية والفكر العربي الاسلامي ، فيقول اسرائيل ولفنسون (انه يرجع تثبيت قدم العربية فسي صر الى توطيد دعائم الملك والبقاء الاسلامي في عهد الدولة الطولونية والاخشيدية والفاطمية وساعد المعهد الديني الكبير (الأزهر) على نشر الفصحى بين طبقات رجال الدين) . (١)

وهكذا تضافرت العوامل السابقة من اعتناء الدين الاسلامي — وتعميمه — والداوين ٨٧ هـ / ٧٠٥ م ، فضلا عن هجرة القبائل العربية واستقرارها بمصر ونزولها بالريف واختلاطها بالاهالي — تضافرت جميعها في نشأة صر العربية الاسلامية من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وعلى جمل اللغة العربية لغة التخاطب بين اهل البلاد وتشير اوراق البردي الى انتشار اللغة العربية في القرن الثالث الهجري بين الاقباط حتى صارت أغلبيتهم تجيدها قراءة وفهما فقد جاء في بردية مؤرخة سنة ٢٧٤ هـ وفيها ادلاء لاحد القبط يشهادته فكتب مانعه " اقرار دانيال بجميع ما يقبى هذا الكتاب بعد ان قرى عليه حرفا حرفا ، فأقر بفهمها ومعرفته بها فيه " (٢) وهناك بردية أخرى تتضمن عقد زواج " تم في الاشعونين بين يحنس بن شنوده وبين زوجته القبطية " . (٣) كما ان هناك بعض عقود البيع والشراء التي كتبت باللغة العربية . (٤)

وبالرغم من اننا لانعرف بالضبط متى أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب بين المصريين الا ان آثار القرن الرابع الهجري المدونة من الكتب تدل على سيادة اللغة العربية وانتشارها بين الاقباط " فقد ألف سعيد بن بطريق البطريرك الملكاني كتابا في التاريخ باللغة العربية في النصف الاول من القرن الرابع الهجري " . (٥)

-
- (١) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٢٢٢
 - (٢) جروهمان : اوراق البردي العربية ج ١ ص ١١٦ — ١٧٠
 - (٣) جروهمان : السابق ج ١ ص ٨٦ — ٨٥
 - (٤) جروهمان : السابق ج ١ ص ١١ — ١٧
 - (٥) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٣١

وهو كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق — ثم تلاه ساويرس ابن المقفع اسقف الاشمونيين في اواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) الذى ارن للبطاركة باللغة العربية • فكان يقوم بجمع ما وجد يد يرنها (عند الجيزة) ويد يراى مقار • وما وجد به بأيدى النصارى بالقلمين اليونانى والقبطى ويترجمه الى اللغة العربية ويشرح فى مقدمة كتابه الى سيادة اللغة العربية وانتشارها بين المصريين • فيقول ما نصه :
(• • •) فاستصنت بمن أعلم باحتقاقهم من الاخوه المسيحيين وسألتهم مساعدتى على نقل ما وجدناه منها يد يار مصر بالقلم القبطى واليونانى الى القام العربى الذى هو الان معروف عند اهل الزمان باقليم د يار مصر • لعدم اللسان القبطى اليونانى من
اكثرهم (١)

ويقول المستشرق الالمانى متر • • • ان القبط لم يبدأوا فى ترك لغتهم القبطية الا حوالى آواخر القرن الرابع الهجرى • (٢)

وسيادة اللغة العربية " اخذت اللغة القبطية فى الاضمحلال • بسبب وفقدت اهميتها تدريجيا لان المستخدمين القبط لم يعودوا يستخدمونها فى حديثهم وفى كتاباتهم وانما كانوا يستخدمون اللغة العربية • (٣) واستمرت دهور القبطية شيئا فشيئا حتى حصرت فى الاديرة والكنائس ثم اضمطت بضى الزمن حتى صار الكهنة الذين يستعملونها للصلوات فى بعض الكنائس لا يفهمونها جيدا ويستعملون الى جانبها الترجمة العربية • (٤) وقد ترتب على التقاء اللغات المختلفة التى كانت متداولة فى مصر فى فترات زمنية ممتدة مثل اليونانية والسريانية ثم القبطية على اللغة العربية ان تأثرت اللغة العامية بمصر ببعض الالفاظ والمعارك من

(١) ساويرس : سير الالباء البطاركة م ١ ج ١ ص ٦

(٢) متر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٨٩
سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٢

(٣) Quatremère: Recherches Critique et Historique sur la Langue. P. 37.

(٤) اسرائيل ولفسون : تاريخ اللغات السامية ص ٢٢١

تلك اللغات إلى العامية المصرية ، كما أننا نستعمل في الوقت الحالى بعض اللفاظ والكلمات التى ترجع إلى اللغة المصرية القديمة وإلى القبطية التى اشتقت منها ومن هذه الكلمات (طوب) ومعناها بالقبطية حجر ، و " ميت " ومعناها ريف وهى اسم لكثير من قرى مصر مثل " ميت رهينة " و " ميت أبو الكوم " وشونة : ومعناها مخزن ، وبولاق ومعناها شاطئ النهر ، الخ .^(١) ولكن اللغة العامية المصرية حافظت على اللسان العربى الفصحى أكثر من أخواتها فى بلاد العراق والشام والمغرب حيث كثرت العناصر الأجنبية .^(٢)

ولا ريب فى أن انتشار اللغة العربية فى مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين فان الشعوب المختلفة التى توالى على مصر قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين .^(٣) ولم يقف الأمر عند انتشار اللغة الحوية بل كانت هذه اللغة محورا وأساسا لجوانب النشاط الفكرى فى مصر ، وقد ظلت بمصر نهضة ثقافية عظيمة ، كانت دعامتها الدين الإسلامى واللغة العربية .

وفى القرن الثانى الهجرى نشأ جيل من العلماء من أصل مصرى قبطى صاروا أئمة فى القراءات والأدب واللغة " مثل عثمان بن سعيد المعروف بورش المقرئ المتوفى سنة ١٧٩ هـ .^(٤) وسج الفول طلم مصر باللغة " .^(٥)

(١) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات العامية ص ٢٢٢

(٢) إسرائيل ولفنسون : السابق ص ٢٢٣

(٣) سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٣٤

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٧

(٥) السيوطى : بغية الوفاء ص ٢٥٢ — سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٣٢

٢ - أثر التمهيد في قيام المدرسة العلمية الاسلامية

بعد هدوء موجة الفتح العربي لمصر ، واستقرار العرب واختطاط مدينة القسطنطينية واستقرارهم بها ، واتخاذ العرب المسلمين من هذه المدينة عاصمة لمصر الاسلامية ، صارت مدينة القسطنطينية إحدى المراكز العلمية في الدولة العربية الاسلامية وكان مسجد عمرو بن العاص الجامع بالقسطنطينية يهدى مدرسة علمية ومنازل تفتح بنورها على الهلاد المجاورة ، وكانت العلوم والمعارف السائدة تلقى باللغة العربية " لسان الامة والجيل الفالihin عليها والمختصين لها " (١)

وكانت العلوم السائدة ضروباً :

(أ) العلوم العقلية :

وهي العلوم أو الاداب الاسلامية .

وهي العلوم الدينية الاسلامية (الحديث والتفسير والقراءات والفقه) والعلوم اللسانية (النحـر واللغة والبيان والادب) (٢) والتاريخ .

(ب) العلوم العقلية :

وهي العلوم الفلسفية أو عايم الأواقل التي نقلت الى العربية من اللغات الاخرى " كالطب والعلوم الطبيعية والرياضيات " (٣) وكانت العلوم العقلية

(١) ابن خلدون : المقدمة - الفصل الثاني والمشرين ص ٣٢٩

(٢) ابن خلدون : السابق - الفصل الرابع ص ٤٣٥ - ٤٣٦ - الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ٥

(٣) ابن خلدون : السابق - الفصل الثالث عشر (في العلوم العقلية واصنافها ص ٤٢٧ ، ٤٢٩ - الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ٥ - جورجى زبدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٤٢

محدودة ، ضئيلة الانتشار اذا ما قورنت بالعلوم الثقيلة وخاصة في بداية النشاط العقلي .

• كانت العلوم الثقيلة - التي اساسها الشروفيات من الكتاب والسنة هسي اساس العلوم في العلة الاسلامية • (١) ولقد نعت العلوم العربية في مدينة القسقاط في ظل الدين الاسلامي نموا مضطربا كما نعت في غيرها من الامصار الاسلامية الاخرى فالقرآن الكريم به آيت كثيرة تحت على العلم وتدعو الناس الى التزود منه " قال تعالى : " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات " (٢) " قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون " (٣) " وقال جل شأنه : " وقسبل رب زدني علما " (٤) وقال تعالى : " فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون " (٥)

وهناك احاديث مأثورة عن الرسول (صلعم) تحقق مسن معنى هذه الآيات وتفسرها • قال عليه الصلاة والسلام " طلب العلم فريضة على كل مسلم " • " اطلبوا العلم ولو في الصين " (٦)

وكانت الحركة العلمية في مدينة القسقاط في بدايتها مثل سائر مراكز الثقافة الاسلامية في العالم الاسلامي في بداية عهدها بالاسلام - فقد بدأت هذه النهضة الدينية - لان القرآن الكريم كان هو محور الحياة الدينية والدنيوية

(١) ابن خلدون : المقدمة - الفصل الرابع ص ٤٣٥

(٢) سورة المجادلة : الاية رقم ١١

(٣) سورة الزمر : الاية رقم ٩

(٤) سورة طه : الاية رقم ١١٤

(٥) سورة النحل : الاية رقم ٣٣

(٦) النزالي : احياء علوم الدين ج ١ ص ٨ - ابن عبد البر : جامع بيان

العلم ج ١ ص ١٠ ٣٨

فكان لابد من فهم هذا القرآن وكشف جوانب محتواه . ومن ثم كان الاقتداء بالرسول (صلعم) الذي عزى اليه تبليغ الرسالة ، فقد جاء في الآية الكريمة (وينا وأبصرت فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم) . (١) وقد أجمع العلماء على فرض تعليم القرآن — قال صاحب مفتاح السعادة (أعلم ان حفظ القرآن فرض كفاية على الامة لثلاث ينقطع عدد التواتر فيه فلا يتطرق اليه التبديل ولا التحريف) . (٢) وقد جاءت الآثار عن الرسول (صلعم) تحث على الاخذ بهذا الدين الجديد وتعليمه — فقد جاء الاثر (خياركم من تعلم القرآن وعلمه . . .) . (٣) وفي قول آخر (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) (٤)

ولذلك بدأت النهضة العلمية الدينية في بدايتها تتغل في علوم القرآن الكريم بمصانها الواسع مثل القرآن الكريم وتفسيره والحديث وروايته الذي كان صادة غيرة للعلوم الدينية . وقد صار أوسع مادة وأكثر تداولاً حتى الفقه أو " استنباط الاحكام الشرعية من القرآن والسنة النبوية ثم علم قراءات القرآن الكريم . . . (٥) . . . وكانت مدينة القسطنطينية الاسلامية هي مركز الاشعاع العلمي . كما كان " جامع عمرو بن العاص بهذه المدينة هي ملتقى العلماء والفقهاء والائمة واليه يلجأ الناس للاستفتاء واليه يفد الطلاب لتلقى العلوم التي كانت في ذلك الحين ومنه يخرج طليعة العلماء والفقهاء " فلذلك كان قلب هذه المدينة النابض . . . (٦) على ان هذا لم يكن غريباً على البيئة المصرية — فقد كان رجال الدين هم الذين يقومون بمهمة التعليم . . . (٧)

-
- (١) سورة البقرة : الآية ١٢٩
 (٢) طائفة كبرى زاده : مفتاح السعادة ج٢ ص ٢٥٩
 (٣) صحيح البخاري ج١ ص ٢٧ — سنن ابن ماجه ج١ ص ٨٠ — طائفة كبرى زاده : مفتاح السعادة ج٢ ص ٢٥٩
 (٤) سنن ابن ماجه ج١ ص ٧٧
 (٥) الاستاذ : احمد امين : فجر الاسلام ص ١٨٢
 (٦) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٨٨
 (٧) Marron (H.) : Histoire de L'education dan L'antiquité. PP. 133 - 413.

وقد كان نواة الحركة العلمية في مدينة القسطنطينية الصحابة الذين جاءوا مع جيش الفتح وبعده واستقروا بمدينة القسطنطينية بعد ان اخطوا مساكنهم وحسبوا المسجد الجامع . . .

وقد كان لهؤلاء الصحابة تلاميذ ينقلون عنهم العلم ، فتخرج عليهم التابعون ، ثم تابعوهم . . . (١) وقد كان منهم العلماء والزهاد والشعراء والادباء وكان معظم ما قاموا به من جهود علمية تتمثل في العلوم الدينية . يقول جب Gibb " لم يكن جيش المسلمين مجرد مصكر حربي وانما كان مع ذلك مركزا تنبعث منه الدعوة للدين الجديد " (٢) ولعل هذا بعد ابلغ جواب على الكونت دي كاستري الذي قال (ان الاسلام لم يكن له دعاة مخصوصون يقومون بالدعوة اليه وتعليم مبادئه . كما في الديانة الصحيحة ، ولو كان للاسلام انصار قوامون لسهل علينا معرفة السبب في انتشاره السريع) . (٣) وقد حرص الحكام المسلمون على العناية بنشر الدين الجديد فقد بعثوا امير المؤمنين عمر بن الخطاب ببعض كبار الصحابة والمتفقيين فسيروا اليهم الى الامصار الاسلامية ليقوموا بتعليم اهالي تلك الامصار القرآن الكريم وأصوله (عن سالم بن عبد الله قال : كنا مع ابن عمر يوم مات زيد بن ثابت ، فقلت : ما مات الناس اليوم . فقال ابن عمر رحمه الله : فقد كان ظم الناس وجبرها . فرقمهم عمر في البلدان) . (٤) وكان امير المؤمنين عمر بن الخطاب يحث الصحابة والعلماء على نشر العلم ويحث الناس ايضا على الاخذ منهم .

(١) احمد امين : فجر الاسلام ص ١٨٦

(٢) Gibb : Mohammedanism. P. 404.

(٣) دي كاستري : الاسلام خواطر وسنوانح ص ٣٩ — سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ١٦٧

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٤ ص ٦١

فكتب الى اهل الكوفة (٠٠٠) انى بعثت اليكم بعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا
واثرتكم على نفسى . فخذوا عنه . فقدم ابن مسعود الكوفة ونزلها وابتنى بها دارا الى جانب
المسجد (١) .

وتشير الرواية التاريخية الى ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص (٢)
امير مصر بأمره ان يقرب دار ابن ملح من المسجد ليعلم الناس القرآن والفقهاء ففعل عمر .
وقد اختار امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ) عشرة من كبار العلماء
المصريين ومنهم السى القيروان ليعلموا أهلها السنن وينقحهم فى الدين ، وكان
نقيب هذه البعثة من أشهر نابهى مصر وهو ابو عبد الرحمن الطبري الذى تولى هناك
سنة مائة بعد ان نشر فيها علما كثيرا (٣) .

وقد حظيت مدينة القسطنطينية بعدد كبير من الصحابة (٤) الذين نزلوا مصر
معلمين أو فاتحين أو ولاية حاكمين — وقد أثر عن امير المؤمنين عمر بن الخطاب قوله :
" ألا انى ابعت على ليعلموكم دينكم ويعلموكم سننكم ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم " .
ولا يأخذوا أموالكم " (٥) . ولئن كان قدر هؤلاء الصحابة أكبر من غيرهم فى تعليمهم
القرآن الكريم وعلومه فى تلك الفترة المبكرة . فكان هذا العمل من جانبهم (اقتبسنا)
بالرسول (صلعم) الذى بعث اصحابه من قبل فى الناس ليفقهوهم فى الدين . ويعلموهم
ما كتب عليهم . وكان اصحاب الرسول قد اخذوا منه الامر وعلما اسباب النزول والاوامر
والنهاهى . وغا هدوا قرائن الامور وثاقبوا فى أكثرها النبى (صلعم) واستفسروه عنها .
مع ما كانوا عليه من صفة العلم ومعرفة معانى الكلام وتنوير القلوب ، فكانوا أعلم الاسرة
وأولاهم بالتقليد (٦) .

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج٤ ص ٦١

(٢) ابن ذقان : الانتصار ج٤ ص ٦

(٣) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج١ ص ٤٨٣ — ج٢ ص ٧٩

(٤) افراد السيوطى أسماء هؤلاء الصحابة فى فصل خاص اسماء (دار الصحابة)

فيم نزل مصر من الصحابة (نقل معظمه من كتاب محمد بن الربيع الجيزى وزاد

عليه) السيوطى : حسن المطهرة ج١ ص ٩٩-١٤٠

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ج٢ ص ١٣١ — الماوردى : الاحكام

الصلبانية ص ٣

(٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٢

كانت العلوم المائدة اذن دينيه (نواتها القرآن الكريم) ومنذ بداية الحركة العلمية فى مدينة القسطنطينية وغيرها من الامصار الاسلامية كانت مسائل العلم تقريبا تدور حول علوم القرآن من تفسير وقراءات وحديث وفقه (فكان لا بد من النظر بالاسباب بهيئان الفاظه أولا . وهذا هو علم التفسير . ثم باسناد نقله روايته الى النبى (صلى الله عليه وآله) من عند الله واختلاف روايات القراء فى قراءته وهذا هو علم القراءات . ثم باسناد السنة الى صاحبها والكلام فى الروايات الناقلة لها ومعرفة أحوالهم وعاداتهم ليقع الموثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هى علوم الحديث . ثم لا بد من استنباط هذه الاحكام من اصولها من وجه قانونى يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو علم الفقه وأصوله) . (١)

ويلحق بالتصوف بالعلوم الدينية الاسلامية لانه كان لا يزال خاليا من النواحي الفلسفية المحققة . وكان يستمد اصوله من مصادر اسلامية .

وقد كانت البحوث حول القرآن الكريم تتخذ شكلا آخرى فكانت ذو طابع فلسفى دينية . (٢) فقد كان النظر فى القرآن الكريم والحديث لا بد وان يتقدمه علوم اللسان العربى (اللغة والنحو والبیان والآداب) الذى هو لسان الله وبه نزل القرآن) . (٣)

كما نشأت الدراسات التاريخية فى كنف الدراسات الدينية فكانت متأثرة بعلوم القرآن الكريم مثل الحديث . (٤)

(١) ابن خلدون : المقدمة - الفصل الرابع ص ٤٣

(٢) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ٥

(٣) ابن خلدون : المقدمة - الفصل الرابع ص ٤٣ - الخوارزمي : مفاتيح

العلوم ص ٥ - جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢

(٤) سيدة كاشف : مصادر التاريخ الاسلامي ص ١٣

كانت العلوم العقلية " علوم العجم من اليونانيين وغيرهم من الامم مثل
العلوم الفلسفية والعلوم الطبيعية والعلوم الطبية " (١) قليلة ولم تشع بيسر
المرب شيوخا تاما بنسبة واحدة ، وقد شجع عليها وجود الخلفاء ببغداد ورغبتهم
في نقل علوم الامم الى العربية ، ليجمعوا في مدنتهم اسباب مدنيت الامم
التي سبقتهم ، وفي مصر وجدت نواة تجمعت حولها العلوم الدنيوية وهي
نواة الطب (٢)

وكانت الناحية العلمية الطبيعية بمصر امتداداً لدراسة الاسكندرية قبل الفتح (٣) ثم تكونت دراسة الكيمياء والهيئة والالهييات.

وكانت الثقافة الطبية تتطلب كل هذه الفروع ومؤمجا يسع كل هــ
للأشياء. ويلاحظ هذا حتى في فلاسفة العلوم المسلمين، أمثال الفارابي
وابن سينا. فكلاهما طبيب وفيلسوف. (٤) وقد تطورت دراسة الطب في مصر
فيما بعد تطوروا ظاهرا. فكان على ابن رضوان الطبيب المصري المتوفى سنة
٤٦٠ هـ كثير الرد على معاصريه من الأطباء في غير مصر. كخنين بن اسحاق وابن
بطالان البغدادي. (٥)

(١) ابن خلدون : المقدمة - الفصل الثالث عشر ص ٤٧٨-٤٧٩

(۲) احمد امین : ضحی الاسلام ص ۱۱

(٣) احمد امين : السابق ص ٩٥

(٤) احمد امين : السابق ص ١٢٠ القحطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء

114-2771

(٥) القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٩٤ - ٤٤٣ - يوسف شخت

وماكن ما پرهوف : خمس رسائل ص ۷

كان الصطبة هم المصلدون الأول في مدينة القسطنطينية وغيرها من الامصار الاسلامية ثم تلاهم التابعين وتابعيهم ، حتى صار العلم الى الموالى — وكانت المدرسة العلمية بالقسطنطينية يشتد آزرها كلما أقبل الناس على هذه الثقافة الجديدة ومن نبسغ من ابناء الموالى في القرن الاول الهجرى (عبيد بن جبر القبطى — مولى ابي بصير له للفارسي — وكان أحد ثقات التابعين من اهل مصر — قال سعيد بن خبير : ان القبط كانوا يفخرون به — وقد روى عن مولاة ابي بصير وغيره من شيوخ ذلك العصر ، وروى عنه كليب ابن ذهل الحضرمي . وكانت وفاته بالاسكندرية سنة ٧٤ هـ) . (١)

وكذلك (عبد الرحمن بن معاوية بن حديج من ابناء السلطيسيات (٢)) الذي كان قاضى مصر لعهد العزيز بن مروان سنة ٨٦ هـ وصاحب شرطته ونائبه على مصر (اذا طاب) . (٣)

الرحلات العلمية :

وباتساع رقعة الدولة الاسلامية ودخول ام كثيرة في الاسلام ازدادت الحركة العلمية نشاطا وشهد العالم الاسلامي مولد مدارس اسلامية كثيرة تختلف في ميدان الثقافة من حيث العمق وغزارة الانتاج العلمي — فأخذ المصريون اساتذة وطالبا يرحلون الى تلك الامصار مثل المدينة المنورة أو دمشق أو الكوفة أو البصرة بالعراق موطن ائمة النحو واللغة) — ومن أبرز علماء الدين الذين رحلوا الى المدينة المنورة حيث موطن الامام مالك — الليث بن سعد وعبد الله بن وهب . (٤)

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٨٣ — ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٦١ — السيوطي : حسن المطهرة ج ١ ص ٢٦٠

(٢) سلطيس — قرية مصرية استولى عليها المسلمون غزو وسبوا أهلها ، فسردهم عمر بن الخطاب وخبرهم بين الاسلام والبقاء على ما كانوا عليه (طى بهجت : قاموس الامكنة والبقاع الواردة في كتاب فتوح البلدان ص ٨٣ / ٨٤) .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٢٦ — الكندي : اللواتي القضاة ص ٣٢٤ — ٣٤٩ — الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ٢٦

(٤) ابن فرحون : الدياج المذهب ص ١٥ ، ١٩ ، ١٣٢

ولاشك انهم كانوا يهودون من هذه الرحلات يزداد جديد من العلم وينكبون لمطابقة حياة البحث والدراسة . لذلك كانت الرحلات تحظى بمكانة بارزة . كأسلوب من أساليب التعليم وخاصة في القرنين الاول والثاني للهجرة .^(١) وما زاد من أهمية هذه الرحلات ان العلوم والعارف السائدة في تلك الفترة وهي العلوم الدينية — كانت تتناقل شفاه (ويرجع ذلك الى ان طبيعة هذه العلوم من تفسير واحاديث — كانت تمتاز بقلّة الاختلاف والسهولة والمراجعة والاستقصاء من ثقات الصحابة والتابعين لقرب عهدهم من صاحب الشريعة . فكانوا في غنى عن تدوين تلك العلوم .^(٢)

ولذلك ظل هؤلاء العلماء يحفظون ما أخذوه من الرسول (صلعم) دون تدوين وكانوا يسمون المختصين بحمل العلم ونقله القراء أي الذين يقرأون الكتاب وليسوا اميين . لان الامية يومئذ صفة عامة في الصلابة بما كانوا عربا اشارة الى هذا فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن الله . . .^(٣)

وقد جاء في القرآن الكريم (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون) .^(٤) ولذلك صار هناك بعضا لتمييز بين هؤلاء القراء من الصلابة وبين نصوري آخر منهم انتشرت بينهم الامية وانما كانت صفتهم العلمية المسبقة عليهم نتيجة ملازمتهم للرسول (صلعم) واحكامهم به فأخذوا عنه الكثير من الاحكام مشافهة . وان كانوا يشتركون مع القراء في افتقارهم الى تدوين ما تلقوه من النبي (صلعم) ويحلل العلامة ابن خلدون تلك الظاهرة بشيوع الامية وعدم الداية بأمر التأليف فيقول (. . . انما احكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيها كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع واصطبه والقوم يومئذ عرب لم يحرفوا امر التعليم والتأليف والتدوين

-
- (١) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص ٤٢ — ٤٥
 - (٢) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٥٩
 - (٣) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الخامس والثلاثون ص ٤٣
 - (٤) سورة المنكبوت الاية ٤٨

(١) ولا دفعوا اليه ولا دفعهم الحاجة اليه * وجرى الامر على ذلك زمن الصحابة والتابعين
كما ارجع البعض قلة التدوين او كره كتاب العلم الى وجهين : احدهما الا يتخذ
مع القرآن كتاب يضاهاى به * ولثلا يتكل الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقبل الخطأ (٢)
وقد روى ابو سعيد الخدرى : " انه استأذن النبی (صلعم) فى كتابة العلم فسلم
ياذن له " وروى عن ابن عباس انه نهى عن الكتابة لانهم ان تركوا الحفظ فيعرض للكتاب
عارض فيقولون عليهم * (٣)

بين الحفظ والتدوين :

كانت نتيجة لذلك ان ازداد الاعتماد على الحفظ والذاكرة التى صارت
أهم وسائل التصيل فى تلك الفترة — وكان المحدثون واللفيون اكثر المشتغلين
بالعلم اعتمادا على الحفظ وكان الطائفة (اسى درجات العالم بالحدوث أو
المشتغلين باللفظ *) (٤) وقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص مؤسس مدرسة
مصر الدينية * (٥) والذى أخذ عنه المصريون اكثر من مائة حديث * (٦) قد
حفظ عن النبي (صلعم) ألف مثنى * (٧)

يفضل هذا السام الجليل انفردت مدينة القسطنطينية التى اتخذ فيها
عبد الله بن عمرو بن العاص دارا له * (٨) بأهل صحيفة مدونة فى التفسير فى
عصر كان فيه التدوين ممميا بالتميز من الموضوعيل كانت له اوجه كثيرة من الفرض
والنقد * وكانت مثل هذه الامور عند بحذر شديد * قال مجاهد : اثبت عبد
الله بن عمرو * فتناولت صحيفة تحت مفرشه * فسمعت * قلت : ما كنت تمننى شيئا *

-
- (١) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الخامس والثلاثون ص ٥٤٢
 - (٢) ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم وفضله ص ٣٤ — ٣٥
 - (٣) طحى خليفة : كشف الظنون ج ١ ص ٢٥
 - (٤) السيوطى : المزهر فى علوم اللغة ج ٢ ص ١٩٩
 - (٥) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٩٧
 - (٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٥٤ — الذهبى : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٩
 - (٧) ابن عبد البر : الاستيعاب ج ٣ ص ٩٥٧ — ابن الاثير : اعد النباة ج ١ ص ٣٤٩
 - الذهبي : سير اعلام النبلاء ج ٢ ص ٥٧
 - (٨) عمر بن محمد الكندى : فضائل مصر ص ٢٣٨ — ابن دقائى : الانتصار ج ١ ص ٢٠٣

(١) قال هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه أحد^{*} وربما كانت هذه الحقيقة هي التي دار عليها الحديث بين حيوة بن شريح وحسين بن شفي (٥٥) قال أبو سعيد بن يونس في تاريخ مصر أن حيوة بن شريح قال : دخلت على حسين بن شفي بن مانع الأصمحي وهو يقول : فعل الله بفلان ٥٥ فقلت ماله فقال عمد إلى كتابين كان شفي سمعهما من عبد الله بن عمرو بن المأمون ترضى الله عنهما — أحدهما قضى رسول الله (صلعم) في كذا ٥ وقال رسول الله (صلعم) كذا ٥ والآخر ما يكون من الأحداث إلى يوم القيامة فأخذهما فرس بهما بين الخولة والرباب — فقال أبو سعيد بن يونس : يعني بقوله الخولة والرباب مركبتين كبيرين من سفن الجسر يكونان عند رأس الجسر مما يلي الفسطاط يجوز تحتهما لكبرهما المراكب ٥ (٢) وربما تريد هذه الحادثة خوف هؤلاء العلماء من الاحتفاظ بهذه المدونات معولين ذلك إلى ضرورة الالتزام والاخذ بأقوال السلف السابقة عليهم " الذين كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك ٥ " (٣)

ولذلك حرصوا أشد الحرص على عدم التشيد بالكتابة ٥ التزاما بالسوابق — مكانة العقيدة الحافظة لأنه على حد قول الملامة ابن خلدون (٥٥) إذا تلونت النفس بالملك لاخرى (الكتابة) وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة بعد ذلك أضعف ٥ (٤) ولذلك صارت للرحلة أهمية كبرى في فترة افتقرت إلى المدونات — (وكان التلقين بالمباشرة

(١) ابن الأثير: أمد القابة ج٢ ص ٣٥٥ — الذهبي : سير اعلام النبلاء

ج٢ ص ٥٨ — المقرئ : الخطط ج٢ ص ٣٣٣

(٢) المقرئ : الخطط ج٢ ص ٣٣٣

(٣) ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم ص ٣٥

(٤) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الثاني والمشهور ص ٤٠٥

"أى لقاء الشيخ الكبار" هو الممول الاساسى لحصول الملكات * وكان اشهد استحكاما وأقوى رسوخا . (١) ولذلك كانت الرحلة معمولا هاما لتصحيح المعارف وتميزها عن سواها مع تقوية الملكة بالمباشرة والتلقين - وكان لابد منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء الشيخ . . . (٢)

وظلت الرحلة زمنا طويلا معمولا اساسيا للدراس والبحث . (٣) وان لم يقلل من اهميتها شيوع المؤلفات الملحة فيما بعد . قال نيكلسون (وكان جلة الباحثين وطلاب العلم يرحلون فى حماسة ظاهرة عبر القارات الثلاثة ثم يعودون الى بلادهم . كما يعود النحل محملا بالعسل . ثم يجلس هؤلاء الباحثون فى بلادهم . ليسرخوا شغف الناس التى كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم . فيقالون من علومهم ومعارفهم زادا وخيرا عبقا . كما كان هؤلاء الباحثون يمكنون احيانا على تدوين ما جمعوا وما سمعوا ثم يخرجون للناس كتبها اشبه بدوائر المعارف مع نظام رائع بلاغة عذبة . وهذه الكتب هى المصادر الاولى للمعلوم الحديثة بأوسع ما تحمله كلمة العلوم من معنى . وهما مرجع العلماء والباحثين ومنها يستمدون فنونا من الثقافة والمعرفة أعق بكثير مما يظنون الناقدون .) (٤)

وكان تعقيد العلم بالكتابة قد صار أمرا لازما فيما بعد فبتأد الزمن وانقضاء عهد الصلابة بعد المائة من تاريخ الهجرة تضاعفت النزعة العربية الى حظر التدوين وصار تعقيد العلم أمرا ضروريا وخاصة تدوين السنن (الاحاديث) وذلك لشيوع (٥) رواية الحديث وقلة الثقة ببعض الرواة وظهور الكذب فى الحديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)

(١) و (٢) ابن خلدون - المقدمة - الفصل الثالث والثلاثون ص ٥٤١

(٣) مزر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٣٢٦

(٤) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص ٤٥

Nickolson : Literary History of the Arabs. P.281.

(٥) ابن قتيبة : المعارف ص ١١٦ - طحطاوى خليفة كشف الظنون ج ١ ص ٨٠

وكان السبب المباشر للتدوين هو الخوف من ذهاب العلم بوفاة الرواة وكسان
 اول من تنبه الى ذلك هو أمير المؤمنين (الخليفة عمر بن عبد الميزز المتوفى سنة ١٠١ هـ
 فقد أمر واليهامدينة أبي بكر بن عمر بن حزم : بالنظر الى ما كان من حديث رسول
 الله (صلعم) ليكتبه لخوفه من دوس العلم وذهاب العلماء . . . وأمر ولاته ان يفتشوا
 العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم . فان العلم ليهلك حتى يكون سرا . . . (١) وقد
 اشار أمير المؤمنين عمر بن عبد الميزز في كتابه صريح بنشر العلم المدون قائلا لعماله
 على الامصار الاسلامية (. . .) اما بعد ، فمراهل العلم والفقهاء من جندك ، فليفتشوا
 ما علمهم الله من ذلك ، وليتحدثوا به في مساجدهم . . . (٢) على ان التدوين بالمعنى
 الحقيقي ابتداء بتدوين الحديث (فكان اول من دون العلم محمد بن شهاب
 الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ) (٣) ثم شاع امر التدوين في الامصار الاسلامية قبيل
 منتصف المائة الثانية من الهجرة ، وقد اشترك بعض اعلام المدرسة الدينية بعد انتقالهم
 في تلك الحركة التي كان لها اثر بعيد في حفظ العلم وشيوع المؤلفات العلمية ففى
 الامصار الاسلامية بعد ان كان العلماء يقتصرون على الحفظ ويتناولون العلم بطرق
 اخرى مثل التلقين (. . .) فكان اول من صنف وروى سعيد بن عروة المتوفى سنة ١٥٥ هـ
 والربيع بن صبيح المتوفى بالبصرة سنة ١٦٠ هـ ومعر بن راشد الصنعائي المتوفى
 سنة ١٤٥ هـ باليمن . . . (٤) ثم من بعد يسير صنف هشيم واليث بن سعد وعبد الله بن
 لهيعة ثم ابن المبارك وابن وهب وكثر تدوين العلم وتبويبه . وقبل هذا المصركان
 سائر العلماء يتكلمون عن حفظهم ويروون العلم عن صحف صحيحة غير مرتبة . فسهل
 تناول العلم . . . (٥) وكان لجهود علماء مدينة الفسطاط مثل ابن وهب واليث بن

(١) البخارى : الصحيح - كتاب العلم ج١ ص ٣٦

(٢) عبد الله بن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد الميزز ص ٨٠

ابن عبد البر : جامع بيان العلم ص ١٢٤

(٣) ابن قتيبة : المعارف ص ٤٨٨ - الفزالي : احياء علوم الدين ج١ ص ٢٩

(بولاق) - ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم ص ٣٧ - القريزى :

الخط ج٤ ص ١٤٣ - ١٤٤

(٤) الفزالي : احياء علوم الدين ج١ ص ٣٩ - القريزى : الخط ج٤ ص ١٤

ج٤ ص ٨٠

(٥) القريزى . الخط ج٤ ص ١٤٤ - ابوالعلاسن : النجوم الزاهرة ج١

ص ٣٢٠ - ٣٥١ السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦١

سمد وابن لهيعة أثر بعيد في المساهمة ببعض مدوناتهم " فقد كان ابن وهب يفوق بتصنيفه جماعة من الفقهاء المصنفين " وله من تصنيفه نحو مائة جزء " (١) قال ابن أبي الطم الرازي المتوفى سنة ٢٧٧ هـ طبعه : " " قيل لى بمصر ان احمد بن عيسى المصرى المعروف بالتستري المتوفى ٢٤٣ هـ قدم مصر واشترى كتب ابن وهب وكتاب الفضل بن فضاله " (٢)

وكان لشيوخ هذه المدونات أثر في ظهور طريقة اخرى للتصنيف والدراسة (وهى طريقة الاملاء التى كانت اعلى مراتب التعلم وكثيرا ما كان المتكلمون واللفزيون في القرن الثالث الهجرى يتبعون طريقة الاملاء " وكانت مجموعة المحاضرات التى تلقى بطريقة الاملاء تسمى الامالى " (٣) فكان الربيع بن سليمان أول من ألقى الحديث بجمع احمد بن طولون " فكان الاولاد يخرجون بعد الصلاة الى مجلس الربيع ابن سليمان ليكتبوا العلم مع كل واحد منهم ورقة وعدة غلمان " (٤) وقد اضطرت الحركة العلمية في القرن الرابع الهجرى نتيجة لشيوع الورق واقتصر الامر على تدريس كتاب يقرأ فيه احد الطلبة والمدرس يشرح " (٥)

-
- (١) عمر بن محمد الكندى : فضائل مصر ص ٤٠
 - (٢) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ١ ص ٥٩ - ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١ ص ٦٥
 - (٣) السيوطى : الزهر فى علوم اللغة ج ٢ ص ١٩٩ - متر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٣١٦
 - (٤) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٦٦ - السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٧٠
 - (٥) آدم متر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٣١٦ - ٣١٧

ولم يقتصر الامر على ذلك ، وإنما كان لشيوع هذه المؤلفات ان كان بعضها
يؤلف بتكليف خاص من الامراء (. . .) فقد أمر أبو الملك كافور الاخشيدى : عمر بن
محمد ابن يوسف الكندى بجمع وتأليف كتاب يذكر فيه أخبار مصر وما خصها الله
تعالى به من الفضل والبركات والخيرات (. . .) (١)

التخصص العلمى :

وكان للمعلوم التى سادت فى الفترة المبكرة من تاريخ الحياة العلمية طابع
مميز . انعدم فيه التخصص . فكان العالم الواحد يجمع بين انواع مختلفة من صنوف
الملم (لانه لم يكن هناك تخصصا دقيقا بين العلماء كالذى نعلمه اليوم . فلم
يكن هناك من تخصص فى الفقه فحسب أو الحديث أو التاريخ أو ما يشبه ذلك بل
كان العالم يلم بفروع مختلفة من المعلوم) (٢) . . . فقد كانت حلقة الامام الشافعى
المتوفى سنة ٢٠٤ هـ - بالمسجد الجامع بمدينة الفسطاط - تدور على كثير من
المعلوم العربية . فكان يبدأ حلقة بدروس القرآن ثم يأتى اليه طلاب الحديث
وفى الضحى تدور حلقة حول علوم اللغة والعروض والشعر والنحو . . . (٣) (وكان
عبد الله بن وهب بن مسلم القرشى المتوفى سنة ١٩٧ هـ فقيها ، محدثا . . . وكان
احد اعلام المدرسة المالكية البارزين) (٤) (قال عطاء بن رباح : ما رأيت
قط اكرم من مجلس ابن عباس اكرم فقيها واعظم خشية ، ان اصحاب الفقه عسده
 واصحاب القرآن عده واصحاب الحديث عده يصدرهم كلهم من واد واسع) (٥)

(١) عمر بن محمد بن يوسف الكندى : فضائل مصر ص ١

(٢) The Encyclopaedia of Islam, Art Masdjid, Vol.3. (٢)

(٣) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ١٧ ص ٢٩٩ - ٣٠١ - ابن حجر : توالى
P.365

التأسيص ص ٦٢ - النورى : تهذيب الاسماء ج ١ ص ٤٩ - ٥٠ - ابن

خلكان : وفیات الاعيان ج ٣ ص ٣٠٥

(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٣٢

(٥) ابن حجر : الاصابة ج ٤ ص ٩٤

" وكان الليث بن سعد (٩٤ هـ / ١٧٥ هـ) امام اهل مصر في الفقه والحديث معا " (١) قال يحيى بن بكير : ما رأيت فيمن رأيت مثل الليث بن سعد ، وما رأيت اكمل منه ، كان فقيه البلد ، عري اللسان ، يحسن القرآن والنحو والشعر والحديث — حسن المذاكرة " (٢)

خضعت العلوم والمعارف الاسلامية فيما بعد لعامل التطور الزمني وفهمدت في القرنين الثالث والرابع الهجريين ما يمكن ان نسميه بقدر من التجاوز التخصصي العلمي بين صفوف العلماء . وقد بدأت الدعوة نحو التخصص تأخذ طابعا خاصا ويمثل هذا في دعوة العلماء اليه (فكان العلماء يفرقون بين انفسهم وبين الادباء ، حتى قال ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٨٦ هـ) : " من أراد ان يكون عالما فليطلب سبب فنا واحدا ، ومن أراد ان يكون ادبيا فليتبع في العلوم وان يأخذ من كل شئ " (أحسنه) " (٣) ورغم ان مثل هذه الدعوة لم تتحقق الا في وقت متأخر الا انفسه صار لابد من تمايز العلماء انفسهم بالتركيز على مجال واحد او مجالين تبرز فيهما الملكة الحقيقية التي يتمتع بها هذا المالم أو ذاك (قال يوسف بن عدي (المتوفى سنة ٢٣٢ هـ) ادركت الناس فقيها غير محدث ومحدثا غير فقيه ، خلا عبد الله ابن وهب ، فأني رأيت فقيها محدثا زاهدا ، صاحب سنة واثارا) (٤) وهكذا نجد ان بعض العلماء امتازوا في بعض الميادين دون غيرها ، وما يذكر ان الدعوة الى التخصص النسبي كانت مقدمة نحو تمييز بعض العلوم ، فقد خرجت من بين فنون الاداب القديمة مجموعة من العلوم الدينية ولم يكن من العلوم حتى ذلك الحين ما له منهج علمي وأسلوب علمي ، سوى الفلسفة وعلم الكلام ، ثم صار لكل من التاريخ

(١) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج٣ ص ٢٨١

(٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج١ ص ٨٣٦ + ٨٣٧ — ابن حجر : الرحمة النخيشة ص ٦

(٣) ابن قتيبة : المعارف ص ٣٧٥ — ابن عبد البر : جامع بيان العلم ج١ ص ١٣٩ — ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ٩٣ — ٩٤

(٤) القاض عياض : ترتيب المدارك ج١ ص ٦٢٧ — ابن فرحون : الديم — اج العذهب ص ١٢٣

والجغرافيا واللغة منهجه الخاص " (١) وترك العلماء ما كانوا قد ألقوا قبل مسن اتخاذ المعارف وسيلة للتصليّة كما أنهم أصبحوا لا يغالون في حشد المعارف على تنوعها بل أقبلوا على الدراسة العلمية وعلى تنظيم المعارف وشحروا بها يجب عليهم من غاية ومحاسبة في تدوينها " (٢) جاء في مقدمة كتاب المقصور والمدود لابن ولاد النحوى المصرى المتوفى سنة ٣٣٢هـ (هذا كتاب تذكر فيه المقصور والمدود ، وماكنان مقبسا وغير مقبسا مؤلفا على حروف المصمجم ، ليقرب وجوه الحرف على طالبه ويسهل استخراجها من موضعه) (٣)

وقد كان لحركة الترجمة ونقل العلوم والمعارف القديمة أثر كبير في ظهور بعض المؤلفات التي لا شك أنها أفادت من تلك الحركة . وكان ذلك بعد مرحلة الاستقرار وضيغف المقول الى معرفة ما تحويه الثقافات القديمة (الاغريقية ، واليونانية) من علوم ومعارف . (٤)

" فكان سيبويه المصرى يتمثل بأقوال فلاسفة الاغريق " (٥)

وقد ألف ابن الداية كتاب (السياسة لافلاطون وشرح كتاب الثمرة " وهو كتاب بطليموس) (٦) وقد صار للعلوم الدينية كالطب والفلسفة أثر مذكور ففى القرنين الثالث والرابع من الهجرة .

(١) منز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج١ ص ٣٠١

(٢) المصدر السابق ج١ ص ٣٠١

(٣) ابن ولاد : المقصور والمدود ص ٣

(٤) احمد امين : ضحى الاسلام ص ١٣

(٥) ابن زولاقي : اخبار سيبويه المصرى ص ٣٥

(٦) ابن ابن اصيعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ج١ ص ١٢١ - باقوت

الحوى : معجم الادباء ج٥ ص ١٥٤

وكان هناك تفسيرات أخرى خاصة بعلوم الدين (فقد تميز علم الفقه عن غيره من علوم الدين • وأصبح العلماء فريقين : الفقهاء والعلماء على الحقيقة) . (١)

وكانت هناك طريقتان منهجيتان لضرب العلوم السائدة (النقلية والمقلية) :
 " فالعلوم المقلية مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل
 الا في الطق الفروع من مسائلها بالاصول " . (٢) ولذلك اعتدوا منذ البداية على
 الرواية وصحة السند • فهم يجمعون ما قاله السابقون وقد يرجحون قولاً على
 قول ويكاد يقتصر عليهم على التحقق من صحة النقل " . (٣)

" لأن اصل هذه العلوم هي الشرعيات من الكتاب والسنة " . (٤) فمسأل
 تعالى : (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) . (٥) وجاء في سورة القمر :
 (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر) . (٦) ومن هذا نجد ان الآسار
 قد جاءت بالقرآن الكريم الكتاب المنزل على عباد الله • تؤكد احتوائه على جماع
 الحقائق • وغطية المعارف • ولذلك لم يكن هم المسلمون الوصول الى الحقيقة والبحث
 عنها • ومن أراد الوصول الى الحق • فليحفظ القرآن • وسيع ما فيه " . (٧)

(١) متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج١ ص ٣٠٢

(٢) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الرابع ص ٤٣٥

(٣) احمد امين : ضحى الاسلام ص ١٦

(٤) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الرابع ص ٤٣٥

(٥) سورة فصلت آية ٣

(٦) سورة القمر آية ١٧ •

(٧) احمد فؤاد الهواني : التعليم في رأو القابض ص ١٩٢ •

وقد اختلف منهج أصحاب العلوم العقلية من دأرى الطب وخلافه عــــــن
المنهج النقلى فقد ركن أصحاب العلوم العقلية الى معقولية الحقائق وامتحنهمــــا .
متخذين اما سبيل المنطق واما التجريب العملى . (١) فهم يحكمون بالصواب والخطأ
بعد تمحيص للوصول الى الحقيقة . قال ابن خلدون : " ان العلوم العقلية هــــبسى
المعلوم التى يقف عليها الانسا ن بطبيعة فكره ويهتدى بمداركه البشرية الى موضوعاتها
ومسائلها وانطأ براهينها ووجوه تعليمها . حتى يقف نظره ويبحثه على الصــــواب
من الخطأ فيها " . (٢) وكانت هذه العلوم قد رسخت فى دولها من قبل فاستقرت
منهجها .

فبما يتعلق بنظم تعليم العلوم النقلية مثل الحديث والفقه — فلم يكن هناك
اجازة يشترط ان يحصل عليها المعلم ليكون صالحا للتعليم . حتى يرخى لــــه
بمزاولة المهنة وانما كان رسم ذلك كما يقول السيوطى : " ان من علم من نفسه
الاهلية جاز له ذلك وان لم يجزه أحد . وعلى ذلك السلف الاولون والصد ر الصالح
وكان هذا الرسم سائدا فى أفرع العلوم النقلية — مثل الاقراء والافتاء " . (٣)

ويبدو ان الرسم الذى استجد بعد ذلك بمنح الاجازات للقائمين بأمر
تدريس العلوم الدينية كان لارشاد طلاب العلوم الآخذين من هؤلاء العلماء .
قال السيوطى فى الاتقان (وانا اصطلاح الناس على الاجازة لان أهلية الشخص
لا يحملها ظاهرا من يريد الأخذ عنه من المبتدئين ونحوهم) . (٤)

(١) احمد امين : فحى الاسلام ص ١٦

(٢) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الرابع ص ٤٣٥

(٣) السيوطى : الاتقان ج ١ ص ١٢٨

(٤) السيوطى : السابق ج ١ ص ١٢٨

وقد أشار الفقهاء الى " انه لا يجوز أخذ المال في مقابل هذه الاجازات ولا الاجرة عليها " (١) وكان هناك بعض الاجازات التي منحها ائمة الفقه لبعض اعلام المدرسة الدينية بالفسطاط " فقد رحل ابن القاسم الفقيه المالكي المتوفى سنة ١٩١ هـ للاخذ عن الامام مالك بالدينة — وقد أجاز له مالك الرواية عنه وقال له : اتق اللبس عليك بنشر هذا العلم " (٢)

وفي الفترة المبكرة ظهرت بعض البوادر التي ربما توحى بادراك ائمة الفقه لمعنى التخصص البديهي " فكان الامام مالك يقول : " ابن وهب عالم " وابن القاسم فقيه " (٣)

أجور التعليم :

ومنذ البداية كان تعلم العلوم الدينية " يدرس بدون مقابل وقد ذهبت طائفة كبيرة من الفقهاء كالحنفية جميعهم وابن حنبل وسفيان الثوري وغيرهم الى انه لا يجوز ان يأخذ المعلم اجرا على تعلم القرآن والحديث " (٤) ذلك لان اقامة سنة رسول الله (صلعم) وتشبيد قواعد الاسلام وارشاد عباد الله الى الحق " قد استوجبت على القائمين بأمر التدريس (ان يكون تعليمهم العلوم الدينية — ابتغاء وجه الله تعالى والقيام بتعليم تلك العلوم تطوعا) (٥) وفي عصر الصحابة والتابعين ازداد التشدد في عدم اخذ الاجر عن العلوم الدينية " فحين فرض سعد بن ابسي وقاصبا بن ولايته على العراق (١٤ — ٢٠ هـ) عن يقرأ القرآن في الفين الفيسن ، كتب اليه عمر بن الخطاب ان لا يحط على القرآن احدا " (٦) ولعل هذا يوضح

-
- (١) السيوطي : الاتقان ج١ ص ١٢٨
 - (٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك ج١ ص ٦٥٧ — ابن فرحون : الديباج الذهب ص ١٤٦
 - (٣) ابن فرحون : الديباج الذهب ص ١٤٧
 - (٤) السمرقندي : بمستان العارفين ص ٤ — متر : الحضارة الاسلامية في القرون الرابع للهجرة
 - (٥) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ج١ ص ٥٢ — ابن جماعة : تذكرة السامع المتكلم ص ١٤١ — طاش كبرى زاد : مفتاح المعادة ج١ ص ٣٣
 - (٦) البلاذري : فتوح البلدان ص ٥٨

ما أشار إليه ابن خلدون * من أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والآذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب * (١) وقد فسرنا الاجر فقط على القصص * فقد كان رزق القاضي عبد الرحمن بن حجية الذي ولي القضاء والقصص من قبل عبد العزيز بن مروان سنة ٦٩ هـ — ألف دينار — مائتي دينار — من القضاء — وكان عطاؤه مائتي دينار — وكانت جائزته مائتي دينار * (٢) ومن المعلوم انه * قد فرض للمرب المستقيمين بمصر العطاء الذي كان يعطى لهم من بيت المال * (٣) وكان هذا العطاء يمثل الدخل الرئيسي لكثير من طلاب العلم في تلك الفترة * ولم يكن طلب العلم عملا يدر دخلا * وكان هذا العطاء قائما * ويقدر من ثلاثة أوجه :
 ا - عند ما يموله الشخص من الذراري والعماليك * والثاني : عند ما يرتبط به من الخيل والظهير ثم الموضع الذي يحله من الفلا * والرخس * فيقدر كفايته في نفقته وكسوته لعامة كله * فيكون هذا المقدار في عطاء * ثم تعرض حالة كل عام * فاذا زادت رواتبه الماسة زيد * وان نقصت نقص * (٤) وظل الامر على هذا الامر الى ان أمر الخليفة العباسي المعتصم بإسقاط العرب من الديوان سنة ٢١٨ هـ * (٥) فأتخذ العرب من الزرع معاشا وكسبا * ونزلوا القرى واختلوا بالمصريين * (٦) وزاولوا بعضا لأعمال الأخرى الى جانب الزراعة مثل التجارات وغيرها *

ولاشك ان مسألة الاجر كانت قد نشأت عن علة دينية — ولكن عندما صارت علوم القرآن الكريم طروما تدرس — أجاز بعض الامة أخذ الاجر عن تعليم القرآن — مثل مالك بن انس * (٧) وان كانوا قد اجزوا الاجر على تعليم القرآن فلا ريب

-
- (١) ابن خلدون : المقدمة — الفصل السابع من ٣٩٢
 (٢) ابن عبد الحكم : فروع مصر وأخبارها ص ٢٣٥ — الكندي : الولاء والقضاء ص ٣١٤ — ٣١٧ — الذهبي : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٧١ — ٢٧٢
 (٣) ابن عبد الحكم : السابق ص ١٠٢
 (٤) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٠٥
 (٥) الكندي : الولاية والقضاء ص ٢١٧ — المقرئ : الخطط ج ١ ص ٣١١
 (٦) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٨٢
 (٧) القاييس : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين * ملحق بكتاب * عبد العزيز الأهواني : التعليم عند القاييس ٢٢٩ — ٢٧٠

انهم لم يحرموه على بقية المواضع المدرسية. (١) وفي مصر " كان أول من عسرف
اقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جاز لطائفة من الناس يد يار مصر في خلافة العزيز
بالله - نزار بن الممزر - في وزارة يعقوب بن كلس - فعمل ذلك بالجامع الازهر " . (٢)
ولاشك ان الفترة التي حرم فيها أخذ الاجر على تدريس المعلوم الدينية كانت تتطلب سب
من دارس المعلوم الدينية شيئا من اليسر المادي الذي يتيح لاصحابه فرصة للتنقل
والترحال للاخذ عن الائمة والعلماء ولذلك كانت القدرة المادية عاملا هاما في انكسار
قوائح اصحاب الطوائف العلمية لانها كانت لا تشغلهم بطلب المعاش . وقد ذهب
البعض الى ان العلم لا يصلح الا لاصحاب الحسب والدين والسلطان (قال ابو بكر بن
عبد الرحمن : ان العلم لواحد من ثلاثة ، لذي حسب يزينه . او لذي دين يسوس به
دينه . او لمن يخطط بالسلطان ويدخل اليه بتحقه تعلمه وينفعه به) (٣) واذا القينا
نظرة فاحصة على اعلام المدرسة الدينية بمدينة القسطنطينية نجد ان معظم هؤلاء
الاعلام كانوا ذوي جاه ونفوذ وكان لبعضهم أملاك واسعة " . فقد كان اللبس
بن سعد المتوفى سنة ١٢٥ هـ كبير الديار المصرية وطلبها الانبل حتى ان نائب
مصر وقاضيهما من تحت اوامره . واذا ربه من أحد منهم امر كاتب فيه الخليفة في عزله .
وقد طلب منه المنصور ان يعمل نهاية الملك فامتنع " . (٤) كما كانت له ضياع واملاك
واسعة كانت تدخ عليه في كل عام خمسة آلاف دينار . وكان قد وصل بالملك بن انس
وعبد الله بن لهيعة كلا منهم بألف دينار . (٥) وكانت اسرة بنى عبد الحكم
من ذوي الجاه والنفوذ فكان عبد الله بن عبد الحكم عيدير هذه الاسرة والمتوفى
٦١٤ هـ قد استقبل الامام الشافعي حين قدمه الى مدينة القسطنطينية ووصله

(١) د . عبد العزيز الاخواني : التلميح عند القاسم ص ١٩٢ - وما ذكره من
مراجع

(٢) القهزى : الخطوط ج ٢ ص ٣٦٣
(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٧٦
(٤) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٨٠ - ٢٨١
(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٥١٢ - ابن خلكان : وفيات الاعيان
ج ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨١ - ابن حجر : الرحمة النبوية بالترجمة اللبثية ص ١٢٥
ابو الصمصم : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٨٢ - السيوطي : حسن المحاضرة
ج ١ ص ٣٠١

بالفد يتار. وأخذ له من ابنه صاعداً الآخرى كى يهتمين بها علىسى
أمره (١). وكان يحضر أعلام المدرسة الدينية ينفذون على غيرهم من العلماء الوافدين.
قال أبو جعفر محمد بن جرير الطهرى : " لما وردت مصر سنة ٢٥٦ هـ نزلت علىسى
الريح بمن سليمان فامر من يأخذ لى داراً قريبة منه ، وجاءنى أصطبه فقالوا :
تحتاج الى ... (٢)

وكان عبد الرحمن بن القاسم - الذى كان رئيساً للملكية بمصر - قد ورث من
والده القاسم بن خالد المتقى الذى كان يعمل فى الديوان ما يقرب من ألف مثقال وقد
رحل للاخذ عن الامام مالك بالمدينة (٣)

وأعطى محمد بن عبد الله العافى المالكى - المتوفى سنة ١٧٣ هـ - خمسين
ديناراً (٤)

وتذكر الرواية التاريخية " ان صالح بن طى العباسى لما خرج من مصر الى
الشام سنة ١٢٢ هـ - خرج بنفر من وجوه أهل مصر منهم غوث بن سليمان الحضرمى
وعمر بن الطارث الفقيه (٥)

(١) الكندى : الولاء والقضاء ص ٤٣٦ - ٤٤٠ - ابن خلكان : وفیات الاعيان
ج ٢ ص ٢٢٩ - ابن فرحون : الديهاج المذهب ص ١٢٤ - ابن الصمد
الحنبلسى : شذرات الذهب ج ١ ص ٣٤ - سيدة كاشف : مصر
فى فجر الاسلام ص ٢٨٠

(٢) باقوت المعوى : معجم الادباء ج ١ ص ٦٥٩

(٣) القاضى عباس : ترتيب المدارك ج ١ ص ٦٥٤ - ٦٥٩

(٤) القاضى عباس : المعانيق ج ١ ص ٣١١ - ٣١٢ - ٦٥٩

(٥) الكندى : الولاء والقضاء ص ١٠٥

وصها . يكن من الامر . فقد استقطب القرآن الكريم وهوم الدارسات العلمية
بالقطاط . وقد تهيأت السبل أمام دارس القرآن والتفسير .

فبالاضافة الى تشجيع الولاة وأولى الامر . كانت هذه الدروس تلقى على
الطلبة والراغبين فيه دون مقابل لان العلماء الدينيين كانوا يكرهون ان يأخذوا
المسلم على القرآن اجرا . (١) وقد كان الكثير من أفراد الشعب يتطوعون
للتعليم والدروس ونشر المعارف . (٢)



-
- (١) ابن قتيبة : المعارف ص ١٢٥ - ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ١٣ و ١٤
طاشكبرى زاده : مفتاح الصادة ج ١ ص ٣٣١
- (٢) طي حنى الخريوطلى : العرب والحضارة ص ١٨٤ .

٣- دور الديرين المصريين في الحياة الفكرية

المريسية

يمكننا ان نعز بين نوعين من الدراسات الادبية في مصر قبيل الفتح العربي وهما : الادب القبطي الذي كان يكتب باللغة القبطية ، و الادب الروماني الذي كان يكتب باللغة اليونانية . وكل منهما — في الواقع — كان يختلف عن الاخر في الاهمية ونوعية الدراسة . والحقيقة التي لا يمكن تجاهلها ان اقلية المصريين آنذاك كانوا يحملون فسي الزراعة ويتحدثون باللغة القبطية بينما يجهلون اللغة اليونانية لغة الحكام الرومان . ومن ثم كان النشاط الفكري للقبط ودراساتهم الالهية يتركز في الديرية حيث توجد المكتبات الفنية ، واتي في مقدمة هذه الديرية الدير الابيض بسوهاج . (١) ودير سانت ميخائيل ودير سانت مقار في وادي النطرون .

وكان كل دير من هذه الديرية وغيرها يضم عددا من الرهبان المثقفين الذين يقومون بترجمة الكتب اليونانية الى اللغة القبطية وايضا يقومون بنسخ الكتب القديمة .

(١) ويصرف ايضا دير بوشنود — ويوجد بأخميم على جبل يسمى جبل اديب فيسي النيل . ويمتاز هذا الدير بحسن البناء وباللون الابيض الذي اشتهر به . ولتحق به امنية واسعة . ويشرف الدير على حقول واسعة مزروعة يحيط بها اشجار النخيل . وتصفه بعض الروايات : " ويجري من النيل خليج طويل المدى كأنه السيف النقي من الصدا . وينتهي الى قلعة مشعة مبركة فيها اعداد المياه مجتمع شقى الدير يفصل بينهما الطريق — لا يرى مثل نزاهته في زمن الشتاء والربيع . يتضاحك في جنباته النوار . وتخضوفه شقائق الزروع وتكثر فيه معايد الطهر ويكون من الحسن في غيبة تلال الهصر . انظر : المصري : سالك الابصار ج١ ص ٣٧٤ — ٣٧٥

(٢) دير سانت مقار من أشهر الديرية بوادي النطرون بل من أشهر الديرية المصرية جميعها . وقد جرت المادة بين القبط انه لا تتم بطركية البطرك حتى يقوم القديس في هذا الدير بعد تقديمه في كنيسة الاسكندرية عقب اختياره بطركا ويقول القريزي ان المقارات ثلاثة اكبرهم صاحب هذا الدير ثم ابو مقار الاسكندري . ثم ابو مقار الاسقف . ووضعت هذه الجثث في توابيت خشبية . ويزورها القبط دائما . ويوجد بهذا الدير كتاب عربي من العاص لرهبان وادي النطرون .

انظر القريزي : الخطط ج٤ ص ٤٢٩ — ٤٣٠

وقد اشتهر بعض الرهبان بجودة الخط . ومن الاصل على ذلك رهبان نيرتولوان جنوب
الفيوم ويعتبرون من أشهر النساخ القبط وأحذقهم . (١)

ويؤكد لنا أهمية الدبر في النشاط الفكري والثقافة القبطية ما تشير إليه بمسح
الروايات التاريخية من أنه عند غزو القوس لمصر في عهد الرومان — أوائل القرن السابع
الميلادي أخذوا من بين الثنائيم كنوزاً علمية كانت تحلأ مكتبات الاديرة . وتقول بمسح
المصادر : " وأكبر ما حدث أن الدبر الكبير دبر الهانطون لم يصل إليه اذى ليمده
عن الاسكندرية . وأغلب الظن ان ما كان فيه من الكتب والنسوخات لم يمسسه سوء " . (٢)
كما ان القديس إيريميزئيلوس اصقف فقط — قد أوصى وهو على فراش الموت بكل ما عنده من
الكتب الى صديقه موسى الذي خلفه مطرانا على الابوشية وكتب ترجمة حياته . (٣)

وهذه المكتبات الدبرية كان اهم محتوياتها الكتب الدينية المسيحية التي كان
لزما على الرهبان قراءتها يوميا الى جانب ما يقوم الرهبان بتأليفه من كتب تتضمن اعمال
العهداء . وأخبار القديسين وترجمة المؤلفات اللاهوتية وتراجم مؤسري المذاهب الدينية .
وايضا تصنيف كتب في الحياة الدبرية وقواعدها . ولم يمتن هؤلاء الرهبان بدراستهم
التاريخ الا بتاريخ بطاركة الكنيسة القبطية وخاصة رهبان وادي النطرون ولم يمتن
القبط بالعلوم الاخرى اللهم الا غنايتهم بالطب وبعض تركيبات الادوية القديمة التي
ترجع الى العصر الفرعوني . (٤)

ونلاحظ ان مؤلفات القبط مصفة عامة كانت كثيرا ما تتضمن اشارات الى اسماء
البطالمة ودقلد يانوسوزينون . وبعضها اشارات الجغرافية لارنيا والفرس والجيفة . (٥)

(١) Munier : L'Egypte Byzantine. P. 87.

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٧

(٣) نفس المصدر ص ١٦

(٤) Munier : Op. Cit. PP. 87 - 88.

(٥) Ibid. PP. 88 - 89.

وفي الحقيقة لم يكن الادب القبطي أدبا دينيا فحسبه فقد كانت الآثار الدنيوية في الادب القبطي لا تقل روعة عن الآثار الدينية إذ حفظت لنا بعضا لا يبرح بعض الادب الدنيوية بالرغم من انصراف القبط في المصور الاولى عن تدوينها لارتفاع ثمن البردي والرق وقصرهم التدوين على الادب الديني وهناك كثير من الوثائق والرسائل التي توضع الحياة الدنيوية ونشاط الرهبان في الاديرة . وقد ازدهر الادب القبطي في القرنين الرابع والخامس الميلاديين . ثم خمد هذا النشاط نتيجة لاضطهاد الاباطرة الرومان وحكامهم وامتدحت له البلاد من الفزوة الفارسي . (١)

والى جانب الدراسات الادبية للقبط ، آنذاك ، نجد الدراسات الادبية الرومانية الفنية . فقد ورثت الثقافة الرومانية الدراسات البطلمية الى جانب الثقافة الهيلينية . والواقع ان ازدهار الثقافة اليونانية الرومانية في مصر جعلها من اهم مراكز الثقافة والنشاط الفكري في الشرق حتى الفتح العربي . وكان اهم المراكز العلمية في مصر في ذلك الوقت مدينة الاسكندرية . وظهر من بين الرومان الكتاب البارعون والفلاسفة والملهاء وكانت لغة هؤلاء هي اللغة اليونانية التي كانت اللغة الرسمية في مصر في الحكومة والكنيسة والمعاملات والتجارة . (٢) واستمرت هذه اللغة محفوظة بمكانتها بعد الفتح العربي لمصر .

ونلاحظ وجود دراسات ادبية سريانية في القرنين السادس والسابع الميلاديين . صرح وجود هذا الادب السرياني الى نتائج غزو الفرس لبلاد الشام وهجرة كثير من الملهاء السريان والاديان الى مصر خوفا من اضطهاد الفرس ونقل هؤلاء الملهاء والادباء معهم كثيرا من كتبهم وأساليبهم الادبية وقيل هجرة هؤلاء الملهاء ، كان في الاسكندرية بعض الملهاء السريان الذين قد ساء اليها بخبر داسة علوم الطب . وهكذا ظهرت اللغة والادب السريانية في مصر . ولا سيما في الاديرة التي نزلها هؤلاء السريان . وقد قام بعض هؤلاء السريان بترجمة بعض اجزاء الكتاب المقدس وكتب الطب الى اللغة السريانية وقد حفظتها

(١) مراد كامل : حضارة مصر في العصر القبطي ص ١١٥-١١٦

Munier : L'Egypte Byzantine. P. 89.

(٢)

لنا مكتمات بعض الاديرة . (١)

وهكذا استمرت حركة النشاط الفكرى التى بدأتها المدارس الوثنية تسمى واصحابها المسيحيون على مواطنى النهل . فظهرت دراسات فى الفلك والادب والعلوم اللاهوتية والفلسفة والطب وقواعد اللغة وغيرها من مختلف العلوم والاداب التى كانت مصدرا للنشاط الفكرى بعد الفتح العربى لمصر . (٢)

كان الفتح العربى ضربة قوية للادب القبطى ولكنه بالبحث ان سطت صخرة عظيمة وخلصت الفتح العربى ساعد على انتعاش اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية ، فقد شهد النصف الثانى من القرن السابع والقرن الثامن الميلاديين (القرنين الاول والثانى الهجريين) نهضة ادبية قبطية عظيمة تجمع بين الطابعين الدينى والدنيوى ولعل اكبر المواهب التى ساعدت على هذه النهضة ان نظام الاديرة قد أصبح نفسى ذلك الوقت أقل صرامة مما كان عليه من قبل وانه اتيح للربان فرصة القيام بشئى الحرف والاعمال كما سمح لهم بقراءة الكتب الدنيوية فى الاديرة ومن ثم بدأ هؤلاء الربان الكتابة والتأليف فى الشؤون الدنيوية . وشجعهم على ذلك ايضا ظهور الورق الذى حل محل البودى ورخص ثمنه حتى صار فى متناول الجميع . (٣)

وكان الادب القبطى يكتب باللهجة الصعيدية . ونجد فى هذا الادب الروايات القصصية والاشعار الدينية . واشتهر من بين القصص الدنيوية فى الادب القبطى

(١) Ibid., P. 89 ومحمد كامل حسنين : ادب مصر الاسلامية ص ٥

Munier : Op. Cit. . P. 90. (٢)

(٣) مراد كامل : حضارة مصر فى العصور القبطية و William, H. Worrell: Short account of the Copts. P. 31.

وفى الترجمة العربية لهذا الكتاب ص ١٢٣ (ترجمة مراد كامل)

قصة ثيودوسيوس * وديونيسيوس * وترجع الى اوائل القرن الثامن الميلادى *
 الثانى الهجرى — وطل هذه القصة صانع مصرى خدمه الحظ وبلغ منصب امبراطور
 اليونان * ثم حدث بمحض الصدفة ان التقى بمصدق قبطى له * فممنه رثيما لاساقفة
 العاصمة اليونانية * كذلك نجد من بين الاناث الادبية للقبط بعض اجزاء من قصة
 الاسكندر مترجمة الى اللهجة الصعيدية * وقد اوجع هذه القصة الى بعض الكتاب
 القبط بكتابة رواية قبيز والقبطية الاصل * وهذه القصة والواقع كانت تاريخا خاليا
 لشرو قبيز ملك الفرس لمصر * وتدل هذه القصة على وطنية عظيمة ومدى ما كان يعانسه
 القبط من كبت وضغط الحكام الاجانب * وقد عبره الكاتب فى اسلوب روايته
 ادهى رائع * (١)

وفى القرن الخامس الهجرى (الطادى عشر الميلادى) عنى احد الاساقفة
 القبط وهو الاسقف انبا اثناسيوس اسقف قوص فى مصر العليا بداسة اللغسة
 القبطية وقواعد ها وخاصة اللهجتين الصعيدية والبحيرية على نمط دراسة نحو
 اللغة العربية وقواعد ها * وقد أخذت اللهجة البحرية آنذاك تحل محل اللهجة
 الصعيدية فى الاهمية وفى الدراسات الادبية * وخاصة انها اصبحت لغة الكنيسة
 الرسمية منذ عهد البطرك انبا خريستودولس فى القرن الخامس الهجرى (الطادى
 عشر الميلادى) * (٢) وكان ذلك فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله *

والرغم من ذلك كان معظم اهتمام القبط فى مصر الاسلمية — كمعادتهم
 دائما بالعلوم الدينية والكتابة عن اعمال القديسين ومن اشتهر بالورع والتقوى وتركزت
 هذه الداسة بصفة خاصة فى دور العبادة ولاسيما فى الادبيرة * وكان من مميزات

(١) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص ١١٦ — ١٢٠
 William, H. Worrell : Op. Cit., PP. 31-32, 35-36

وفى الترجمة العربية ص ١٦٤ — ١٦٥

(٢) William, H. Worrell : Op. Cit. P. 46

والترجمة العربى ص ١٨١

الادب القبطى القصصى القصيرة لحياة الرهبان فى الاديوة . وكان هذا النوع من الادب يرمى فى الواقع الى التهذيب والاصلاح بين عامة القبط . (١) وكذلك كان القبط كثيرا ما يلقون كتبها فى آداب الكنيسة وطقوس العبادة وما يشابه ذلك من الدراسات الدينية التى كانت تجذب اهتمامهم دائما . (٢)

وانا كان هو شأن التشرى فى الادب القبطى فى مصر الاسلامية ، فانا نجد ان نظم الشعر كان مقتصر على مدح الملائكة والانبيا والقديسين والشهداء الساجد جانب الاشعار الكنسية التى تتضمن الصلوات وبعض الزامير من الانجيل وهذه الاشعار تسمى (الابصاليات) وهذه التسمية مأخوذة من الكلمة القبطية (بصالموس) ومعناها مزبور . اما الاشعار الاخرى فتسمى (الهوسات) وأصلها من الكلمة القبطية (هوس) ومعناها التسبيح . وتتركز هذه الاشعار فى كتابين هما الابصلمودية السنوية والابصلمودية الكيهكية . (٣)

وما يذكر ان الادب الصميدى فى العهد المتأخر قد كتب فى اسلوب شعري وبالرغم من ذلك لم يصلنا من اشعار القبط سوى ما قد كتب بالفهم . وكانت تمتاز بالصفة الدينية . ونذكر من الامثلة على ذلك قصة آلام المسيح . وكانت الاشعار الصميدية المتأخرة والاشعار القبطية تكتب فى اسلوب وطنى بحت ولم تلتزم نهج الاشعار الاغريقية . ولم يكن ذلك مميوزا من قبل فى الوثائق المصرية الاولى . وكانت هذه الاشعار لا تقرب بل تلحن . وتتضمن معانى هذه الاشعار الكبر من المعانى الادبية والحكم . وأولموا بصفة خاصة بأمثال سليمان وقصة ملكة سبأ . كذلك كانت قصة قسطنطين وظهور الصليب رواية غيالية ولكنها دينية . وأما تصورهم لتاريخ الكنيسة فكان اخلاقيا دينيا . (٤)

(١) The Encyclopaedia of Islam. Vol.2, Art Kibt. P.1002

(٢) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص ١٢

(٣) نفس المصدر ص ١٢١-١٢٢

(٤) ولیم وریل : موجز تاريخ القبط ص ١٦٥-١٦٦

وتذكر بعض المراجع الحديثة انه " لا تستطيع اللغة القبطية ان تفخر بشمسها •
مجيد بن أو مؤرخين متازين أو فلاسفة أو أحد من رجال العلم الفحول • فجل
الاداب القبطية دينية قلقة ما كان لدى القبط من علم وفصاحة ما سبب اهتمام
لغتهم وعدم انتشارها في العالم مع انه لا تكاد توجد لغة أقدم من لغتهم أو أغرب
منها أو ذات تاريخ مجيد كالتاريخها • (١)

واستمرت دور العبادة القبطية — أي الكنائس والاديرة — طوال تاريخ مصر
الاسلامية مركزا للدراسة والعلم • وكان في كل كنيسة كتاب باللغة القبطية من حياة
الاباء يقرأه القس صباح كل يوم • ولا يسمح لاحد منهم ان يقتنيه • وترجمت كثير من
هذه الكتب الى اللغة العربية • (٢)

وقد أهتم جل البطارقة بدقة خاصة بدراسة العلوم الكنسية فتحدثت النوايسة
القبطية عن اهتمام البطرك شنودة بالمعلم الديني في عهد الامير احمد بن طولون —
فتقول " وكان هذا الاب كثير الاهتمام بالكتب الهيكلية حتى انه كان له عدة من النساخ
ينسخون له كتب • وكان لا يكتب له الا قوم علماء جدد من خيرين بقرادة الكتب ما خلا
مخطوطهم • وكان اذا فرغ له كتاب يفرج به • كما يفرج ببناء بيعة • فيما ان يمسح
عليه ذهبا وفضة • • • (٣)

(١) Butler: The Ancient Coptic Churches, T. 2, P. 247.

كان الاهتمام بالدين وما يتعلق به من صفات قدماء المصريين المميزة • والواقع
ان آثار قدماء المصريين ما هي الا مظهر من مظاهر الديانة المصرية القديمة •
وان كل ما ظهر في مصر القديمة من فن وعلم كان من اجل خدمة الدين •
ومدنية قدماء المصريين مدنية فنية • ولكنها في الحقيقة دينية قبل كل شيء •
وذلك على عكس المدنية اليونانية التي كانت فلسفية اديبية ومن المعروف ان
الحضارة اليونانية قد التفت بالحضارة المصرية القديمة وامتزجتا ومع ذلك ظلت
المصريون يميلون الى الدين وما يتعلق به ولم يتناولوا العلوم الفلسفية بشيء •
من الاهتمام • انظر : محمد كامل حسنين : ادب مصر الاسلامية ص ٧

Butler : Op. Cit., T. 1, P. 96.

(٢) ابن المقفع : سير الالباء البطارقة م ٢ ج ١ ص ٦٣

وتتحدث الرواية القبطية أيضا عن اهتمام البطرك غبريال بن تريك الذى عاصر الخليفين الامر والحاظ الفاطميين بالمعلوم والكتب المختلفة . فتذكر انه كان عالما خبيرا وانه كان مجتهدا فى قراءة الكتب وتفسير معانيها والبحث عنها ، ناسخ جيسد قبطى وعربى ينسخ لنفسه كتب كثيرة ومجلدات اشترها من كتب الحقيقة والحديث ، مما يصلح للبهمة المقدسة والدين المسيحى . . . (١)

ومن بين الموضوعات التى كانت الاديرة مواكرا له ، واستبها والتصنيف فيها تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية ، وما قاموا به من الاعمال ، وما تم فى حياتهم من كرامات وعجائب . وكانت هذه السير مكتوبة باللغتين القبطية واليونانية . ويؤكد ذلك ما ذكره ساويرس بن المقفع فى مقدمة كتابه : " سير الالباء البطاركة " حيث انه لما عزم على تصنيف هذا الكتاب جمع تراجم البطاركة السابقين لمصر من الاديرة ، وخاصة دير القديس ابي مقارود بر السيدة بنسبا رديارات النصارى الى جانب سب ما كان بكنيسة الاسكندرية . وهذه السير والتراجم كانت باللغتين القبطية واليونانية . وانه عمل بمساعدة بعض اخوانه القبط على ترجمتها الى اللغة العربية لخدمة المصر الذى كان يعيش فيه (اى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) (الماهر الميلادى) ثم اضاف اليها تراجم البطاركة الذين عاصروهم وشاهد اعمالهم وما تعرضوا له من انصحاب وما تم على ايديهم من معجزات . (٢)

فلما عزم الشماس موهوب بن منصور بن مفرج الاسكندرانى على تكملة هذا العمل الملئى العظام الذى بدأه ساويرس قال : " انه لما كان من تقدم من السلف الاخيار رزقا الله بركاتهم ، قد اهتم وكتب سير البهمة ورتبها وشرح أمور البطاركة على كرسى البشير مارى مرقس الانجيلى بالاسكندرية وما جرى لهم وما أظهره الله سبحانه على ايديهم من المعجائب وايدهم به من الصبر والجهاد وقوة الامانة وارشادهم لبرعتهم ، وهدايتهم اياهم الى الامانة المستقيمة وتعليمهم الوسايا الانجيلية كما أمرهم السرب

(١) المصدر السابق م ٣ ص ٢٥-٢٦

(٢) ابن المقفع : سير الالباء البطاركة م ١ ج ١ ص ٨

جل اسمه " انا الخطي " البائس ان اجمع سيرهم واكتبها ليكون ذلك رجا لــــى
ولمن يقرأها بعدى . . " (١)

وكان مركز نشاط هذا الراهب الاديرة ايضا كمن سبقه وساعده فى هذا العمل
الاسقف الذى ساعد ساويرس من قهل فى الترجمة الى العربية وهو ابو حبيب ميخائيل
ابن بدير الله مشهورى . ويصف موهوب ما وجدته من هذا السير فى الاديرة قائلا : " فوجدنا
بدير السيدة بنمها فيها سيره اثنين واربعين بطركا من مارى مرقس الانجيلي السى
سيمون . ووجدنا فى دير الشهيد تادرس سيرة اربعة بطاركة من الاكسندروس السى
ظيال وهو تمام ستة واربعين بطركا . ووجدنا فى ديرنها ايضا سيرة تسعة بطاركة
من انبا مينا الى شنودة وهو تمام خمسة وخمسون بطركا . ووجدنا فى دير ابى مقار سيرة
عشرة بطاركة من ظيال السادس والخمسون الى سانوتيس الخامس والستون كتبها انبا ميخائيل
اسقف تنيس وهى بخط لقوط الراهب " فلما جمع هذه السير وبدأ فى تكملة الكتاب
بكتابة تراجم من عاصرهم من البطاركة فقاموا به من اعمال " (٢)

ومحمد ذلك اكمل هذا العمل العظيم يوحنا بن صاعد بن يحيى بن مينا
المعروف بابن القلزمى الكاتب . اذ جمع سير البطاركة التى انتهى موهوب مــــن
كتابتها . ثم زاد عليها سير من عاصرهم من البطاركة وشاهد اعمالهم وحضر قداساتهم
وتحدث معهم . (٣)

ونلاحظ اهمية هذا الكتاب فى تاريخ مصر الاسلامية اذ لم يقتصر على ذكر
تراجم البطاركة القهل واعمالهم فحسب بل انه يضم كثيرا من الاحداث السياسية

(١) ابن المقفع : سير الابهاء البطاركة م ٢ ج ٢ ص ١٥٩

(٢) المصدر السابق ص ١٥٩-١٦١

(٣) نفس المصدر م ٢ ج ٢ ص ٢٢٢-٢٢٣

والاقتصادية والاجتماعية • فضاء كبيرا ما يشير الى صلات مصر بالخلافة الاموية تسم بالخلافة العباسية • وذكر اسما • ولاية مصر وموظفيها الاداريين والماليين • ويتحدث عن استقلال مصر عن الخلافة العباسية في عهد الامير احمد بن طولون • كذلك تسمى فيه ما يشير الى • لوج مصر وايراداتها وما تعرض له البلاد من سنوات القحط والفناء • ذلك الى جانب روايات كثيرة عن الاعياد والمور الاجتماعية المختلفة ومـسـسـس جوانب الحياة الثقافية •

ومستطاع القول بان القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) قد تميز بكثوة ما ظهر فيه من المخطوطات باللهجة الصعيدية في الادبيرة المختلفة • وكان القبط آنذاك يكتبون على الرق • وكانت الصفحات كبيرة • كما كانت الكتابة تتميز بالروف الكبيرة • وكانت تختلف كل الاختلاف عن المخطوطات التي ترجع الى القرن السادس الميلادي مثلا • وكانت هذه المخطوطات تتضمن نفسى الواقع • الآداب الصعيدية القديمة مثل الكتاب المقدس وسير القديسين والمظالم وما الى ذلك • (١)

شهد العصر الفاطمي بصفة خاصة نهضة عظيمة للادب القبطي • وهذه النهضة تتمثل في ترجمة الكتب القبطية الى اللغة المصرية وتصنيف الكتب الجديدة باللغة العربية ايضا • ومن هذه الكتب ادب تاريخ القديسين وحياة الابرشودة والاب باخوم والاب باخون والاب بيزنيتوس وغيرهم • وهذه القوانين تتضمن اطراء وتقويظا لهؤلاء القديسين اكثر منه تاريخا أو تراجا لحياتهم • (٢)

وكان من بين العلوم التي يهتم بها القبط • المحر والطب • وكانوا نفسى الغالب ينظرون الى الطب على انه نوع من المحر • ولم يواجه القبط اى اهتمام

(١) ولهم ورك : موجز تاريخ القبط ص ١٨٠ -

(٢) The Encyclopaedia of Islam, Vol.2. P. 1002.

على الصل في هذه المبادئ ، طوال تاريخ مصر الاسلامية ومع ذلك لم يصل
اليها من كتابات القبط في هذا الشأن الا قدوا قليلا . ولم يكن هناك فاصل
بين النصوص العلمية وبين النصوص المحرية . وكانت هذه الكتابات في الغالب تتكون من
فقرات يختص كل منها بموضوع أو ألم معين مع الاشارة الى نوع المقائير المناسبة لمعالجة
ثم تحوى هذه الكتابات على بعض الكلمات البهية بعضها اسما ملائكتوا لبعض الاخر
ليمرالا خلوطا على هيئة حروف بفرض الابهام وكانت القبط يتخذون المقائير من كسل
مصدر ممكن . (١)

ويذهب بعض الكتاب المحدثين الى ان الثقافة القبطية ، مرت بمراحل ثلاثة :
أما الاولى فكانت قبل الفتح العربي لمصر . وفيها كان الادب القبطى يقف جنباً الى
جنب مع الادب اليونانى وكان مكتوباً على ورق البردى ويرجع تاريخه الى القرن السادس
الميلادى او ما قبله . وفي بعض الاحيان كانت الكتب تجمع بين اللغتين اليونانية
والقبطية . أما المرحلة الثانية فهي مرحلة ضعف شأن اللغة اليونانية وآدابها ، وانتماس
اللغة القبطية وآدابها بحب الفتح العربي لمصر واستقرار العرب في البلاد المصرية .
وقد ارتفع شأن القبط اليماقية آنذاك وكانت الادب القبطية تدون باللغة القبطية
وحدها دون اللغة اليونانية . اما المرحلة الثالثة فكان القبط خلالها يؤلفون كتبهم
في مختلف المجالات باللغة العربية . وقد بدأ تقريباً في أواخر القرن الرابع الهجرى
(الماخر الميلادى) بعد ان اصبحت اللغة العربية هي اللغة الدارجة في مصر
الاسلامية . وصارت جميع الكتب في الدراسات الادبية والدينية تؤلف باللغة العربية
منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أو قبل ذلك
بقليل . (٢)

وتؤكد لنا البعثات العلمية الاوربية والامريكية الى دير سنت كاترين بقبه
جزيرة سيناء في المصور الحديثة (اى القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين)

(١) وليم ويل : موجز تاريخ القبط من ١٧٨

(٢) Butler: The Ancient Coptic Churches, T.2. PP.254-255

ان المدير كان دائما المركز المجلس لمسيحي مصر، وأنه كان يضم مكتبة يوجد بها الكتب الدينية والدنيوية. وحدث في القرن التاسع عشر ان وصلت بحملات علمية روسية وألمانية الى هذا المدير للاطلاع على ما تضمه مكتبة هذا المدير. ثم جاءت بعثة امريكية في القرن العشرين (سنة ١٩٥٠ م) — بعثة طور سيناء — لتطوير المخطوطات بالميكروفيلم واشترك في هذه البعثة احد علماء كلية الآداب بجامعة الاسكندرية، وهو الدكتور عزيز موريال عطية، الذي وضع فيها رس علمية تحليلية للمخطوطات العربية المحفوظة بمكتبة هذا المدير والتي ترجع الى أقدم العصور. (١)

وفي آخر ايام سنة ١٩٦٢ م اشترك أحد علماء كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ايضا وهو الدكتور جوزيف نسيم مع بعثتي متشبهان ومنستون بأمركا في القيام ببعض الدراسات الفنية والآثار والتاريخية في دير سنت كاترين المذكور آنفا. (٢) وقد اسفرت نتائج هذه البعثات العلمية عن مدى ثراء مكتبة المدير المعنى وما تضمه من المخطوطات والوثائق التي ترجع الى عصور تاريخية مختلفة، والتي تدلنا على مدى ما كان عليه الدير من أهمية بالغة من النشاط الفكري للقبط في مصر الإسلامية.

وقد اسفرت نتائج هذه الدراسات على ان مكتبة هذا الدير تحتوي على اكثر من خمسة آلاف مخطوط ورشيقة. ويرجع تاريخ هذه المخطوطات والوثائق الى الفترة ما بين القرنين السادس والثامن عشر الميلاديين. وان هذه المخطوطات والوثائق مكتوبة بلغات متعددة هي العربية والسريانية والحبشية والفارسية واليونانية والسلافية والجورجانية واللاتينية والارمنية والبولونية. واكثر هذه المخطوطات في اللاهوت، والكتب الكنسية والدينية. ومنها ما هو في الفلسفة والموسيقى والرياضة والفلك والتاريخ والجغرافية والطب والقانون. أما الوثائق فأغلبها مكتوب باللفظة العربية والقليل منها باللغة التركية وهذه الوثائق في الغالب تتضمن عقودا ومراسيم ومشورات وصاهاوات وحجج وأوامر إدارية. وأقدمها يرجع الى العصر الفاطمي. (٣)

(١) عزيز موريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سيناء العربية ص ١٢١

(٢) جوزيف نسيم : دراسة وثائق المصريين الفاطمي والابوي بمكتبة سانت كاترين ص ١٢٩

(٣) عزيز موريال : الفهارس التحليلية ص ١٢٠-١٢٧ جوزيف نسيم : دراسة وثائق المصريين الفاطمي والابوي ص ١٨١-١٨٢

ومن بين مخطوطات الدير • مخطوطات لا قدم التراجع العربية لبعض أسفار
المهد بن القديم والجديد بالخطين الكوفي والنسخ • ومن بين هذه المخطوطات
أيضا التراجع العربية لمؤلفات القديس يوحنا الدهمقي الفيلسوف الشهير في عهد
بني أمية • وكتاب طب الميرون لملق بن عيسى أو كتاب الصلوات والتفاسير وتأريخ
حياة آباء الكنيسة وقوانين الرهبان وغير ذلك من الكتب المسيحية البهجة فان مكتبة
الدير تزخر بها • ومن الملاحظ ان هذه المخطوطات تنتهي بما يسمى القلوفونات
(Colophons) ويتضمن بعضها معلومات تاريخية ذات أهمية بالغة
لفهم حوادث العصر الذي يسجل فيه الكاتب ما يتضمنه هذا الجزء الأخير من
المخطوطات • (١)

وما تجدر الاشارة اليه غاية القبط وخاصة الرهبان منهم في الاديرة بتجليد
الكتب والمخطوطات • وزخرفتها • والواقع ان تجليد الكتب وزخرفتها فن مصري
قديم ثم ازدهر هذا الفن في مصر القبطية وخاصة بين الرهبان • وكما ان
اهتمامهم بتجليد الكتب • شأنها شأن غايتهم بنسخ الانجيل والكتب
الدينية • (٢)

ولا بد قيام الرهبان في الاديرة بهذا الفن • تتناز به مخطوطات دير سنت
كاترين من التجليد والزخرفة • ونذكر من الامثلة على ذلك مخطوطات ترجع إلى
القرون التاسع والعاشر والحادى عشر والثاني عشر الميلادية (الثالث والرابع
والخامس والسادس الهجرى) وموضوع هذه المخطوطات المهد القديم او مجموعة
زامبروتساييچ ورسائل بولس والاناجيل الاربعة • وغير ذلك من الموضوعات الدينية
البهجة • وقد جاء في وصف بعض هذه المخطوطات انها مغلفة بغلاف خشبي يكسوه
جلد بني داكن • مكتوب عليه بالخط الكوفي • وأحيانا اخرى يكون مكتوب بالخط
النسخ • (٣)

-
- (١) عزيز سوريال : الفهارس التحليلية ج١ ص ١٤
(٢) زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ص ١٧
(٣) عزيز سوريال : الفهارس التحليلية ج١ ص ١٧ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢٧

وجاء في وصف بعض المخطوطات الاخرى ان غلافها خشبي يكسوه جلد
بنى ومزين بأشكال هندسية على الطراز العربي ومخشوش بقماش كتابى غليظ ومكتوب
بالخطين الكوفى والنسخ . (١) ومضها ملف بغلاف خشبي مكسو بجلد بنى مزين
بنقوش بارزة ومكتوبة بالخط الكوفى . (٢)

وجاء أيضا في وصف بعض هذه المخطوطات ان غلافها من الخشب المكسو
بالجلد البنى الفائق وانه من الواضح انه كان مرصفا بحليات معدنية لم يبق
منها سوى حلقة واحدة وصلب نطس في منتصف الغلاف الايسر . وكان ذلك فى
القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . (٣)

ويبدو ان فن تجليد الكتب والمخطوطات فى مصر الاسلامية قد بلغ مداه
فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وان مصر صارت تصدر الى
بلاد الشرق الادنى كثيرا من المخطوطات الذهبية والمصورة الرائعة الجمال . وهناك
انجيل يرجع تاريخ نسخه الى سنة ١٠١٠ م وهو غنى جدا بزخارفه وألوانه الزرقاء
والحمرات والذهبية . (٤)

وقد نقل المسلمون عن القبط اهتمامهم بتجليد الكتب والعناية بزخرفتها
ويمكن القول ان المسلمين مد ينون للقبط بمعرفة المصنف اى ما جمع من الصحف بهن
دفتى كتاب مشهود . (٥) ونتج عن ذلك عناية المسلمين بتجليد القرآن الكريم ،
هأنهم فى ذلك شأن عناية القبط بتجليد الانجيل والكتب الدينية . وما ورثه
المسلمون عن الفن القبطى فى صناعة التجليد اللسان الذى عرفه المجلدون نفسى

(١) عزيز سوريال : الفهارس التحليلية ج ١ ص ١٤٦

(٢) المصدر السابق ص ١٤٥

(٣) نفس المصدر ص ١٩٤

(٤) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٠١

(٥) نفس المصدر ص ١٠٦

فى الاديرة القبطية . والواقع ان جلود بعض المطاحف المحفوظة فى دار الكسب
المصرية تدل على الاثر القبطى الواضح . كما ان بعض هذه الجلود مزين بزخارف
نباتية قبطية الطراز . (١) ولعل ذلك ناتجا عن اعتماد المسلمين على
القبط فى تجليده كتبهم . فى كثير من الاحيان ، او تأثرهم بالفن القبطى فى
ذلك الحين .

اذا كان ذلك هو شأن الثقافة والادب القبطان فى مصر الاسلامية فى ذلك
العصر (من سنة ٦٠ هـ الى سنة ٥٢٧ هـ = ٢٤١-١٢٧١ م) نجد ان اليهود ايضا
كان لهم ثقافتهم وآدابهم الخاصة بهم .

وكما تميزت الثقافة القبطية وآدابها بالاهتمام بالدراسات والعلم الدينية
فقد اهتم اليهود بالدراسات الدينية والعلم المبرية . والحقيقة التى لا يمكن
تجاهلها اننا نكاد لا نسمع شيئا عن اليهود ودورهم فى المجتمع المصرى قبل
النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وعليه نجد ان ازدهار
الدراسات المبرية والادب اليهودى فى مصر كان حوالى أواخر القرن الثالث وأوائل
القرن الرابع الهجرى (التاسع الماشر الميلادى) . ونلاحظ بصفة
عامة عدم اهتمام مؤرخى مصر الاسلامية ، المسلمين منهم والقبط بالاشارة فسمى
كتبهم الى اليهود ، ودورهم فى الحياة المصرية . ومن ثم كان جل اعتمادنا يكاد
يقصر على المصادر الاجنبية الحديثة التى تعتمد على بعض الوثائق والمصادر
اليهودية (وخاصة الـ Cairo Geniza) التى نقلت الى اوروبا وأمريكا فى
القرن التاسع عشر الميلادى .

كان جل اهتمام اليهود كما ذكرنا من قبل بالدراسات الدينية المبرية
ودراسة اللغة المبرية وقواعدها ودراصة الفلسفة وأدخالها فى الدراسات المبرية .

(١) زكى محمد حسن : بعض التآثيرات القبطية ص ١٢١-١٨١

وقد زاد فى نشاط اندااسات الدينية والادبية ماكان بين الرمانيين والقراءيسين من جدال ومناظرات . وهذا النشاط الفكرى الواضح يتمثل فى جهود أحسد اليهود الرمانيين ومسى سعيد الفيوسى (وقد تحدثنا عنه فى الفصل الاول من هذا الباب) وقد نشأ بالفيوم ووجد بيئة مناسبة لتوسيع مداركه ومعارفه عن المعلوم والكسب اليهودية . (١)

وقد ألف سعيد الفيوسى عددا من الكتب اليهودية باللغة العربية . فكان له مؤلفات فى العقائد والمذاهب ، كما أنه قام بأول ترجمة عربية للتوراة (أى كتاب اليهود المقدس) مع إضافة بعض التعليقات والتفسيرات والشرح لبعض محتوياته ، حتى يسهل على طائفة اليهود فهمه واستيعاب ما جاء فيه . كما قام بدراسة علمية لقواعد اللغة العبرية وصنف معجما لها مع ما يقابلها باللغة العربية أى أنه صنف قاموسا عبريا عربيا . (٢)

وكان هذا اليهودى أول من اهتم بدراسة الفلسفة وأدخالها بين الدراسات اليهودية . ومن ثم يعتبر مبتدع الفلسفة الدينية فى العصور الوسطى . كما نبه (٣) فى دراسة التلمود الذى يتضمن شرائع وسنن اليهود كما اهتم بدراسة أدب القراءين .

Mann : The Jews. T.1. P.15. (١)

The Itinerary Benjamin: T.2? P.244 et, Maurice Fargon: Les Juifs, P.115. (٢)

(٣) القراءون أحد طوائف اليهود الثلاثة - الرمانيون والقراءون والماسرقي وكانت لهم مدارسهم الخاصة فى الدراسات العبرية والادب اليهودى . ونبغ منهم فى أوائل القرن العاشر الميلادى عدد كبير منهم سلمان بن جروهمام

دع

Soloman b. Jeremiah - الذى كان أول من صنف

كتابا فى تفسير التوراة وناقش أيضا الكتب التى تدور حول المعقسات ومنهم أيضا مينا هم غزنى Menahom Gizni فى مدينة الاسكندرية واشتهر بنظم الشعر . وازدهرت مدارس القراءين فى الاسكندرية فى القرن

١٢ م . انظر The Jewish Encyclopaedia, Vol.V., P.70

وصنف كتابا في صلوات اليهود وما تجب ان تكون عليه صلاة اليهودى الورع. (١) وقد زاد اهتمام اليهود بدراسة الكتب المقدسة والكتب الدينية في آواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وكان على رأس اليهود المهتمين بذلك شطاريا بن الحاشان Shamarya b. Elhanan وكان واعظا مشهورا ، امتاز بمواعظه وخطاباته وشرح حسمه وتفاسيره لكثير من الامور الدينية حتى انه اشتهر بتأسيس مدرسة لدراسة التوراه انضم اليها اليهود المتحمسون لتعاليمه وآرائه. (٢) كما اشتهر بعضهم بتصنيف الكتب في الطقوس الدينية. (٣)

وهكذا مارس كل من القبط واليهود نشاطهم الفكرى فى مختلف الميادين بسن بحرية كاملة دون مطولة من جانب الحكام المسلمين فى مختلف المصور لا يقف هذا النشاط أو اضعافه ولعل ذلك يؤكد مانواه من انه من الحسير قبول الروايات التاريخية المتأخرة القائلة بان العرب قد أحرقوا مكتبة الاسكندرية عقب استقرارهم فى مصر. وموضوع حريق العرب لمكتبة الاسكندرية قد أفاض بعض المؤرخين المحدثين البحث فيه (٤) ورأوا جميعا عدم التسليم بهذا الاتهام الباطل. وفندوه بأراء وحجج مختلفة.

وما لاشك فيه ان التأثير والتأثر كان متبادلا بين المسلمين والقبط طوال تاريخ مصر الاسلامية. فالعرب كما ذكرنا — انظ — لم يتمضوا للنشاط العلمى لاهل الذمة فى مصر ، وتركوهم يبحثون فى الميادين الفكرية المختلفة الادبية والمقلية التى عمل العرب على الاستفادة منها ، وحسبنا دليلا على ذلك ما ذكره ابن النديم (٥)

Maurice Fargon : Les Juifs. P. 115. (١)

Mann : The Jews, T. 1, PP. 27 - 28. (٢)

Ibid. P. 28. (٣)

(٤) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣٣٠-٣٣٦ — بقلر : فتح العرب

لمصر ص ٣٤٨ — ٣٧٠ ايريس حبيب العصرى : قصة الكنيسة القبطية ، الكتاب

الثانى ص ٢١٥ — ٢٢٠

(٥) الفهرست ص ٣٥٦ — مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

من ان خالد بن يزيد بن معاوية لما رغب في دراسة علم الكيمياء والاحاطة بكسبل جوانبه استعان ببعض المصريين المشهورين في هذا الميدان . وكان هؤلاء المصريين في الغالب من الفلاسفة اليونان الذين فضلوا البقاء في مصر في ظل الحكم الاسلامي وألم الكثير منهم باللغة العربية . فعهد اليهم خالد بن يزيد بترجمة الكتب اليونانية والقبطية التي صفت في هذا الميدان (اعميدان الكيمياء او الصنعة كما يسميها العرب) الى اللغة العربية وذلك حتى يمكنه دراستها والاستفادة بما جاء فيها . كما كان ذلك اول ترجمة من اليونانية والقبطية الى اللغة العربية .

لم يقف الامر عند هذا الحد بل نجد ان القبط الذين تحولوا الى الاسلام أو الذين ينحدرون من أصل قبطي ، وأسلم اجدادهم ، قد شاركوا في الحياة الادبية العربية مشاركة واضحة فعالة . وأقبلوا على دراسة العلوم الاسلامية وظهر هذا واضط منذ أواخر القرن الثاني الهجري فقد تفوق مثلاً في قراءة القرآن ، أحد المصريين المنحدرين من أصل قبطي وهو عثمان بن سعيد الملقب بورش . وقد انتهت اليه رئاسة الاقواء بالديار المصرية . وكان الى جانب ذلك متميزاً في علوم اللغة العربية وآدابها وتوفي ورش في سنة ١٩٧ هـ (١)

وظهر ايضاً من بين المصريين من له شأن في اللغة العربية وآدابها

وتعتبر المصادر الى ما يوضح ذلك . فحين قدم الامام الشافعي مصر (وهو الامام الحجة في اللغة العربية وعلوم الدين) التقى باحد المصريين ويعرف باسم سرج الفول وكان حجة في فقه اللغة . وقد اشتهر ان الامام الشافعي به وكان يذاكره وينظره ويبدى اعجابه بخزارة علمه . (٢)

(١) ابو المطمئن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ - السيوطي : حسن المطهرة ج١ ص ٤٨٥ - احمد امين : ظهرا لاسلام ج١ ص ١٦٣ - ويقال انه لقب بورش لشدة بياضه وقيل انه لقب ايضاً بالورشان وهو طائر معروف ثم خفف الى ورش . انظر السيوطي : حسن المطهرة ج١ ص ٤٨٥ .
ابو المطمئن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ١٥٥

(٢) السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص ٢٥٢

وممن نبغ من المصريين وشارك في الحياة الادبية العربية في القسطنطينية
الثاني الهجري وبداية القرن الثالث الهجري ابو عبد الله احمد بن يحيى التجيبي
ولاء البصري الحافظ النحوي احد الائمة • وكان اكثر اهل زمانه النما بالشعر والادب
والتاريخ والعلوم الدينية • وفي هذا يشهد باشتراك مصري في الحركة الادبية العربية
اشتراكا قوميا منذ ذلك العهد • (١)

كذلك شهد عصر الولاة العباسيين نبوغ بعض العلماء المسلمين الذين
ينحدرون من اصل قبلي • ومن أمثلة هؤلاء ابن الفطاس سميد بن زياد • وكسان
من اهل الديانة والفلسفة • كما كان له حلقه في المسجد يلقى فيها دروس الفقه • وايضا
سميد بن تليسد • كاتب القضاة في عهد لهيعة بن عيسى ويحيى بن بكر القبلي
المؤرخ وأحد تلامذة الليث بن سعد • ومن أساتذة المؤرخ المصري عبد الرحمن بن
عبد الله بن عبد الحكم • هؤلاء جميعا أحسنوا دراسة اللغة العربية والمعلوم
الاسلامية • (٢)

ولا غرو فان انتشار اللغة العربية تدريجا كان طملا مساعدا على وجود
بعض فقهاء في اللغة القبطية من القبط وأصبحوا في المقدمة بين فقهاء النحويين
واللغة • وقد تشبع هؤلاء بالثقافة العربية • وأخذوا علماء النحويين نموذجاً
لهم يحملون على نمط أعمالهم في دراسة نحو اللغة وقواعدها • وأول من نبغ
في ذلك اثنا سيوس في القرن الخامس الهجري (الطدي عشر الميلادي) وألف
اثنا سيوس كتاباً في نحو اللغة القبطية وقواعدها كما يفعل العلماء المسلمون في دراسة
قواعد اللغة العربية ونحوها • (٣)

(١) سيدة كاسيف : مصري فجر الاسلام ص ٢٦١

(٢) محمد كامل حسنين : أدب مصر الاسلامية ص ١٤٥

(٣) Worrell : A Short Account of the Copts. P. 45, and The Encyclopaedia of Islam, Vol.2. P. 1003.

وظهر بوضوح عناية من أعلام من أهل الذمة بالدراسات الإسلامية الدينية والأدبية منذ أواخر عهد الأمراء الأخشيديين وطوال عصر الخلفاء الفاطميين بصفة خاصة . ونذكر من أصدق الأمثلة على ذلك يعقوب بن كلس اليهودي الأصل الذي أسلم في إمارة كافور الأخشيدي في منتصف القرن الرابع الهجري . (الماشر الميلاي) فيقول ابن سعيد الانطاكي (١) كان يعقوب بن كلس يحب العلم وأهله ويقرب إليه أهل العلم والأدب . ولغ ما كان يجنيه الوزير شهريار على أهل العلم من المقرئين إليه والوراقين والقاسخين ومجلدين الدفاتر ، ألف دينار في كل شهر .

ولما تحول يعقوب بن كلس إلى الإسلام بادىء راسة القرآن وتعلم على علماء الفقه والنحو وسائر العلوم الإسلامية . (٢) ولما ارتفع شأنه في عهد الخليفتين الفاطميين المعز والمعز زاد عنيته بالدراسات الإسلامية الدينية والأدبية . كما عني بداسة الطب وقرب الأطباء إليه . وتذكر المصادر أنه كان يجمع الأطباء في داره كل يوم ، ليشرفوا على حلة الفلمان الصحية ، وعلاج من يحتاج العلاج منهم . (٣)

ويبدو أنه كان في داره مكان مخصص للعلماء والأدباء والشعراء والفقهساء وكان يجتمع بهؤلاء مرة كل أسبوع ، ويمقد معهم المجالس والمناظرات العلمية . كما كان يخصص في داره مكان للنساخ ومنهم من أخص بنسخ القرآن ، أو بنسخ كتب الفقه والنحو ، أو نسخ كتب الطب أو كتب الأدب والحديث وغير ذلك من مجالات الفكر . وكان هؤلاء يمارضون الكتب ، أي يوازنون بين نسخ الكتاب الواحد ، ويكملونها ، وينقونها . (٤)

(١) صلة تاريخ أوتيسخا ص ١٦٤

(٢) ابن زولاقي : كتاب اخبار سيمويه ص ٧٥

(٣) المقرئى : الخطاط ج ٢ ص ٨

(٤) نفس المصدر ص ٩٨

وامتدت غاية ابن كلس بمختلف العلم والاداب الى تأليف كتب في
الدراسات الاسلامية منها كتاب في القراءات وكتاب في الاديان وآخر في آداب رسول
الله ورايع في علم الابدان وصلاحها ومطامير في الفقه (١) وهذا الكتاب الاخير
فرغ ابن كلس منه في سنة ٣٧٠ هـ في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله . وقد
قرأه على جماعة من الفقهاء وأهل الفتيا . وقال انه أخذ هذا الكتاب عن الخليفة
العزيز بالله عن آبائه الكرام . واشتهر هذا الكتاب باسم الرسالة الوزيرية . وقد اجتمع
على تصنيف هذا الكتاب اربعون فقيهاً (٢)

والى جانب ذلك كان ابن كلس يجلس كل يوم جمعة في الجامع ويقدم
مصنفاته المختلفة على الناس ويجلس اليه القضاة والفقهاء والقراء واصحاب العدد يست
والندوة والشهود . ومنه ان ينتهي ما يقرأ ينشد بعض النظم في مدحه والاشادة
بأعماله (٣)

ويبدو ان ابن كلس كان ينشد الشعر . فتشعر بعض المصادر الى انه كان
له وللخليفة طيور حسنة يعنى كل منهما بتربيتها وكان يجرى بينها سباق . فحدث
ان سبق طائر ابن كلس طائر الخليفة . مما أغضب الخليفة وأتاح الفرصة لبعض
خصوم ابن كلس للطمع فيه لدى الخليفة . فأنشد ابن كلس قائلا :

قل لامير المؤمنين اندي له الملى والنصب انثاقب (٤)
طائر ك السابق لكنسه جاء وفي خدمته الطجب

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٩

(٢) ابن الصيغى : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٢

(٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٩

(٤) ابن زولاى : اخبار سيديويه ص ٧٥

واستفادت مكتبة القصر الفاطمي استفادة عظيمة من شقف ابن كلسري المعلوم
والاداب ، وولعه بجسج الكتب المختلفة ، ونقلت معظم كتبه الى مكتبة القصر ،
بعد وفاته ، حيث استفاد منها الفقهاء والعلماء ، وكتاب الحديث والادب
والطب . (١)

ومن الذين تحولوا الى الاسلام ، وهنوا بالدراست الدينية ابو علي
الحسن بن ابي محمد ابراهيم بن سهل التستري وكان يهوديا ثم اسلم في عهد
ال خليفة الفاطمي المستنصر بالله ، وعنى بدراسة القرآن وحفظه . (٢) ومنهم
ايضا ابن ابي زكريا بن ابي غالب ، وكان قبطيا ، واسلم في عهد الخليفة الحاكم
بأمر الله ، وعنى بدراسة العلوم الاسلامية الدينية - فحفظ القرآن ونسخه بخطه
ودرس كتب الحديث والفقه ، وصنف كتبها في هذه المجالات . (٣) وهكذا ساهم
القبط واليهود الذين تحولوا الى الاسلام بدور فعال في الحياة الثقافية ،
والنشاط الفكري في مصر الاسلامية الى جانب نشاط القبط في العلوم والاداب في
دور المبادة ، ونشاط اليهود ايضا في الدراسات المبرية .

والى جانب الدور الذي قام به أهل الذمة في مصر وخاصة من اسلم منهم
في الدراسات الاسلامية الدينية واللغوية ، كان هناك اهتمام بالعلوم الفلسفية
التي كانت تشمل دراسة الطب والفلك والالهييات وما الى ذلك . وهذه الدراسات
في الواقع من بقايا مدرسة الاسكندرية التي ضعف شأنها بعد الفتح العربي للمصر
جانب اقبال المصريين على الثقافة المبرية وتعلمهم لغتها ، والبحث

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٢

(٢) ابن الصيرفي : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٥٧

(٣) ابن زعبي الانطاكي ص ٢٣٨ - وقد عاد الى المسيحية في خلافة الظاهر
والتص منه المسلمون ان يعيد اليهم ما كتبه وما اقتناه من العلوم
الاسلامية .

في علومها الدينية • بينما اهتم رجال الدين المسيحي بدراسة الفلسفة وغيرهما من العلوم • وقد ساعد هم على ذلك اختلاف العقائد والمجادلة بين المذاهب المسيحية المختلفة اذا التجأ كل مذهب الى الاستعانة بالفلسفة اليونانية في تأييد رأيه • نضيف الى هذه العياديين ايضا اهل الذمة • وكان علمهم فيها يتطلب قراءة الفلسفة اليونانية • (١) وسنذكر امثلة لاشهر الاطباء من اهل الذمة في مصر الاسلامية •

وشارك بعض القبط واليهود في مجالس الادب والعلم في بلاد الاسكندرية والخلفاء المسلمين وفي مقدمتهم احمد بن طولون الذي كان مولعا بوجوه فلسفة علوم المصريين وآثارهم وتاريخ مصر وجغرافيتها • فاستدعى الى دار الامارة احمد القبط اليعاقبة • وكان قريبا في بلاد الصعيد — وكان مشهورا بالعلم وبدراسة المذاهب الفلسفية والمثل والنحل المختلفة عالما بأخبار البلاد والملوك والفلك والتجوم وغير ذلك من العلوم • وقد استفسر منه الامير ابن طولون عن كثير من اخبار مصر وجغرافيتها • (٢)

وكان احمد بن طولون يدعو هذا القبطي الى مجالس العلم والادب • فيشترك في المناظرات والجدل بين العلماء والمسلمين او بين القبط واليهود • وقد سأل ابن طولون عن مهمة دين النصرانية • (٣) وكان من بين الحاضرين طبيب

(١) احمد امين : ظهر الاسلام ص ١٧٢ — ١٧٤

(٢) المسعودي : موج الذهب ج ١ ص ٣٤٧ — ٣٥٣ — الاستبصار في عجائب الاصار ص ١٠٤ — ١٠٣

(٣) المسعودي : موج الذهب ج ١ ص ٣٥٣ — اجاب القبطي على سؤال ابن طولون قائلا " دليلي على صحتها وجودي اياها متناقضة متنافية تدفعها المقول وتفرمها النفوس لتباينها وتضادها لانظر يقويها ولا جدل يصححها ولا برهان يعضدها من العقل والحسن عند التأمل لها والفحص عنها • ورأيت مع ذلك اما كثيرة وطوكا عظيمة ذوى معرفة وحسن رأى قد انقادوا اليها • وتدبروا بها فعملت انهم لم يقبلوها ولم يتدبروها • الا لدلائل شاهدة وآيات علموها ومعجزات عرفوها • أوجبت انقيادهم اليها والتدبر

الامير اليهودى سعيد بن نوفيل — فاستأذن ابن طولون فى مناظرة هذا القبطى الذى اخذ يحط من شأن اليهود . (١) ، وأقام هذا القبطى فى غياقة الامير ابن طولون ما يقرب من سنة ثم عاد الى بلاده مكرماً . (٢)

لعلنا فى دراستنا لدور اهل الذمة فى الحياة السياسية ، ان المستخدمين من القبط واليهود كان يخدم كل منهم اخوانه فى الدين ويوعون مصالحهم — وقد علا شأن كل من القبط واليهود فى عصر الخلفاء الفاطميين . وقامت المناظرات بينهم . ان كان كل فريق منهما — اى القبط واليهود — يمتدح على الفريق الآخر ويحمده لمكانته لدى الخلفاء . وطلب بعض اليهود من الخليفة الممزر لدين الله ان يسمح لهم بمناظرة القبط فى حضرته فكان ذلك . (٣)

ومن ثم كان كل من اليهود والقبط — يلم يعلم الدينيين اليهودى والمسيحي ويعرفون ما جاء فى التوراة والانجيل وتصدى كل فريق رغبته فى المجادلة الفريق الآخر والحق من شأنه وأبراز ما يراه نقائص فى دينهم ، وكثيراً ما شهدت بلاط الامراء بالخلفاء المسلمين مثل هذه المناظرات والمجادلات الدينية .

بها " فلما سأله الامير عن الفضايل التى فيها قتل : وهل يدركها أم يعلم غايته منها قولهم بأن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ووضعهم الاقانيسم والجوهر . وهو الثالث وهل الاقانيم فى انفسها قادرة على ان لا ؟ وفى اتحادهم القديم بالانسان المحدث وما جرى فى ولادته وصلبه . . . ووصف للامير ما حدث فى صلبه .

انظر : نفس المصدر السابق ص ٣٥٣—٣٥٤

(١) المسمودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٥٤—٣٥٥

(٢) نفس المصدر ص ٣٥٥—٣٥٦

(٣) ابن القفيع : سير الابرار البطارقة م ٢ ج ٢ ص ٩٢—٩٣ ، ص ٣١٠—٣١١

Le Synaxaire Arabe Jacobite, T.2, PP.310-311.

وهكذا كان لاهل الذمة في مصر الاسلامية نشاطهم الفكري الذي تميزوا به
بالاهتمام بالدراسات الدينية خاصة الى جانب بعض الدراسات الادبية الدقيقة
وكانت مراكز نشاطهم في دور عبادتهم المختلفة التي اشتهرت بالمكتبات الفنية القيمة
وضمن الكتب والمخطوطات في مختلف المجالات. هذا الذي جانب مشاركة البعض
منهم في الثقافة العربية وقيامهم بدور له اهميته في الدراسات الاسلامية المنهجية
والادبية. واشتهر من بينهم كثير من المفكرين والكتاب والاطباء.

٤- دور الصطبة والتابعين والقضاة في التعريب وفي النهضة الفكرية

ظفرت مدينة القسطنطينية بجمود كبير من الصطبة الذين وفد بعضهم من
الجيش العربي الفاتح الى مصر ، ومن هؤلاء الصطبة من كان يفتى زمن النبي (صلى الله عليه وسلم)
وكانت له به صفة ، ومن أبرز هؤلاء " عوي بن الحارث " قائد الجيش المصري
الاسلامي الذي فتح مصر واميرها بعد الفتح - وقد استقر بمدينة القسطنطينية بعد
تأسيسها " (١) . ومنهم ايضا " ابو هريرة القنوي " سنة ٥٨ هـ بالمدينة المنورة
صاحب الرسول (صلى الله عليه وسلم) - وقد زار مصر وولى في مسجد لها ووقف على قبلته " (٢) .
وكان فقيها مجتهدا ، حافظا " (٣) . وكان " عبد الله بن عباس بن الخطاب
ابن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي " ابن عم الرسول " (٤) صاحب
فقه " (٥) .

(٦)
وكان عبد الله بن عباس قد دخل مصر مرتين في اثنا خلافة عثمان بن عفان

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٩٩-٩٦ - ابن حجر : الاصابة
ج ٢ ص ٣ - السيوطي : حسن المطهرة ج ١ ص ٩٦ - ابن حزم : الاحكام
في اصول الاحكام ج ٥ ص ٩٢

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ص ٣٢٩ - ابن عبد الحكم : فتوح مصر
واخبارها ص ٢٨٢ - الذهبي : سير اعلام النبلاء ص ٤١٢ - السيوطي :
حسن المطهرة ج ١ ص ١٠٨ - ابن حزم : الاحكام ج ٥
ص ٩٢

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٢٦ - الذهبي : سير اعلام
النبلاء ج ٢ ص ٤١٢

(٤) ابن عبد البر : الاستيعاب ج ٢ ص ٣٤٢ - ابن حجر : الاصابة ج ١ ص ٩٠
- ابن الاثير : اسد الغابة ج ٢ ص ١٩٢ - السيوطي : حسن المطهرة
ج ١ ص ١٠٩

(٥) السيوطي : حسن المطهرة ج ١ ص ١١ - ابن حزم : الاحكام ج ٥ ص ٥٣

(٦) ابو المظن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١١٥-١١٦ - السيوطي : حسن
المطهرة ج ١ ص ٩٠

(٢٤-٣٥ هـ) وكان واسع المعرفة متبحرا في الفقه وتفسير القرآن (١) وقد كان مجلسه غاما باصطحاب الفقه الذي كان يتناول هو مسائله (٢) وكان مجلسه الله ابن عباس أعلم الفقهاء بعباسة أبي بكر وعمر يقضائهما ولم يكن أحد أفقه فسي رأى منه ولقد كان يجلس يوما ما يذكر فيه الفقه (٣) وقد ألفت حوله المصريون للاستفادة من علمه (٤)

كان أعظم الصطبة شأنا وأعظم أثرا في الحياة الفقهية بمدينة الفسطاط
عثة ابن عامر الجهنى وعبد الله بن عمرو بن العاص الذي أتهجأ هل مصرفاويه (٥)

أما عثة بن عامر الجهنى "ابو عمرو" فقد تولى إمارة مصر من قبل الخليفة
الاموي معاوية بن أبي سفيان على صلاتها وخارجها ٤٤ هـ (٦) وقد اتصل
بالمصريين وكان يفتيهم (٧) فقد كان عثة " طالما بالفرائض والفقه (٨)

وحدث صار بمصر " مفتى البلد وكان فقيه مصر من غير مدافع (٩) وكان
عثة يفتى في المسائل الفقهية التي كان يتعرض لها في مجالسه (١٠)

-
- (١) أبو المطاسن : النجوم الزاهرة ج١ ص ١١٥-١١٦ - السيوطي : حسن المطهرة ج١ ص ٩٠
 - (٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج١ ص ٤٠
 - (٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج١ ص ٣٦٨
 - (٤) السيوطي : حسن المطهرة ج١ ص ٩٠
 - (٥) المقرئ : الخطط ج٢ ص ٣٣٣
 - (٦) الكندي : الولاة ص ٣٦ و ٣٧ - ابن حجر : الاصابة ج٢ ص ٤٨٢ -
أبو المطاسن : النجوم الزاهرة ج١ ص ١٤٥
 - (٧) ابن عبد الحكم : فتح مصر ص ٢٥٩
 - (٨) الكندي : الولاة ص ٣٧ - ابن حجر : الاصابة ج٢ ص ٤٨٢
 - (٩) ابن عبد الحكم : فتح مصر ص ٢٩٤ - الذهبي : تذكرة الحفاظ ج١ ص ٤٠
 - (١٠) المقرئ : الخطط ج١ ص ٣٠١
 - (١٠) ابن عبد الحكم : فتح مصر ص ٢٨٧-٢٩٣

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يفتى في الصطبة * (١).

وتذكر الروايات ان الرسول صلى الله عليه وسلم أمر عمرو بن العاص وعقبه ابن طمر الجهنى ان يحكما بين خصمين وقال لهما : ان اصبحتا فلكما عشر حسنات وان اخطأتا فلكما حسنة واحدة * (٢) وفي صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم اذن النبي (صلم) لعبد الله بالكتابة عنه في عامة احواله : قال ابن عباس : انه كان يسأل رسول الله (صلم) في مسائل الحلال والحرام ودون ذلك في صحيفته الصادقة * (٣)

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص هو الفقيه الذي اتبع اهل مصر اكثر فتاويه يقول المقرئ * ان التابعين من اهل مصر كانوا يتبعون في الاكثر فتاوى عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما * وذلك لان كل طبقة من التابعين في البلاد انما تفقهوا مع من كان عندهم من الصطبة * فكانوا لا يعتمدون فتاويهم الا اليسير مما بلغهم عن غير ما كان في بلادهم من الصطبة رضى الله عنهم * (٤)

قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم (٥) المتوفى سنة ١٨٢ هـ : اظن فسي مصر فقد كان هذا الصطبي (عبد الله بن عمرو بن العاص) استاذها الاول صاحب الاثر الاقوى بين تابعيها * وفتاويه تخرج أغلب فقهاءها * (٦)

-
- (١) الذهبي : سير اعلام النبلاء ج ٣ ص ٥٣ - الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ١٣
 - (٢) الامدي : الاحكام في اصول الاحكام ج ٤ ص ٢٣٦ - ٢٣٧
 - (٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٣٧٢ - الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٦ - ابو المطمن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧١ - السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٩٢ - الاتقان ج ١ ص ٧٠ - محمد يوسف موسى : تاريخ الفقه الاسلامي ج ١ ص ١٨٦
 - (٤) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٣٣٣
 - (٥) هو عبد الرحمن بن زيد بن اسلم المتوفى سنة ١٨٢ هـ المفسر المدني صاحب كتاب النامخ والمنسوخ وكتاب التفسير (ابن النديم / الفهرست ص ٢٢٠)
 - (٦) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٦ ص ١٧٨
 - (٦) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٣٣٣

كان أمير المؤمنين "المخليفة" عربين الخطاب" يحرص على أن يعلم المصريين أصول الدين الاسلامي . لذلك فقد ارسل الى اهلها "عبد الرحمن بن مطجم المرادي الخارجي من قدام" التابعين والمتوفى سنة ٤٠ هـ وكان من قراء القرآن وأهل الفقه وكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص - أمير مصر - يأمره أن يقرب دار ابن مطجم من المسجد . لكي يعلم الناس القرآن والفقه ففعل عمرو . . . (١)

ولاشك أن مصر "الفسطاط" كانت في أشد الحاجة الى التشريع العلمى لاستنباط الحكم من مصادره الاصلية وتطبيقه يكون اقوى أثرا في توجيه الحياة الفقهية وتنظيمها . لذلك اهتمت الدولة الاسلامية الناشئة بهذا الشأن - واتجهت الى تعيين القضاة والفتيين في الامصار الاسلامية - هذا الى جانب وجود افسراد غير معينين من قبل الدولة استغلوا بالفتوى بما كان لهم من قدرات علمية توفرت على دراسة النص القرآنى واستنباط الاحكام منه بالرجوع الى مصادرها الاصلية وكان ممن هؤلاء كثير من استقروا بالفسطاط وصار لهم شأرا بعيدا في ميدان الاجتهاد الفقهى . . . وكان الناس يستفتونهم فيفتون لا يتفتون من وراء ذلك غير ايسر - لاغ الامانة وما توصلت اليه قرائحهم من احكام .

ومن أبرز الفقهاء الذين تأوا بأنفسهم عن وظائف الدولة واستقروا بين الاهالى يفتونهم "ابو الخير مرتد بن عبد الله اليزنى الحميرى التابعى المصرى المتوفى سنة ٩٠ هـ الذى كان مفتى اهل مصر في زمانه" . (٢) فقد تلمذ على ائمة الفقه ففى مصر والذين كانوا من أبرز فقهاؤها مثل عتبة بن عامر الجهنى وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان يلزم عتبة ولا يفارقه . (٣) وقد بلغ من عظم شأنه فى مجال الفقه وتوافره

-
- (١) السمعاني : الانساب ص ٤٢٥ - ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٦
 (٢) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٦٢ - ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١ ص ٨٢ - المقرئ : الخطوط ج ٢ ص ٢٥٤ - السيوطى : حسن المطهرة ج ١ ص ١١٨ - السيد احمد خليل : اللبث بن سعد ص ٣٧
 (٣) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٦٢ - ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١ ص ٨٢

على دراسة النحر القرآنى * ان عبد العزيز بن مروان والى مصرفى تلك الفترة وأميرها
الاموى — كان يحضر مجلسه ليعمع فيه ، فقد كان رجل صدق — وكان عبد العزيز بن
مروان يجلسه للفتيا * . (١)

ومن هؤلاء الفقهاء ايضا * بكر بن سواد الجذامى المصرى الفقيه ، الذى كان
مفتى اهل مصر ، قال حيان انه كان من ثقات مصر وأفضل قرائهم وقد توفى سنة
١٢٨ هـ . (٢)

وفي مجال القضاء كانت الدولة تعين القضاة وتخول لهم منق الافناء فيها يمرض
لهم من مشاكل أو نزاعات فقد كانوا يمثلون الفقه الاسلامى فى مواجعه الاولى ، وربما
قد طبقوه بهذه الصور فى مصر — ولا شك انه قد امتازت منهم جماعة بالاجتهاد
والمشاركة المميقة فى تدبير شئون الحياة العملية وتنظيمها على أسس مدروسة ومن هؤلاء
القضاء * سليم بن عتر التجيبى — قاضى مصر وقاضيا ونامكها * . (٣) وقد ولى قضاء
مصر من قبل معاوية بن ابي سفيان سنة أربعين وكان قبل القضاء قاضا فجمعا لـ
وصار ذلك له الى سنة ستين * . (٤)

وكان سليم بن عتر اول قاض بمصر سجل سجلا بقضائه * فقد ذكر ابن ابي ميسره
ان معاوية بن ابي سفيان كتب الى القاضى سليم بن عتر يأمره بالنظر فى الجراح
وان يرفع ذلك الى صاحب الديوان وكان سليم اول قاض نظرفى الجراح وحكم فيها —
قال ابو ميسره : فكان الرجل اذا اصاب فجرح آتى الى القاضى وأحضر بيته على الذى
جرحه فيكتب القاضى بذلك الجرح قصته على طوله الجراح ويرفعها الى صاحب الديوان
فاذا حضر الماء اقتص من اعطيات عشرة الجراح ملووجب للمجبر — روح ،

(١) الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣٠٣ — ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١
ص ٨٢ — السيوطى : حسن المطهرة ج ١ ص ١١٨

(٢) السيوطى : حسن المطهرة ج ١ ص ١٦٢

(٣) الكندى : اللواتى كتاب القضاء ص ٣٠٣ — ٣٠٦ — السيوطى : حسن المطهرة
ج ١ ص ١٦١

(٤) الكندى : المرجع السابق ص ٣٠٣ — ٣٠٦

وينجم عن ذلك في ثلاث سنين ، فكان الامر على ذلك * (١) تبين من النص السابق ان هذا القاضي قد غنى بأحوال الشهود - وتدوين بيانات المجنى عليه لتكون هناك بينه عند الحكم للقصاص ويوضح هذا ما وصل اليه نظام القضاء من رقى في الفترة المبكرة من تاريخ مدينة القضاة . . . ويبدو انه كان هناك من يقوم بمساعدة القاضي في تسجيل احكامه بسرعة الحكم على المجرورحين . وقد فرضت لهؤلاء الماعدين رواتب مميّنة . . . فيقول : زيد بن بشير مانعه : " ادركت رجلا في بيت العال اذا شجع الرجل أو جرح بمثبه القاضي الى ذلك الرجل فيقول : هذه موضة وهذه مفتعلة وهذه كذا وهذه . . . كذا . . . فيكتب القاضي بديّة ذلك الجرح الى صاحب الخراج ، قال زيدا وكان على ذلك الرجل اوراق بطامة . . . * (٢)

وكان سليم بن عتر يسجل أفضيته عندما تعرض عليه مسألة يقضى فيها صمدون احوال الشهود في القضية . يروى عبد الرحمن بن حجية : انه اختم الى سليم ابن عتر في ميراث ففنى بين الورثة . ثم تناكر فعادوا اليه ففنى بينهم وكتب كتابا بقضائه واشهد فيه شيوخ الجند . قال : فكان اول القضاء بمصر سجلا سجلا بقضائه . (٣)

وكان قيس بن العاص الفهري اول قاض بها في الاسلام وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتوليته اول سنة ثلاث وعشرين * (٤) وكان قد شهد فتح مصر مع يمينه وكان شريفا سرا . واول من بنى بمصر دارا للضيافة * (٥)

وكان عبد الرحمن بن حجية الخولاني فقيها من أفقه الناس * (٦) وكان قد ولي القضاء بمصر من قبل عبد العزيز بن مروان سنة ٦٩ هـ ومات بمصر وهو قاض سنة ٨٣ هـ فوليها اثنتي عشرة سنة * (٧)

-
- (١) الكندي : الولاة وكتاب القضاء ص ٣٠٩
 - (٢) الكندي : المرجع السابق ص ٣٠٩
 - (٣) الكندي : المرجع السابق ص ٣١٩
 - (٤) الكندي : الولاة وكتاب القضاء ص ٣٠٩ : ٣٠١ - السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٥
 - (٥) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٥
 - (٦) الكندي : الولاة وكتاب القضاء ص ٣١٤
 - (٧) الكندي : المرجع السابق ص ٣١٤ - ٣٢٠

وقد كان ابن حجية قاضي مصر وقاضيا وأمين بيت المال فيها * (١)

وقد كان ابن حجية تلميذا لابي ذر * وأبي هريرة وثقة بن عامر ومحمد بن عمرو وغيرهم * (٢) وهم من أئمة الفقه والفتوى * ويبدو ان ابن حجية قد بلغ قدرا عظيما من الاجتهاد والتفقه * فقد اجازه ابن عباس امام اهل المدينة وخبره عمن نفسه فروي عبد الله بن المشيرة ان رجلا من اهل مصر سأل ابن عباس عن مسألة ، فقال : من أي الاجتهاد انت - قال : من أهل مصر - قال : تسألني وفيكم ابن حجية * (٣) وقد كان ابن حجية يحكم في كثير من الاقضية التي كان يتعرض لها بتكافؤ الشهود وبكثرة الرجال عند احد الطرفين او بشهادة المدول * قال ابن لهيعة : قضى ابن حجية في الشهود اذا تكافؤوا ان يسهم بينهم فان كانا احد المدعين أكثر شهودا بمرجلين او اكثر كان الحق معه واذا كانت السلطة بيد أحدهما فبطل يشاهد عدل كانت له وان جاء الآخر بأكثر من ذلك * (٤)

ومثل ذلك كان ابن حجية يحكم بالمدل وقد أثر عنه انه قال : * ان القاضي اذا قضى بالهوى احتجب الله عز وجل منه واستتر * (٥) ويبدو ان ابن حجية قد دوين القضايا كانت قد شاعت في الفترة المبكرة فذكر الروايات انه لما سأل عبد الرحمن ابن حجية عن ولي جدة القضاء : قال لا ادرى غير اني رأيت له قضية عند آل قيس ابن زيد الخولاني تاريخها شهر رمضان سنة سبعين ولا أعلم اني رأيت اقدم منها * (٦)

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٣٥ - الكندي : الولاة والقضاء ص ٣٠٧ - الذهبي : المبر في خبر من غير ص ٩٧ - ابن كثير : البداية - النهاية ج ١ ص ١٠

(٢) الذهبي : تاريخ الاسام ج ٢ ص ٢٧١ - ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٦ ص ١٦٠

(٣) الكندي : الولاة وكتاب القضاء ص ٣١٦

(٤) الكندي / المرجع السابق ص ٣١٨

(٥) الكندي : السابق ص ٣١٩

(٦) الكندي / السابق ص ٣١٥

وقد تولى على مصر كثير من القضاة الذين كان لهم شأن عظيم فى اصلاح
الدواوين مثل * توبة بن نمر الحضري الذى ولى قضاء مصر سنة ١١٥ هـ من قبل
والى مصر الوليد بن رفاعه والذى ظل قاضيا عليها الى حوالى سنة ١٢٠ هـ * (١) وكان
توبة اول قاض بمصر وضع يده على الاحباس زمن هشام بن عبد الملك وقد كانت الاحباس
فى ايدى اهلها وفى ايدى اوصيائهم فلما كان توبة قال : ما أرى مرجع هذه الصدقات
الا الى الفقراء والمساكين فأرى ان أضع يدي عليها حفظا لها من التواء والتوارث
فلم يمت توبة حتى صارت الاحباس ديوانا عظيما * (٢) — لم يكن هناك عدل من خبيرين
نعم ولا أئمة منه — كان يقبل شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود .
ويسأل عن عدالتهم فى أهل دينهم * (٣) وكان يخصص وقتا للحكم بين أهل
الذمة . قال يحيى بن عثمان بن صالح ان خبيرين نعمهم كان يقضى فى المسجد بين
المسلمين ثم يجلس على باب المسجد بمصر على المصاحف فيقضى بينهم —
النصارى * (٤)

وكان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره فكان مجلس فيه قهريم وأجروء
بين الخصوم من الكلام * (٥) وكان خير بن نعم قد ولى على القضاء واقصص به مصر
من قبل الامير خنظلة بن صفوان الكلبى سنة ١٢٠ هـ : سنة ١٢٨ هـ (٦) . . . هكنا
كان لقضاة مصر دور كبير فى تدبير شئون الحياة العملية والدينية وتنظيمها على أسس
مدروسة وقواعد محكمة * ولم يكن القاضى ليرضى ان يتدخل فى أحكامه احدى اذ كانت
وظيفة القضاة من الوظائف السامية التى تحاط بالهيبة والجلال . كما كان لصاحبها
نفوذ كبير يتفق مع خطورة العمل الذى يؤديه * (٧)

(١) الكندى : الولاة وكتاب القضاء ص ٣٤٦—٣٤٧

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٦

(٣) المرجع السابق ص ٣٥١ — سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٩

(٤) المرجع السابق ص ٣٥١

(٥) المرجع السابق ص ٣٥١

(٦) الكندى / الولاة ص ٣٤٨—٣٥٢

(٧) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٩٢

كما ان الاختصاص النوعي Ration Materide للقاضي كان غير محدود أكان في الامور المدنية أو الجنائية * (١) وكان القاضي يستمد احكامه القضائية من مصادر التشريع الاسلامي وهي : " القرآن - السنة - الاجماع - الاجتهاد أو القياس * (٢)

كانت أعظم مطولة لخدمة التشريع الاسلامي هي التي قام بها * امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز (المتوفى ١٠١ هـ) فقد أمر بجمع السنة وتدوينها ونشرها * (٣) وكان الدافع الى ذلك ظهور الكذب في الحديث ، وتأتى أهمية السنة (الحديث) من انها مكملة للتشريع ببيانها للكتاب * (٤) وكان امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حريصا على حفظ السنة في الاثار الاسلامية * فأرسل الى مصر نافع بن أبي نعيم سنة ١١٢ هـ ليعلم أهلها السنن * (٥) وهو فقيه أهل المدينة ومولى عبد الله بن عمرو بن الخطاب وأصله من أصبهان * (٦)

وقد بلغ نافع بمصر شأنا عظيما فكان استاذًا لكثير من أعلام النهضة التشريعية بمدينة القسطنطينية فمن تلاميذه بمصر بكير ابن عبد الله بن الأشج ويزيد بن أبي حبيب وعبيد الله بن أبي جعفر والليث بن سعد * (٧)

-
- (١) سيدة كاشف : مصرفي فجر الاسلام ص ٩٣ - وما ذكرته من المراجع
 - (٢) سيدة كاشف / المرجع السابق ص ٩٣
 - (٣) ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم وفضله ص ٣٣
 - (٤) محمد الخضرى : تاريخ التشريع الاسلامي ص ١٤
 - (٥) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٩٩ - تاريخ الاسلام ج ٥ ص ١٠١ ، ١١
 - ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١ ص ٤١٢ - ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ٢ ص ١٥٠ - السيوطي : حصن المطهرة ج ١ ص ٢٩٧
 - (٦) ابن الاثير : الفهرست ص ٤٨
 - (٧) الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٥ ص ١٠١ ، ١١ - تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٩٤
 - ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١ ص ٤١٢

٥ - دور الموالي في النهضة العلمية

ارتفع شأن الموالي في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وصارت لهم مكانة بارزة في علم التاريخ التشريعي لمدينة القسطنطينية وعلى رأس المائة الثانية من تاريخ الهجرة صار العلم في جميع الامصار الى كثير من الموالي وخاصة الفقه ، وذلك بعد انقراض عهد الصطبة والتابعين . . . قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : لما مات العبادلة ، عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عيسى ، وابن العاص ، صار الفقه في جميع البلدان الى الموالي . . . (١) ويطلق على الاستاذ احمد امين ظاهرة نبوغ الموالي في العلم فيقول : انه بتوالي الفتوحات الاسلامية ، وتوالي دخول أم كثيرة في الالة الاسلامية وما رافقها من حضرة في الدولة الاسلامية - العصر العربي والعصر الاعرجي - وكان أكثر رحلة العلم في عصر الصطبة العرب - لان أكثر الصطبة عرب - وقد امتلكت الصطبة من الروايات مستخدمونهم في بيوتهم وفي اعالهم . فاذا كان الصطبي ناديا فمواليه اعراسه وتلاميذه في العلم ومتى كان عددهم حسن استمدادهم فنهضوا به معكم مخططاتهم لمعاداتهم مثل نافع مولى عبد الله بن عمر ، الذي أخذ عنه أكثر علمه - ولما أخذ الصطبة يحملون في الامصار الفتوحة ، اشتبك العرب والمجم أيضا في تلقى العلم عنهم حتى اذا كان عصر التابعين وتابعيهم ، كان بعد رحلة العلم عربا وأتربهم من الموالي أو أبناء الموالي . . . (٢)

ويطلق ابن خلدون ظاهرة اعتغال الموالي بالعلم ونبوغهم بانفسهم بال
العرب بالرياسة والسياسة الى أوائل الدولة العباسية والتالي انصرافهم عن العلم ، فتولد فيهم بتوالي الاجيال الانفة من انتحال العلم لانه صار من جملة الصناعات وأهل الرياسة يستنكفون من الصناعات . . . (٣)

(١) ابن قيم الجوزية : اعلام الموقعين ج١ ص ٢٥ - الشيرازي : طبقات الفقهاء

ص ٢١

(٢) احمد امين : فجر الاسلام ص ١٨٢ - ١٥٠

(٣) ابن خلدون : المقدمة - الفصل الخاص بالثلاثون ص ٤٤ - ٤٥

ولعل ظاهرة نبوغ الموالى فى تلك الفترة مدينة لما أتاه أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز لهم من فرص لاستظهار مواهبهم وطوئهم • فكسان عمر بن عبد العزيز القاعدة الشاذة من خلفاء بنى أمية الذين تمصبوا للمنصرين المسمى فكان يساوى بين رعاياه من العرب والموالى • ويحزى اليه الفضل فى رد مظالم بنى أمية (قال قائل : الخلفاء ثلاثة • أبو بكر الصديق يوم الود • وعمر ابن عبد العزيز فى رده مظالم بنى أمية • والمتوكل فى إحياء السنة •) (١)

ومن أبرز الموالى العلماء الذين رفع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز مسن شأنهم بالفسطاط (يزيد ابن أبى حبيب الأزدي — حبيب بن قيس — وقيل سويد مولى بنى عامر بن لوى — وكتبته أبو رجاء العصري — وهو من أصل نوبى من دنقله • وقد ولد بمصر سنة ٥٣ هـ) (٢) • كان يزيد خطيباً عاقلاً • (٣) وبعد من الشخصيات العظيمة فى تاريخ مصر المسمى • فقد كان له أعظم الأثر فى أنه لون مدرسة مصر الدينية بلون جديد هو التشرح فهو أول من أظهر العلم بمصر والمسائل فى الحلال والحرام ومسائل الفقه • (٤) وكانوا قبل ذلك إنما يتحدثون فى الترفيع والملاحم والفتن • (٥) هذا يعنى أنه كان المؤسس الأول للحركة الفقهية التى امتازت بها مصر والتى مهدت الطريق لمن جاء بعده من الفقهاء • ويدل هذا أيضاً على أنه قد جهد فى أن يلفت الناس بوضئ الى دراسة منظومة للفقه الاساسى فى مختلف فروعها وتباين أشكاله • ذلك لان التمهيد بالحلال والحرام يلخص هذا ويدل عليه • (٦) — اما الترفيع فى الملاحم والفتن فهى

(١) أبو المظن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ٢٧٥ — الميوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣٠ — سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١٦٢

(٢) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج١ ص ١٢٩ — تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٨٤ — المبر فى خبر من غير ج١ ص ١٦٨ — ابن حجر : تهذيب التهذيب ج١ ص ٣١٨ — الميوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ١٤٥ — طبقات الحفاظ ص ٥٢ — الزركلى / الاعلام ج٩ ص ٢٣٦

(٣) الذهبى : تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٨٥

(٤) عمر بن محمد الكندى : فضائل مصر ص ١٢ — الذهبى : تذكرة الحفاظ ج١ ص ١٢٩ — تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٨٤ — المبر ج١ ص ١٦٨ — القريسزى : الخط ج٤ ص ١٤٤ — الزركلى : الاعلام ج٩ ص ٢٣٦ — أبو المظن / النجوم ج١ ص ٣٠٨

القصص بما تحويه من روايات وقصص دينية وخلقية — فقد كانت رواية القصص تخلص مكانا بارزا في مجال العلوم الدينية — وكان كثير من القضاة يجمعون بين القضاء والقصص. (١)

ويبدو أن يزيد بن أبي حبيب كان له أثر في احترام هذا اللون " القصص " بما أصبح عليه من مسائل الفقه لان القصص كانت قد جذبت اليها انظار العامة بما خشي عليه من انصياهم اليها وخاصة انها تحوى الكثير من الاساطير فكانت تدخل عليها الشوائب بمرور الوقت مما أدت الى مقت الكثير لهذا اللون لانه كان يحسد عن فرقته الاول وهو " الوعظ والارشاد " . وقد يبلغ من سمو منزلة يزيد العلمية ان صار " مفتى أهل البلد " ، وكان احد الثلاثة الذين جعل الخليفة عمر بن عبدالمزيز اليهم الفتيا بمصر . (٢) وكانت تلك الفتيا لرجلان من العوالم ورجل من العرب ، فأما العربي فهو جعفر بن ربيعة والموليان فيزيد بن أبي حبيب وعبدالله ابن أبي جعفر فكان العرب انكروا ذلك فقال عمر بن عبدالمزيز : ما ذنبى اذا كانت العوالم تسمو بانفسها صعدا وانتم لاتسمون " . (٣)

(٥) الذهبى : تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٨٥ — القرزى : الخطوط ج٤ ص ١٤٣

(٦) السيد احمد خليل : الليث بن سعد ص ٥٨ — ٥٩

(١) ابن عبدالحكم : فتح مصر وخباياها ص ٢٣١ — ٢٤٧ — الكندى : الولاء وكتاب القضاء ص ٣٠٣ — ٣١٤ — ٣٢١ — ٣٤٢ — ٣٤٨ — ٣٦٨ — ٣٩٤ القرزى : الخطوط ج٤ ص ١٧

(٢) الذهبى : تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٨٥ — القرزى : الخطوط ج٤ ص ١٤٣ ابو المظن / النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٣٨ — السيوطى : حسن المظاهرة ج١ ص ٢٦٩

(٣) القرزى : الخطوط ج٤ ص ١٤٣ — ابو المظن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٣٨ .

وكانت المهمة اذا جاءت الخليفة ، كان اول من يبايع عبيد الله ثم يزيد بن ابي حبيب ثم الناس .. (١) وقد كان ليزيد شأن عظيم في مجال الافتاء فكسان يستفتيه أبرز شخصيات مصر " قال سعيد بن غيران زياد بين عبدالمزير بن مروان أرسل الى يزيد بن ابي حبيب قائلاً : اننى لا سألك عن شئ من العلم . فارسل اليه : بل انت فاتنى فان مجيئك الى زين لك ، ومجئى اليك شين عليك " (٢)

وكان ليزيد بن ابي حبيب الفضل في تنشأة جيل من العلماء المصريين الذين صار لهم أثر كبير في النهضة التشريعية وفي نمو المدرسة الدينية بمدينة القسطنطينية ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد — الذى كان يقول : يزيد عالما وسيدنا " (٣)

أما المولى الآخر الذى كان له أثر هام في الحياة الفقهية في مدينة القسطنطينية فهو (عبيد الله بن ابي جعفر المصري — أبو بكر الفقيه (٦٠-١٢٦هـ) قال ابن سعد عنه : هو ثقة ، فقيه زمانه " (٤) سئل تلميذه عمرو بن الحارث الانصارى فقيل له أيهما تفضل يزيد بن ابي حبيب ، أو عبيدا الله بن ابي جعفر ؟

(١) الذهبى : تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٨٥ — القرئزى : الخطط ج٤ ص ١٤٣

(٢) الذهبى : المرجع السابق ج٥ ص ١٨٥

(٣) الذهبى / السابق ج٥ ص ١٨٥ — ابو الطمن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٣٠٨ — السيوطى / حسن المحاضرة ج١ ص ٢٩٩

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج٧ ص ٥١٤ — الذهبى : تذكرة الحفاظ ج١ ص ٢٩٩ — ابن حجر : تهذيب التهذيب ج٧ ص ٥ — السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٢٩٩

قال عمرو : لو جعلنا في ميزان ما رجع هذا على هذا . . . (١) وكان عبدا لله من مشهورى شيوخ المصريين . اهل العلم والخبرة والذكاء والفطنة والتفتيش والرحلة والدالب . (٢) وكان عمرو بن الطارث الانصارى المتوفى سنة ١٤٨ هـ من أبرز تلاميذ يزيد بن ابي حبيب وعبدا لله بن ابي جعفر فقد تعلم علىها . وروى عنها الكثير . (٣) لقد كان محدثا شتهرا بقوة الحفظ وكان من مجتهدى فقهاء مصر . (٤) قال ابن وهب : لو بقى لنا عمرو بن الطارث ما احضنا الى مالك . (٥) وكان الليث بن سعد وابن وهب من أبرز تلاميذه كما يحد الاخير روايته . (٦)

كان لهذه الشخصيات العلمية أثر هام في نمو الحياة العقلية في تلك الفترة فقد مهد هؤلاء العلماء السبيل بمعظم التشريعات وفهمهم المستقل الذى تكوين بعض الشخصيات العلمية مثل عبدا لله بن لهيعة — والليث بن سعد . اللذين طامروا النهضة التشريعية في الاسلام والتي اقتضت بتقويد العلم وتدوينه ففى صطائف مرتبة يحد ان كان ما يزال فى طور الحفظ والرواية الشفهية . وتذكر بعض المصادر ان ابن لهيعة والليث بن سعد قد شاركا فى حركة تدوين العلوم الاسلامية .

-
- (١) الذهبى : تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٨٥
 (٢) عرب بن محمد بن يوسف الكندى : فضائل مصر ص ٢
 (٣) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج١ ص ١٧٣ — ابن خجر : تهذيب التهذيب ج٥ ص ١٥ — السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ١٠٠
 (٤) الفيرازى : طبقات الفقهاء ص ٥٧ — السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٣٠
 (٥) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج١ ص ١٧٣
 (٦) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج١ ص ١٧٣ — السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٣٠ — الفيرازى : طبقات الفقهاء ص ٥٧

" قال الذهبي : في سنة ثلاث وأربعين ومائة شرع علماء الاسلام في تدوين الحديث والفقه والتفسير . فصف ابن جريج (المتوفى سنة ١٥٥ هـ) التصانيف بمكة و صف سعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة ١٥٦ هـ - وحاد بن سلمه وغيرها بالبصرة . و صف ابو حنيفة الفقه والرأي بالكوفة . و صف الاوزاعي بالشام و صف ميمون باليمن و صف سفيان الثوري كتاب الجامع ثم من بعد يسير صف هشيم و صف الليث بن سعد . و بعد الله لهيعة ثم ابن المبارك والقاضي ابو يوسف يحقوب وابن وهب وكثير ترويب العلم وتدوينه وقبل هذا المصر كان سائر العلماء يتكلمون عن حفظهم يروون العلم من صف صحبة غير مرتبة . (١)

وكان ابن لهيعة (المتوفى سنة ١٧٤ هـ) اول علماء الفسطاط مشاركة فسي حركة التدوين . (٢) فقد كان من الجامعين للعلم والرحالين فيه وكان يدون فسي الخريطة التي يمنعه ما يسمعه او يراه . (٣) وكان عالم الديار المصرية وقاضيهام ومحدثها . (٤) فقد ولي القضاء بمصر في مستهل سنة خمس وخمسين ومائة من قبل امير المؤمنين ابي جعفر وهو اول قاض ولي مصر من قبل الخليفة . (٥) وقد صرف عن القضاء في سنة أربع وستين ومائة . (٦) وكان ابن لهيعة اول قاض حضر في طلب هلال رمضان بالجيزة . ثم كانت القضاء على ذلك حتى كان ابن ابي الليث فطلبه في اصل المقطم . (٧)

(١) الذهبي : المبرق في خبر من غير ص ٢١٢-٢١٣ - ابو المظمن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٥١ - السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٦١ - طنجي خليفة : كشف الظنون ج ١ ص ٨

(٢) بوكلمان : تاريخ الادب العربي ج ٢ ص ١٥٤ - فؤاد سزكين : تاريخ التواتر العربي ج ١ ص ٢٦٩

(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٢٨ - ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٦٧ - تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٧٣ - المبرج ج ١ ص ٢٦٤ - ابو المظمن :

النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٧٧ - السيوطي : حسن المطهرة ج ١ ص ١٤٥
(٤) ابو المظمن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٧٧ - السيوطي : حسن المطهرة ج ١ ص ١٤٥

(٥) الكندي : الولاة وكتاب القضاء ص ٣٦٨

(٦) الكندي / السابق ص ٣٧٠

(٧) الكندي / السابق ص ٣٧٠

كان رائد النهضة التشريعية بالقسطاط الليث بن سعد بن عبد الرحمن
النهي (٩٤ هـ / ١٢٥ هـ) العالم الذي اختار نفسه "الا ان اصحابه لم يدنوا
مذهبه". (١)

وكان الليث امام اهل مصر في الفقه والحديث معا". (٢) وكان من
سادات زمانه فقها وعلماء وحفظا وفضلا وكروما". (٣) وقد تنافى اليه علم التابعين
فقد ادرك نيفا وخمسين تابعا". (٤)

وكان كثيرا ما يرحل الى البلاد الاسلامية للاستزادة من العلم وقد سمع
ببلاد الحجاز والمصر كثيرا من الاحاديث النبوية ونقلها الى مصر". (٥) قال
الشافعي "العلم يدور على ثلاثة مآلئ الليث وفضيان بن عيينة". (٦) فقد كان
لليث مكانة بارزة في العلوم العربية الممثلة فقد كان خير النادرة متعدد الجوانب".
قال عنه يعقوب بن بكير : ما رأيت فويين رأيت مثل الليث بن سعد وما رأيت اكمل
منه. كان فقيه الهند عرس اللسان يحسن القرآن والنحو والبشر والحديث وحسن
المذاكرة". (٧)

(١) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج٣ ص ٢٨١ — الذهبي : تذكرة الحفاظ
ج١ ص ٢٣٨ — ابن حجر : الرحمة الفيثية ص ٣ — السيوطي : حسن
الخطوة ج١ ص ١٢٠

(٢) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج٣ ص ٢٨٠ — السمعاني : الانساب ص ٥٣٩

(٣) ابن حجر : الرحمة الفيثية ص ٦

(٤) ابن حجر : المرجع السابق ص ٩٣ — ابو نعیم : حلية الاولياء ج٢ ص ٣٢٤
— الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ٥٧

(٥) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج١ ص ٢٣٨

(٦) ابن فرعون : الدياج المذهب ص ١٥

(٧) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج١ ص ٨٣٦ — ٨٢٧ — ابن حجر : الرحمة
الفيثية ص ٦

٦- أثر التعريب في ظهور الفكر الصوفي ودوره في الحياتين الصيامية والاجتماعية

فصل

حركة الزهد في القرنين الاول والثاني للهجرة:

دخلت مصر ميدان التصوف في فترة مبكرة ، وقد قامت حركة التصوف في اول الامر على أيدي الزهاد والمهاد واهل الورع والتقوى وكان اول هؤلاء الصلحاء والزهاد على حد قول السيوطي هو " سليم بن عشرين حبيب التيجي المصري - أبو مسلم قاض مصر وقاصها وناسكها من الطبقة الاولى من التابعين شهد خطبة عمر بالجابية وكان يسمى بالناسك لكثرة فضله وشدة عبادته وكان يختم القرآن في كل ليلة ثلاثاً وخمسة (١) وهو أحد قضاة مصر ولحقه قضاء مصر سنقر بمعين من قبل معاوية بن ابن سفيان - وكان قبل القضاء قاصاً فجمعا له ، وبعد اول من قص بمصر وقد أقام قاضياً عشرين سنة ، وتوفي بدعيًا سنة خمس وسبعين " (٢) وقد كان ينحو في حياته منحى الصوفية في الانقطاع للعبادة والانسواء بعيداً عن الناس . يقول الكندي : " ... عن الحسن بن ثوبان قال : ركب سليم بن عشرين البحر فلما ثقل نزل وأقسام سبعة أيام لا يدري أين هو ثم جاءهم فقالوا له : أين كنت ؟ فقال : اني ذهبت الى هذا الغار فأقامت هذه السبعة شكراً لله عز وجل " (٣)

تطورت حياة الزهد والعبادة في مصر بعد ذلك واسهم كبار الزهاد والمتسكن المسلمين في اثرائها . وتعد السيدة نفيسة من ساهم من آل البيت في حركة الزهد في مصر . وهي ابنة الامير حسن بن زيد بن الحسن بن علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) (٤) ودخلت مصر مع زوجها المؤمن اسحق بن جعفر

(١) السيوطي : حسن المطهرة " در الصطبة فيمن دخل مصر من الصطبة " ج ١ ص ٢١٨

(٢) الكندي : الولاء ص ٣٠٣ - السيوطي : حسن المطهرة " در الصطبة فيمن دخل مصر من الصطبة ج ١ ص ٢١٨ " .

(٣) الكندي : الولاء ص ٣٠٣

(٤) المقرئ : الخط ج ٤ ص ٣١٢ - السيوطي : حسن المطهرة ج ١ ص ٢١٨

ابن الزيات : الكواكب السائرة ص

الصادق في رمضان سنة ١٩٣ هـ فأقامت بها . (١) وكانت عبدة زاهدة كئيصة خيرة وكانت ذات مال فكانت تحسن الى الزمنى والمرضى وعيهم الناس . (٢) وكان يفد على السيدة نفيسة في مصراثة الفقهاء لاسلاف وكبار العلماء فقد زارها الامام الشافعى وبصحبته عبد الله بن عبد الحكم واستقبلتهم من وراء حجاب . ولما توفى الامام الشافعى سنة ٢٠٤ هـ ادخلت جنازته اليها وصلت عليه في دارها وكانت موضع مشهدها الطلى وقالت رحم الله الشافعى فقد كان يحسن الوضوء . (٣) وقد احبها أهل مصر ويحتقدون في كرامتها فكانوا اذا نزل بهم أمر جاءوا اليها يسألونها الدعاء . وقد ادى ازدحام الناس عند بابها الى ان فكر زوجها فى الارتحال معها الى الحجاز ولكنها قالت له : لا استطيع ذلك وانى رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى المنام وقال لى لا ترحلى من مصر ، فان الله تبارك وتعالى متوفيك بهما . (٤) وقد أقامت السيدة نفيسة بمصر الى ان توفيت بها . ولما أحست بدنو اجلها كتبت الى زوجها اسحق المؤمن بالحجاز كتابا وخفت قمبرها بيدها في بيتها . وكانت تنزل فيه وتصلى كثيرا وتقرأ فيه مائة وتسعين ختمه وكانت اذا عجزت عن القيام لضعفها تصلى قاعدة وتسبح وتقرأ وتبكي كثيرا ولما طنت الساعة وكان ذلك لول جمعة من شهر رمضان قرأت سورة الانعام . ولما وصلت الى قوله تعالى : لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون (٥) ثنى عليها

(١) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٣١٣ — السيوطى : حسن المظاهرة ج ١ ص ٢١٨

(٢) السيوطى : المرجع السابق ج ١ ص ٢٠٨

(٣) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٣٠٣ — السيوطى : حسن المظاهرة ج ١ ص ٢١٨
ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٩

(٤) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٣١٣ — ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٩

(٥) سورة الانعام — الآية ١٢٢

فرضها ابنة اخيها الى صدرها فشهدت شهادة الحق رحمة الله عليها . (١) ،
وكانت وفاتها بمصر سنة ٢٠٨ هـ (٢) . ودفنت السيدة نفيسة بدارها بدرب السباع
بين القطائع والحسكرا التي عرفت فيما بعد بكوم الجارحي . . (٣) وكان قبر السيدة
نفيسة وما يزال - مزارا يتبرك به ، ولاهل مصر عنها اعتقاد عظيم . . (٤)

ظهور الصوفية بمصر :

لم تلبث حركة الزهد بالفسطاط ان تبلورت الى حركة تصوف اصبح لها
ثقل اجتماعي خاف بمصر . فقد جاء في أقوال متواتره في كتاب الولاء والقضاء
للكندي انه في ولاية السرى بن الحكم (سنة ٢٠٠ هـ) وفي اثناء الصراع السياسى
بين السرى بن الحكم والجوى صارت لطائفة الصوفية تأثير قوى في مجرى الاحداث
السياسية في مصر وأصبح الصوفية يمثلون هيئة اجتماعية لها ثقلها وتأثيرها في مجرى
الاحداث السياسية في تلك الفترة فقد ظهرت بالاسكندرية طائفة يسمون
بالصوفية يأمنون بالصوف فيما زعموا ويمارضون السلطان في أمره فتراءى عليهم
رجل منهم يقال له ابو عبد الرحمن الصوفى . . . (٥) وكان هناك نزاع بين ابو
عبد الرحمن الصوفى فوجد نفسه من ذلك وخرج الى الاندلسيين وألف بينهم وبين
لخم ورجل اهل الاندلس ان يدركوا ابن هلال . وكانت لخم احد من ناحية
الاسكندرية - فساروا جميعا الى عمرو بن هلال وهم زهاء عشرة الاف من لخم
ومن الاندلسيين ومن غوى اليهم فحضره في قصره . . (٦) وانتهت الاحداث
بقتل ابن هلال واهله في ذى القعدة سنة مائتين . . ولاية ابا عبد الرحمن

(١) السخاوى : تحفة الاحباب ص٩

(٢) المقرئى : الخطط ج٤ ص ٣١٤ - السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٢١٨
- السخاوى : تحفة الاحباب ص ١٢ - ابن الزيات : الكواكب السيارة ص٩

(٣) البلوى : سيرة بن طولون ص ٩٨ - المقرئى : الخطط ج٤ ص ٣١٤ -
السيوطى / حسن المحاضرة ج١ ص ٢١٨

(٤) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ١٠٩ - سيدة كاشف : مصرى فجر الاسلام
ص ١٣٩

(٥) الكندي : الولاء وكتاب القضاء ص ١٦٦ - ١٦٣ . المقرئى الخطط ج١
ص ١٢٢ - متر / الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ج١ ص ١٢٠

(٦) الكندي : الولاء ص ١٦٦ - ١٦٣ ، المقرئى : الخطط ج١ ص ١٢٣

الصوفى — فبلغ من الفساد بالاسكندرية ما لا يسمح بمثله الى ان عزله الاندلسيين
 انفسهم عنها (١) وبعمر الزمن صار للصوفية اثر كبير في سير الاحداث السياسية
 وقد تعدى ذلك الى التدخل في اعمال بعض القضاة . . . ففنى ولاية القاضى عيسى
 ابن المنكر لقضاء مصر من قبل عبد الله بن طاهر سنة ٢١٢هـ — كانت له طائفة
 قد اخطت به من الصوفية يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فلما ولي القضاء كانت
 تأتية وهو فى مجلس حكمه فتقول : أيها القاضى ذهب الاسلام فعمل كيت وكيت . فيترك
 مجلس الحكم ومضى معهم فكلهم اخوانه مثل عبد الله ابن عبد الحكم وغيره فقال : لا بد
 من القيام لله عز وجل بحقوقه . (٢) هكذا تعدت آراء الصوفية فى تلك الفترة حياة
 الزهد والاعتكاف الى التدخل الفعلى فى شئون الجماعة تدخلا شديدا الوطأة للامير
 بالمعروف والنهي عن المنكر الذى كان جداهم . .

وقد أخذ هؤلاء الصوفية يتدخلون فى شئون المجتمع السياسية الى ان جعلوا
 القاضى ابن المنكر يكتب كتابا الى المأمون بانه لا يرضى بولاية ابا اسحاق بن
 الرشيد (المحتشم) مصر لانهم كانوا يظفونه ويخشون ان يشد على يد اهل
 الحدوان ففعل ذلك ابن المنكر وبلغ الكتاب المأمون فاحضر ابا اسحاق فقال : ما
 الذى فعلت فى اهل مصر . فقال : ما فعلت فيهم شيئا . فقال : هذا كتاب قاضهم
 يزعم انه لا يرضى بولايتك عليهم . فقال : ما أسأت الى واحد منهم ولا فعلت باي
 المنكر واقتلن . (٣) وانتهى الامر بان عزله ابا اسحاق عنها سنة ٢١٤هـ . (٤)

ذو النون المصرى الاخيهى ووضع أسس الحياة الصوفية :

لم تلبث الحياة الصوفية ان تطورت فى مصر بمدينة النسطاط متبلورة ففى
 حركة تصوف اصبح لها نظامها وتعاليمها وتقاليدها الخاصة بها ومعالها الواضحة

(١) الكندى : الولاة ص ١٦٣ — ١٦٤

(٢) الكندى : السابق ص ٤٣٣ — ٤٤٠ — متر : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٧

(٣) الكندى : السابق ص ٤٤٠

(٤) الكندى : السابق ص ٤٤١ — متر : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٧

هكذا ص ٢٤٥
 لماذا كل هذه التغيرات
 الصوفيات
 عنه ؟
 (مترجم صفحات)

على يد أحد الزهاد من مدينة اخميم " موطن اهل الحكمة والمعرفة " . (وهو ذو النون المصري الاخميمي — ابو الفيز ثمان بن ابراهيم وقيل الفيز بن ابراهيم المصري المعروف بذى النون — احد رجال الطريقة) (١) والذي يمد بحق واضح أسس التصوف بمصر " . (٢) . وكان ذو النون احد الموالى النابيين (٣٠٠) قال ابن يونس سمعت عليا بن عمر بن احمد بن مهدي الحافظ ببغداد يقول : اخبرت الحسين بن احمد بن المازرائي قال : قرأ على ابو عمر الكندي في كتابه " اعيان الموالى " فذكر فيه " ومنهم ذو النون بن ابراهيم الاخميمي مولى لقريش وكان أبوه ابراهيم نبيها " . (٣)

ويشتهر ذو النون المصري الاخميمي من اقطاب الصوفية وله فضل كبير نفسى وضع كثير من التحاليم الصوفية كما نعرفها الان . (٤) و " القطب ممناه رأس العارفين وقد ظهر في كلام المتصوفة ويزعمون انه لا يمكن ان يساويه احد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لاخر من اهل المرقان " وقد أشار الى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فضول التصوف " . (٥)

لم يكن التصوف قبل ذى النون طيا بالمعنى الفهم بل كان حركة زهدية يغلب عليها جانب العبادة . ولما جاء ذو النون اتخذ من هذه الوجهة وجهة

-
- (١) ابو نعيم : حلية الاولياء ج١ ص ٢٣١ — ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٢٨٠ — القشيري : الرسالة ص ١١٢ — السلي : طبقات الصوفية ص ١٥ — السيوطي : حسن المطهرة ج١ ص ٢١٨
 - (٢) سيدة كاشف : مصرف فجر الاسلام ص ٢٩٨
 - (٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٢٨٠ — ابو المطسن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ٣٢٠ — السلي : طبقات الصوفية ص ١٥
 - (٤) سيدة كاشف : مصرف فجر الاسلام ص ٢٨٩
 - (٥) ابن خلدون : المقدمة الفصل الحادي عشر (في علم التصوف) ص ٤٢٣

أخرى علمية فتعرض لمسائل هذا العلم بالتقرير والتوضيح والتحديد وكان ذو النون يجيد التعبير والاعراب عن مكتون نفسه فكانت عباراته تنطق بالبلاغة وحسن التعبير وحسن ذو النون من الأوائل الذين وضعوا اللبنة الأولى في أصول التصوف الإسلامي يقول جلي (١) : " . . . انه رأس هذه الفرقة (طائفة الصوفية) فالكل قد أخذ عنه وانتسب إليه . وقد كان المشايخ قبله ولكنه كان أول من فسرها في الصوفية وتكلم في هذا الطريق . " (١) ويقول نيكولسون : ان ذي النون المصري هو أول من وضع الاسم الأول للخصائص التيوسوفية - Theosophia فهي تاريخ الحياة الروحية الإسلامية . " (٢) وقد كان ذو النون واحد وقته علماء أوروبا وحالا وأديبا . " (٣)

قال أبو نعيم : " . . . انه القلم الغض والحكم العرشي الناطق بالحقائق الفائق للطرائق . له المباني الوثيقة والامارات الدقيقة " (٤) .

ولم ينفصل ذو النون عن الخلق العلمي السائد في عصره فكان له نظير في العلوم الدينية . فقد اشتغل في أول أمره بحلم الحديث ولا بد انه تشقّف في صفه بثقافة دينية أهله للاشتغال بهذا العلم " فهو محدود في جملة مسن روى الموطأ عن الإمام مالك . " (٥)

-
- (١) عبد الرحمن جلي : نطق الانس ص ٢٦
 (٢) نيكولسون - في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١١٢
 (٣) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ١ ص ٢٨٠ - السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٨
 (٤) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ١ ص ٢٨٠ - السيوطي / حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٨
 (٥) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ١ ص ٢٨٠

قال السيوطي : انه حدث عن مالك والليث وابن لهيعة . (١)

ولكن السمعاني يتشكك في صدق أحاديثه فيقول : " انه اسند عنه
أحاديث غير ثابتة والحل فيها على ما دونه . . . وخفي عنه من الهنداديين سميع
ابن عباس الخياط ، وابوالعباس بن مسروق الطوسي . . قال ابو الحسن الدارقطني :
ذو النون المصري روى عنه مالك أحاديث في أسانيد لها نظير . (٢) . . .
في موضع آخر : اذا صح السند اليه فأحاديثه مستقيمة وهو ثقة . (٣)

انصرف ذو النون عن الاشتغال بعلوم الحديث . ويدوان ملوك اهـ
الحديث لم يرق الى ما تصبو اليه نفسه الزاهية . فقد سئل عن سبب تركه الاشتغال
بالحديث ، فقال : " . . . للحديث رجل وشغل بنفسه استغرق وقتي والحديث
من اركان الدين ولولا نقص دخل على اهل الحديث والفقهاء لكانوا افضل الناس نفسى
ازمانهم . . . الا تراهم يذلوا عليهم لاهل الدنيا محتجبون بسند دنياهم فحجبوا
واستكبروا عليهم . وافتتنوا لما رأوا حرص اهل العلم والمتفهمين عليها . فظنوا
الله ورسوله وصار اثم كل من تبعهم في عقوبتهم . جعلوا العلم فظا للدين . وصالحا
يكسبونها بسند . بعد ان كان سراجا للدين بمختار . . . (٤)

ويقول ابو المطمئن : " ان ذي النون المصري كان اول من تكلم
في الاحوال ومقامات اهل الولاية . . . وانه انتقل الى القضاة وكانت له بها
مجالس . . . (٥)

(١) السيوطي : حسن المطهرة ج١ ص ٢١٨

(٢) السمعاني : الانساب ص ٣٢٤

(٣) السمعاني : السابق ص ٣٢٤

(٤) الشمراني : الطبقات الكبرى لواقع الانوار - ج١ ص ٧٠ - ١٤٩ -

السمعاني : المرجع السابق ص ٣٢٤ - ٣٢٥

(٥) ابو المطمئن بن تقي بردى - اللجون الزاهرة ج١ ص ٢٥٣ .

قامت فلسفة ذو النون الصوفية على دعامتين اساسيتين هما : المصرفة،
والمحبة وكانت تدور عليهما تماثيله وآراؤه الصوفية ، فهو يرى ان غاية
الطريق الصوفية الوصول الى مقام المصرفة الذي تتجلى فيه الحقائق فيدركها الصوفي
ادراكا ذوقيا لا أثر فيه للعقل ولا للنوية . وذلك لا يكون الا لخاصة اهل اللسان
الذين يرونه بأعين بصائرهم . . . (١) وذلك كان ذو النون اول من تكلم في المصرفة
بكلام نظري دقيق . . . (٢) وهو في اقواله ومنطه في فلسفته يتمسك بالمأثور
من الكتاب والسنة . . . فمن اقواله في المحبة (. . .) علامات المحب لله متابحة جبهه صلي
الله عليه وسلم في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه . . . (٣)

والمحبة ضد ذى النون هي محبة العبد لله . ومحبة الله لعبده . فهي
متبادلة بين العبد والرب . . . عن محمد بن سعيد الخوارزمي قال : سمعت ذو
النون وسئل عن المحبة - قال : " ان تحب ما أحب الله وتبغض ما أبغضه الله . . .
وتفعل الخير كله وترفض كل ما يشغل عن الله . ولا تخاف في الله لومة لائم . مع المطف
للمؤمنين والفلظة على الكافرين وأتباع رسول الله (صلى) في الدين . . . (٤) ومن
مأثوراته عن المصرفة قوله (. . .) لو ان الخلق عرفوا ذل اهل المصرفة من انفسهم
لحشا التراب على رؤوسهم وفي وجوههم . . . (٥) وعن تصريف الصوفي قسـال
ذو النون : " انه اذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وان سكـت نطقـت عنه الجـواجـ
بقطع العلائق . . . (٦)

-
- (١) ابن عربي : الكوكب الدري ورقة ١١٥
 - (٢) نيكلسون : في التصوف الاسلاف ص ٢٤
 - (٣) الحافظ ابن نمير : حلية الاولياء ج ٩ ص ٣٦٢
 - (٤) السابق ج ٩ ص ٣٦٢
 - (٥) الحافظ ابن نمير : حلية الاولياء ج ٩ ص ٣٦١
 - (٦) السلمي : طبقات الصوفية ص ٢٩

ويتجه ذو النون الى ربط المعرفة بالشريعة . فيقول " علامسة
المار ثلاثة : لا يطفى نور معرفته نور ورعه . ولا يعتقد باطنا من العلم فيقضى
عليه ظاهرا من الحكم ولا تحله كثرة نعم الله عز وجل على هتك استار مطهر الله
تعالى " (١)

وكما ازداد العارف معرفة بالله كان اكثر خضوعا . فيقول : " العارف
كل يوم اخضع لانه كل ساعة اقرب " (٢)

ومن أبرز ما يميز تصوف القرنين الثالث والرابع اصطلاح اصحابه لاسلوب الرمز
في التعبير عن حقائق التصوف وتعتبر هذه الرموز مبهمة على من ليس بصوفى . لان هذه
اللفة تعبر عن اسرار وحقائق ذوقية وهبها الله لهم . ويوضح القشيري هذه الدوافع
فيقول (. . .) وهذه الطاقة " الصوفية " مستعملون الفاظا فيما بينهم تصدوا بهما
الكشف عن معانيهم لانفسهم والاجناع والستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني
الفاظهم مستبهمه على الجانب غيبي منهم على اسرارهم ان تشيع في غير أهلها " (٣)
ولحل اصطلاح اسلوب الرمز من جانب الصوفية كان له أثر في النزاع بينهم وبين
الفقهاء الذين بدأت خصوصيتهم للصوفية منذ القرنين الثالث والرابع تشتد " لان
الفقهاء يميلون دائما الى ظاهر القرآن والسنة النبوية . اما الصوفية فلا يفرقون بين
واجب ومستور ولكل فرض من فرائض الدين اسرار . ولذلك عد الفقهاء واهل القضاة
اكثر آراء المتصوفة بدعا في الدين يجب الرد عليها ودحضها " (٤) . . . وقد
بدأت خصومة الفقهاء للصوفية منذ القرن الثالث والرابع تشتد وبدأ صراعهم

(١) القشيري : الرسالة ص ١٤٣

(٢) السلي : طبقات الصوفية ص ٢٦

(٣) القشيري : الرسالة ص ٣١

(٤) محمد ابو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية ص ١٥٧ — محمد كامل حسين :

آداب مصر الاسلامية ج ١ ص ٦٥

مع الصوفية واضط من خلال مطاوعات ذوالنون المصري الذي كانت آراؤه موضع نقد الفقهاء فاتهموه بالزندقة " . . . وأنكر عليه أهل مصر ذلك " أى أقواله الفلسفية فى التصوف " وقالوا : أحدث علما لم تتكلم فيه الصطبة وسموا به الى الخليفة المباسى المتوكل على الله ورموه عنده بالزندقة وأحضر من مصر على البريد فلما دخل سرمن رأى عاصمة العراق فى ذلك الوقت " وعظه ، فبكى المتوكل ورده مكرما . . . " (١)

وكان ذوالنون حجة فى الاقناع ما جملة يؤثر فى نفس المتوكل فيطلق سراحه . وقد بلغ من منزلة ذوالنون عند المتوكل " اننا اذا ذكر اهل الورع بين يديه يبكى ويقول اذا ذكر اهل الورع فحى هلا بذي النون " (٢) وكان ذوالنون قد اضطهد وأقسر بمحنة خلق القرآن . . . فقد هرب ثم رأى ان يرجع فرجع الى مصر ووقع فى يد (قاضى مصر فى ذلك الوقت " محمد بن ابن الليث " فأقر بالمحنة) . (٣)

لم يقتصر نشاط ذى النون على نشأة ووضع أسس علم التصوف بل كانت لـه علوم ومعارف اخرى . . . فقد ألحقه القفطى " بطبقة جليبرين حيان فى انتحال صناعة الكيمياء وتقليد علم الباطن والاشراف على كثير من علوم الفلسفة . . . " (٤) ويذكر صاحب الفهرست . . . انه كان متصوفا وله أثر فى الصنعة . وكتب مصنفة . فمن كتبه ، كتاب الركن الاكبر ، وكتاب الثقة فى الصنعة . (٥)

(١) ابن خلكان ج١ ص ٢٨١ — ابو المظن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٥٨ — السيوطى : حسن المظن ج١ ص ٢٥٨

(٢) ابن خلكان : وفيات ج١ ص ٢٨٣ — الطوسى : اللمع ص ٤٩٨ — السلمى : طبقات الصوفية ص ٢١٣ — الشمرانى : الطبقات الكبرى لواقع الانوار ج١ ص ٧

(٣) الكندى : الولاء والقضاء ص ٤٥٣ — سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١٦١

(٤) القفطى : اخبار الملوك باخبار الحكماء ص ١٨٥

(٥) ابن النديم : الفهرست ص ١٥٧ — ١٥٨

ويشير أحد المصادر إلى أن ذى النون كان يصوف اللغة السريانية وكان يقرأ مادون بها من نصوص وأخبار^(١) . وأنه كان يقرأ مادون بالفرعونية على جد وأن الهياكل والآثار وكان يعتنق كثيرا بما صور منها ورسم على البرابي من النقوش والصور وأنه تدبر بعضها مرة فآذا مكتوب فيه " يقدر المقدرون والقضاء يضحك " وتبين بعضها منها في ذلك القلم الأول فآذا مضاه :

تدبر بالنجوم ولست تدري . . . ورب النجم يفعل ما يريد . (٢)

وقد كان ذو النون كثير الملازمة لبرابا بلده^(٣) اخميم التي كانت تعتبر بيتا من بيوت الحكمة القديمة وفيها التصاوير المجدبة والمثالات الغريبة التي تزيين المؤمن ايماننا والكافر طغيانا ويقال انه فتح عليه علم ما فيها بطريق الولاية . (٤) ومن المرجح ان ملازمة ذى النون للبرابي كانت نتيجة لتأثره بحياة الرهبان الذين كانوا يمارسون حياتهم في الدير وفي الاماكن البعيدة النائية المحزولة وربما كانت ملازمة ذى النون لتلك البرابي لينشد مزيدا من التأمل بعيدا عن الاعين وليمارس عقيدته في الخفاء في تلك الاماكن البعيدة العقيرة وصف الطفاظ ابو نصيم أحوال الصوفية فيقول : (. . . الصوفية قد فارقوا المروغ والقفار وهربوا بد ينهم الى الجبال والقفار فهم الاتقياء الاخفاء) . (٥) وربما يكون اشتغال ذو النون بالكيمياء هو أحد الأسباب لملازمته للبرابي (فقد كانت هذه المصطلح بهذا العلوم الكيمياء والسحر والاسرار والطلسمات في نظر المسلمين ومن هذه البرابي بربا اخميم) . (٦)

وقد كانت لذى النون مكانة عظيمة في قلوب المصريين " ف قيل انه لما توفي سنة خمس واربعين ومائتين بالجيزة لم يتمكنوا من نقل جثمانه عبر الجسر القائم على النيل خشية ان ينقطع من كثرة تزام المشيعين فهربوا وحملوه في قارب تفاديا للزحام " . (٧)

-
- (١) ابو نصيم : حطية الاولياء ج١ ص ٣٣٩
 - (٢) المسعودى : مرجع الذهب ج١ ص ٢٢٣
 - (٣) البرابا - كلمة قبطية معناها المعبد - سيدة كشف : مصر في عصر الاخشيديين هام ص ٢٢٩ - وما ذكرته من مراجع
 - (٤) القبطى : اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٨٥
 - (٥) ابو نصيم : حطية الاولياء ج١ ص ١٧ : ٢٤
 - (٦) القزوينى : الخط ج١ ص ٢٢٨ - السيوطى : حسن المطهرة ج١ ص ٢٨

كانت لدى النون مكانة مرموقة في عالم التصوف وكان له اتباع ومريد يسـمـن بل تأثر به كثيرين من مشايخ الصوفية في المشرق مثل "ابى يزيد البسطامى (المتوفى سنة ٢٦١ هـ) (١) طيفور بن عيسى بن مردشان من اهل بلدة بسطام وكان جـده مردمان مجوسيا أسلم". (١) و"ابو سعيد الحزاز" احمد بن عيسى (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ) من اهل بغداد وهو أول من تكلم عن علوم الفناء والبقاء". (٢) وطاهر المقدسى الملقب بـ"بجر الشام". (٣) وقد سمع ذى النون ايضا وصحه ابو عبد الله ابن الجلاء وهو من أكابر مشايخ النشام". (٤) وكذلك يوسف بن الحسين المتوفى سنة ٣٠٤ هـ وكان شيخ الجبال والرى في وقته". (٥) هكذا خلف ذى النون وراءه حركة صوفية قوية ساهمت مدينة القسطنطينية فيها بفضل ونصيب كبير.

.....

قويت الحركة الصوفية بمصر في القرن الثالث الهجرى وصار لها ثقلها الاجتماعي ومكانتها السياسية وتأثيرها في نفوس الناس ويذكر بعض المؤرخين ان نفوس من هؤلاء الصوفية كان يتدخل في شئون الولاة بالنصيحة والموعظة "مثل ابو الحسن بن بنان ابن محمد بن حمدان الحمال الزاهد الذى كان من كبار شيوخ الصوفية بمصر في القرن الثالث الهجرى وكان جريئا في الحق لا يهاب الامراء والحكام وكان

(٧) ابن عربى : الكوكب الدرى في مناقب ذى النون المصرى ورقة ١١٥ أ
— ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٨٣ — ابو الطمسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٥٨ — السيوطى : حسن المضطرة ج ١ ص ١٢٨ —
الشمصانى : الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٠ — سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٩٠

- (١) السلى : طبقات الصوفية ص ٦٧
- (٢) السلى : السابق ص ٢٢٣ — السيوطى : حسن المضطرة ج ١ ص ٢٢
- (٣) السلى : السابق ص ٣١٢
- (٤) القشيري : الرسالة ص ٢
- (٥) القشيري : السابق ص ٢٦ — ٢٣

ذا منزلة عظيمة فى النفوس فكانوا يرضون بعبادته المثل . ويقال انه قد ضاق بجسارته احد القضاة فأتوا به الى احمد بن طولون الذى أمر ان يلقى به لسبع جائع لانه انكر على ابن طولون شيئا من المنكرات . ومن كراماته انه عندما ألقى به الى السبع كان يشمه ويحجم عنه فرفح من بين يديه وشاهد الناس عليه شيئا من الذهول فسأله عن ذلك فقال : كنت افكر هل سؤر السباع طاهر أم لا . (١) والواقع ان امثال هذه الكرامات كانت قد اختصت بصوفية القرنين الثانى والثالث وكان يتعلق بهما عوام الصوفية . (٢) وخلاصة القول انه قد زاد تعظيم الناس لابن بنان . لانه كان من جلة المشايخ والفاطنين بالحق والامرين بالمعروف وقد سئل ابن بنان عن اجل احوال الصوفية ؟ فقال : الثقة بالضعيف والقيام بالاوامر ومراعاة السر والتخلص عن الكونين والتثبت بالحق . (٣) وقد كان لابن بنان مكانة عظيمة فى نفوس المصريين لكراماته . فلما توفي فى رمضان سنة ٣١٦ هـ خرج فى جنازته اكثر اهل مصر وكان شيئا عجيبا . (٤)

ولم تقتصر حركة الزهد والتصوف على الرجال ، فقد كان لبعض النساء نصيب كبير فى المساهمة فى حركة الزهد والتصوف فى مصر فقد جاءت الى مصر فاطمة بنت عبدالرحمن بن طالح الحوانية الصوفية . . من الصالحات المتعبدات قال الخطيب ولدت ببغداد وحلت الى مصر فطال عمرها حتى جاوزت الثمانين وأقامت سنة لاتنام الا وهى فى مصلاها بغير غطاء . . سمعت من اخيها وروى عنها ابن اخيها عبدالرحمن بن القاسم وماتت سنة اثنى عشرة وثلثمائة . (٥)

(١) السلى : طبقات الصوفية ص ٧ - السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٨

(٢) متر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٤٧

(٣) السلى : طبقات الصوفية ص ٧١ - السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٩

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٩

(٥) السيوطى : السابق ج ١ ص ٢١٩

وقد كانت مصر موطنًا لكثير من الصوفية الوافدين الذين أتوا اليها ونشروا فيها حركة صوفية غنية وكانت لهم حوادث مع ولادة مصر تدل على سمو منزلتهم وتبريز كراماتهم . . . ومن هؤلاء الصوفية (أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملسي النابلسي الذي كان عابدا صالحا زاهدا قولاً بالحق وقد حكى ابن كافورا الإخشيدى بعث إليه بقال فردة . وقال : " قال الله تعالى (له ما في السموات وما في الأرض) وما بينهما وما تحت الثرى) . فأين ذكر كافور هنا . فقال أبو بكر " صدق الله تعالى (له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) . الملك والمالك كافور صوفي لا أنا ثم قيل المال — توفي سنة ٣٦٣ هـ . . (١)

ومن الصوفية بمصر أيضا " أبو الحسن علي بن محمد بن سهل الدينبوري الصائغ الزاهد أحد المشايخ الكبار . ومن كراماته أنه رأى صلى بالصحراء في شدة الحر . وقد نشر طائر جناحيه يظله من الحر . . وقد أنكر على تكبير أمير مصر شيئا فسيره إلى القدس . لكنه عاد إلى مصر وتوفي بها في رجب سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة . (٢)

وكان أبو بكر الدقاق أبو بكر نصر بن أحمد بن نصر الدقاق " من كبار رجال الصوفية بمدينة القضاة بمصر وقد تأثر بنشاط الحركة الصوفية بمصر بعد موته . قلت رطبا للصوفية اليها " قال الثاني : لما مات أبو بكر الدقاق انقطعت حجة الفقهاء في دخولهم مصر . (٣)

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٩

(٢) السيوطي : المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٠

(٣) السلي : طبقات الصوفية ص ٣١٤ — السيوطي : المرجع السابق

ومن المتصوفة الذين وفدوا الى مدينة القسطنطينية وتوفوا بها " ابو علي الروزباري " ابو علي احمد بن محمد بن القاسم بن شهریار الروزباري الذي يتصل نسبه بكسرى انوشروان فقد كان ببغداد ثم هجرها الى القسطنطينية فأقام فيها وأصبح شيخاً من شيوخ التصوف بها الى ان توفي سنة ٣٢٢ هـ ودفن بجوار ذي الننون المصري . (١) ويبدو ان ثقافته كانت واسعة . فقد كان يفتخر على اقرانه بسعة ثقافته ومعارفه وببها هي بشيوخه في الادب والعلم فكان يقول : شيخى فى التصوف الجليل وفى الفقه ابو الحباس ابن سريج وفى الادب ثعلب . (٢) ويشير احد المستشرقين الى ظهور بعد الفرق " الطرق " الصوفية على أيدي بعض هؤلاء المتصوفة مثل " الطيفوريه التى تنسب الى ابن يزيد البسطامي والخارزمية نسبة الى ابن سبيد الخراز " . (٣)

هؤلاء هم بعض الصوفية بمدينة القسطنطينية ولا شك انهم قد مهدوا بآرائهم وافكارهم الى علم التصوف الفلسفى فيما بعد لانهم بالرغم من ارتقاء افكارهم الصوفية لم يتطرقوا الى النواحي الفلسفية المعقدة . يقول نيكولسن (. . . وضع صوفية القرنين الثالث والرابع نظاماً كاملاً فى التصوف من الناحيتين النظرية والعملية ولكنهم لم يكونوا فلاسفة ولم يحلوا الا قليلاً بالمشكلات الميتافيزيقية " . (٤)

استمرت الحركة الصوفية بعد ذلك تتأرجح بين النبو والازديتار تارة وتعتريها موجة الانحسار تارة اخرى الى ان وصلت الى قمة مجدها فى مصر الايهي " حيث وفد الى مصر الكثير من المتصوفين . الذين تصد لهم صلاح الدين يوسف بن ايسوب بالمعناية والرعاية وانشأ لهم دوراً عرفت باسم الخانقاه الصلاحية للصوفية المنظمين للمباداة " . (٥)

-
- (١) الشمرانى : الطبقات الكبرى المسماة بلواقع الانوار ج١ ص ١٠٦ — السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ١٦٨
 - (٢) الشمرانى : الطبقات الكبرى ج١ ص ١٠٦
 - (٣) نيكولسن : فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٢
 - (٤) نيكولسن : السابق ص ١٥٤
 - (٥) المقرئى : الخطط ج٤ ص ٢٧٤

٧- دور التعريب في نهضة الدراسات اللغوية والنحوية

تأثرت مصر بأنواع الثقافات التي كانت موجودة بمواسم الدولة العربية الإسلامية سواء كانت مكة والمدينة في عهد الخلفاء الراشدين أو البصرة والكوفة في عهد الخلافة العبّاسية وخاصة فيما يتعلق بالدراسات العربية . ومنذ البداية كان معلّموا القرآن والسنة النبوية هم أساتذة العربية الأول بالفسطاط يقول د . شوقي ضيف (أنه كان طبيعيا أن تنشط دراسات النحوي في مصر في فترة مبكرة مع العناية بضبط القرآن الكريم وقراءته ما دفع إلى نشوء طبقة من المؤدّبين كانوا يعملون الشهاب في الفسطاط والاسكندرية مبادئ العربية حتى يحسنوا تلاوة الذكر الحكيم وأسهم في ذلك العلماء من أئمة القراءات الذين كانت تجذبهم مصر إليها .^(١) وكان أول هؤلاء القراء (عبدالرحمن بن هرمز الأعرج المدني مولى ربيعة بن الطرشان عبدالملك بن الهاشم الذي كان أحد الحفاظ والقراء . أخذ القراءة عن أبي هريرة وابن عباس وكان يكتب المصاحف وقرأ القرآن .^(٢) وقد أخذ عن أبي الأسود علم العربية فوضعه بالمدينة .^(٣) وقد خرج إلى الاسكندرية وأقام بها إلى أن أدركه أجله ومات سنة ١١٢ هـ في أيام هشام بن عبدالملك .^(٤) ولكن تكاد تجمع المصادر على (أن كل القراءات في مصر رواية عن نافع بن أبي نعيم . فقيه أهل المدينة السدي بحته الخليفة عمر بن عبدالعزیز إلى مصر ليملم أهلها بقراءة القرآن والسنة .^(٥) .

-
- (١) شوقي ضيف : المدارس النحوية ص ٣٢٧
 - (٢) ابن خلكان : وفیات الاعیان ج ١ ص ١١٧ - الذهبي : تاریخ الاسلام ج ١ ص ١٩٥ - السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٥ - بغية الوعاة ص ٣٠٣
 - (٣) ابن خلكان : وفیات الاعیان ج ١ ص ١١٧ - السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٥ - بغية الوعاة ص ٣٠٣ - الزبيدي : طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٠١ - ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ١ ص ١٥٣
 - (٤) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٩٥ - بغية الوعاة ص ٣٠٣ - الزبيدي : طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٠١
 - (٥) المقرئ : الخطط ج ١ ص ١٤٣ - السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٦

(١) وكان ورثي المقرئ من أجل تلاميذه " فقد انتهت اليه راحة الاقراء بالديار المصرية " .

والى جانب ما ساهم به أئمة القراءات فى تعميق آثار اللغة العربية —
بالفسطاط تبخت طائفة من فقهاء ومحدثى مدينة الفسطاط فى اللغة والنحو ،
فقد كان الليث بن سعد عربى اللسان — فصيح البيان — يحسن القرآن والنحو . (٢)
" وكان احمد بن صالح — أحد الحفاظ وكان اماما فى القراءات والنحو " . (٣)
وكان احمد بن يحيى الوزير بن سليمان التجيبى (١٧١هـ / ٢٥٠هـ) شيخ مبرز
من شيوخ الفسطاط — طقظا نحويا " . (٤) وكان أعظم أهل زمانه بالشعر والادب
والغريب وأيام الناس وكان له مجلس عامر بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط وقد
حسب الشافعى ، أيام حضوره الى الفسطاط ، ولازمه وأخذ الكثير
منه " . (٥)

وقد كان للشيوخ الوافىء بن على " الفسطاط " أثر كبير فى تعميق
آثار اللغة العربية ، بما كان لهم من ملكات لسانية قوية — ومن أبرز
هؤلاء " الامام محمد بن ادريس الشافعى " — الذى كان حجة فى اللغة
والنحو " . (٦)

(١) السيوطى : حسن المطهرة ج١ ص ٢٧٧ — ياقوت الحموى : معجم الادباء
ج١ ص ١١٨

(٢) السيوطى : حسن المطهرة ج١ ص ١١٨

(٣) القفطى : انباء الرواء ج١ ص ٥٢ — السيوطى : حسن المطهرة ج١ ص ١١٨

(٤) القفطى السابق ج١ ص ٥٢ — السيوطى : بغية الوفاء ص ١٢٤

(٥) السيوطى : بغية الوفاء ص ١٢٤

(٦) السبكى : طبقات الشافعية ج١ ص ٣٧٤ — ياقوت الحموى : معجم

الادباء ج١ ص ٢٢٩ ، ابن فرحون : الدياج المذهب ص ١٢٦

" وكان يحضر د روس الشافعى بالمسجد الجامع بالقسطاط طالبوا القرآن وطالبوا الحديث والفقه والعربية " (١) ومن ائمة اللغة الذين وفوا على القسطاط ايضا " عبد الملك بن هشام الذى كان اماما فى اللغتين والنحو والعربية " (٢) وقد كان له مجلس ادى به كبير فى جامع عمرو بن العاصى بالقسطاط وصار من ائمة اللغة والنحو بمصر " (٣) وكان للمصريين بمجالس ابن هشام وسيرته فرط غرام وكثير رواية " (٤) وقد التقى ابن هشام بالشافعى فى المسجد الجامع بالقسطاط وقال فيه (لقد طالت مجالستنا للشافعى فما سمعت منه لحنه قط . وما سمعته تكلم بكلمة الا اعبرها المعبر لا يجد كلمة فى العربية احسن منها " (٥) وكان الشافعى يجلس للمعلم . وقد التف حوله المصريون الذين عرفوا قدره . فأتوا فأنشدوه استاذنا لهم ، مثل الربيع بن سليمان وصح الخول الذى كان ظالم مصر باللفظة وكان الشافعى يقدره لفضله وعلمه يستدعيه الى مجلسه العلمى فيتناقشان ويتناظران " (٦) وكان الراغبون فى أخذ اللغة يتكالبون على مجلس الشافعى بالقسطاط " قال الزعفرانى المتوفى سنة ٢٦٠ هـ . احدث تلاميذ الامام الشافعى لرجل من رؤسائهم " انكم لاتعاطون العلم فلما تختلفون معنا (اى تجلسون) — فقالوا : نسمع لفظة الشافعى " (٧)

والنحو بمعناه الاصطلاحى كعلم له اصول وقواعد الخاصة . لم يكن قد تقرر بعد فى تلك الفترة (الى نهاية القرن الثانى الهجرى) وانما كانت مسائله تبحث فى المجالس العلمية الدينية ، وربما كانت تعرض للدارسين اثناء تدريسهم

-
- (١) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ١٢ ص ٣٠٣
 - (٢) القفطى : انباء الرواء ج ٢ ص ٢١١
 - (٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨ — بغية الوعاة ص ٣١٥ — اليافعى : مرآة الجنان ج ٢ ص ٣٨
 - (٤) السيوطى : السابق ج ١ ص ٢٢٨
 - (٥) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ١٢ ص ٢٩٩ — ابن فرحون : الديساج المذهب ص ١٣٣
 - (٦) السيوطى : بغية الوعاة ص ٢٥٢ — سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٨٧
 - (٧) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ١٢ ص ٢٩٩ — ابن فرحون : الديساج المذهب ص ١٣٤

بالفصاط المعلوم الدينية كالحديث والفقه فيضطرون للوقوف عند هذا المناقشة فيها دون ان يكون لهم كتاب فيها او منهج يلتزمون به " لانه لم يكن للدراسات اللغوية والنحوية في تلك الفترة أثر في مصر " (١)

النحو واللغة في طور الحفظ والرواية :

لم تلبث الدراسات اللغوية والنحوية بمصر ان تطورت في القرن الثالث الهجري على يد أسرة مصرية كان لها اكبر الاثر في وضع اساس علم النحو في مصر. وهي أسرة " بنى ولاد " التي اخذ النحو يأخذ طابعا مستقلا على يد ابنائها وكان رأس هذه الأسرة الوليد بن محمد التميمي المعروف بولاد العبادري المتوفى سنة ٢٦٣ هـ فعلى يد به تكونت المدرسة التي تعد النواة الاولى لداسة النحو في مصر فتشير كثير من المصادر الى انه كان اول من ادخل علوم الصوفية الى الفصاط ولم تكن كسب النحو واللغة تعرف بها قبله " (٢) وكان ولاد بمصرى الاصل نشأ بمصر ورجل الى العراق وسمع بها العلماء " (٣) وكانت العراق في ذلك الوقت هي موطن الخلافة في مصر المباسي ولهذا فقد كانت ملتقى الدارسين وكانت تشد اليها رحل العلماء الراغبين في الاستزادة بعلم النحو. وكانت الرحلة وسيلة هامة للاتصال بالعلماء " وكان لاصحاب اللغة مشاركة في الرحلة مثل اصحاب الحديث " (٤) وفي رحلته ذهب لولاد العبادري الى المدينة للاخذ عن علماءها ثم عرج على العراق تذكر الرواية التاريخية (١) ان ولاد كان يأخذ النحو عن رجل من اهل مدينة النهى

(١) محمد كامل حسين : أدب مصر الاسلامية ص ٦٨

(٢) القفطى : انباء الرواء ج ٢ ص ٣٥٤ - السيوطى : بغية الوفاء ص ٤٠٥ -

الزبيدي : طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٣٤ - شوقي ضيف : المدارس النحوية ص ٣٢٨

(٣) السيوطى : بغية الوفاء ص ٤٠٥ - الزبيدي : طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٣٣

(٤) الرافعى : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٤٣-٢٤٤

صلى الله عليه وسلم ولم يكن المدني من الحذاق بالعربية . فسمع ولاد بالخيل
 بن احمد فرحل اليه . فلقبه بالبصرة . وسمع منه ولازمه ثم انصرف الى مصر .^(١) ويبدو
 ان ولادا قد اصاب في رحلته وحمل علما غريبا . فعند انصرافه الى مصر جعل طريقه
 على المدينة . فلقى معلما فناظره . فلما رأى المدني تدقيق ولاد للمعاني وتحليله
 في النحو قال : لقد ثبت بعد هذا الخردل (اى انما كثر دقة منه)^(٢) وقد كان
 الذين يرحلون الى العراق يحملون معهم عند عودتهم كتب النحو واللغة حيث
 كانوا يقومون بنقلها وخطها وقراءتها وروايتها على النابهين من طلاب العلم .
 فكان ولادا هو اول من ادخل كتب النحو واللغة الى القسطنطينية بعد ان حذقها ورواها
 باسانيدها عن علماء البصرة .^(٣) وكانت رحلة ولاد بداية عهد جديد في الرحلة
 الى العراق امام العلماء المصريين اذ ترسوا خطاه واقتفوا اثره . ورحلوا الى مدن
 العراق يستزيدون من العلم والتقوا هناك بشيوخ النحو وعلماءه واخذوا عنهم ثم
 عادوا وهم يحملون ما درسوه وينقلون ما سمعوا ويرويون ما حفظوه . وبذلك اتصلت الدراسات
 النحوية في مصر في زمن مبكر بالدراسات النحوية بالبصرة والكوفة بالعراق^(٤)
 وكان " ابو عبد الله محمد بن حسان المتوفى سنة ٢٧٣ هـ . قد تأثر بصورة واضحة
 بالمعراقيين . قال ابن يونس في تاريخ مصر : ان ابو عبد الله كان نحويا مجتهدا .
 وروى عن ابي ذرعة المؤذن وعبد الملك بن هشام^(٥) وكان قديما المهد فسمى
 طريقة اصحاب الخليل كولاد وغيره . وتصدر لافادة هذا الشأن فأخذ عنه ابو الحسين
 بن الوليد ولاد .^(٦)

-
- (١) السيوطي : بغية الوعاة ص ٤٠٥ — الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٣٣
 (٢) القفطي : انباء الرواة ج ٢ ص ٣٥٤ — السيوطي : بغية الوعاة ص ٤٠٥
 — الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٣٢
 (٣) القفطي : انباء الرواة ج ٢ ص ٣٥٤ — السيوطي : بغية الوعاة ص ٤٠٥
 الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٣٢
 (٤) شوقي ضيف : المدارس النحوية ص ٣٢٨
 (٥) السيوطي : بغية الوعاة ص ٣٨٧
 (٦) القفطي : انباء الرواة ج ٢ ص ٢٦٤ — السيوطي : بغية الوعاة ص ٣٨٧ —
 الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٣٣

النحو ومكانة النحاة بالقسطاط في عصر المؤلفات العلمية :

كانت مصر في القرن الثالث الهجري تغص بالمديد من اللغويين والنحاة وكان معظم هؤلاء من الواقدين اليها . وكان من أبرز هؤلاء النحاة (ابو علي احمد بن جعفر الدينوري المتوفى سنة ٢٨٩ هـ — احد النحاة البصريين — وهو من اصحاب المؤلفات الادبية النحوية وقد سار كاسلافه في بداية الامر في الاخذ عن المراقبيين ، فقدم البصرة من بلدته دينور . واخذ عن المازني وحمل عنه كتاب سيويه (١) ثم دخل بغداد وقراء على العبد ايضا ثم وفد الى مصر مقوطنا . فاستقر به — يعلم النحو — (٢) وكان ابو علي الدينوري من اصحاب المؤلفات العلمية فقد ألف كتابا في النحو سماه " المذهب " جلب في صدره اختلاف البصريين والكوفييين — وعزا كل مسألة الى صاحبها . ونقل مذهب البصريين وعول في ذلك على كتاب الاخفش (سعيد بن مسعدة) وله كتاب مختصر في ضعائر القرآن استخرجه من كتاب الممانى للفراء (٣) وقد تتلمذ على يديه عدد من النحاة في مصر والاندلس ، ومن تلاميذه المصريين محمد بن ولاد ، وعبد الله بن عبد الميز استاذ يعقوب بن يوسف النجيري (٤) ومن اخذ عنه من الاندلسيين (محمد بن موسى بن — هاشم الافشين القوطي) وقد أخذ عن كتاب سيويه رواية (٥)

- (١) سيويه هو واضح علم النحو في اظاره الملحق — وعمل كتابه فيه . ولم يسبق الى مثله احد قبله . جمع فيه كل المعلومات اللغوية والنحوية في عصره (ابن النديم / الفهرست ص ٨٢) .
- (٢) القفطاسي : انبأه الرواه ج ١ ص ٣٣ — السيوطي : بغية الوفاء ص ١٣٠
- (٣) القفطاسي : السابق ج ١ ص ٣٣ — ياقوت الحموي : معجم الادباء ج ٢ ص ٢٤٠ — طجسي خليفة : كشف الظنون ج ١ ص ١٠٨
- (٤) ابن القرض : تاريخ العلماء والرواه للملم بالاندلس ج ١ ص ٢٢٣ — السيوطي : بغية الوفاء ص ١٣٠
- (٥) السيوطي : بغية الوفاء ص ٣ — الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٣٦

وكان يناصر ابو على الدينورى (ابو الحسين — محمد بن الوليد التميمى —
 (٢٤٨—٢٩٨هـ) احد النابيين من اسرة بنى ولاد * (١) ويمد محمد بن —
 الوليد من المصريين * يقول صاحب الاعلام * انه نحى من اهل مصر مولدا ووفاة * (٢)
 وقد اخذ محمد بن الوليد العربية بمصر عن محمود بن حسان وابو على الدينورى
 وغيرهما * (٣) ثم رحل الى العراق واخذ عن الجرد وشعلب وله من الكتب كتاب المنق
 ولم يصنع فيه شيئا * ونسب اليه خطأ كتاب المقصور والمعدود * (٤) وهو لابن —
 ابى العباس بن ولاد * وتذكر بعض المصادر ان محمدا هو أول من أدخل كتاب سيبويه
 الى مصر بعد ان انتسخه من الجرد * فعندما رحل الى العراق كلم الجرد نفسه فسى
 نسخه على شىء ساء له فأجابه * فأكمل نسخة وابى ان يعطيه شيئا حتى يقسرها
 عليه فغضب الجرد * وسمى الى بعض خدم السلطان ليعاقبه على ذلك * فاستجأ
 ابن ولاد الى صاحب الخراج بهفداد * وكان يؤدب ولده * فأجابه * ثم السح
 على الجرد حتى أقرأه الكتاب * (٥)

ومن النحلة * اصطب المؤلفات لادبية * الذين وفدوا الى القسطنطينية
 (الاخفش على بن سليمان) المتوفى ٣١٥هـ بهفداد * الذى جاء الى القسطنطينية
 سنة ٢٨٧هـ وتصدر للتدريس بها وقد أخذ عنه المصريون اللغة * فقد مكث

-
- (١) القفطى : انباء الرواء ج٢ ص ٢٤٤ — السيوطى : بغية الوفاء ص ١١٢ —
 الزبيدى : طبقات النحويين ص ٢٣٧
 (٢) الزركلى : الاعلام ج٣ ص ٩٩٩
 (٣) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج١٩ ص ٩ — الزبيدى : طبقات النحويين
 ص ٢٣٤ — ٢٣٦ — السيوطى : بغية الوفاء ص ١١٢
 (٤) ياقوت الحموى : السابق ج١٩ ص ١٠٥ — السيوطى : بغية الوفاء ص ١١٢
 (٥) ياقوت الحموى : السابق ج١٩ ص ١٠٥ — الزبيدى : طبقات
 النحويين ص ٢٣٦

بها فترة طويلة — حيث خرج منها سنة ٣٠٠ هـ وقد قيل انه لم يفاد رها
 الا سنة ٣٠٦ هـ (١) وكان الاخش تلميذا للمبرد وروى عنه كتابه الكامل (٢)
 أحد اركان الادب الاربعة وله من الكتب — كتاب الانواء وكتاب التثنية والجمع
 وكتاب الجراد (٣)

ومن أشهر النحاة الذين قدموا الى القسطنطينية وعدوا منها " ابو بكر محمد
 بن عبد الله بن محمد بن مسلم — مولى حمير المعروف بالملطى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ
 قال ابن يونس فى تاريخ مصر : انه كان نحويا يعلم اولاد الملوك النحو (٤) وكان
 معلما وقد أم بالجوامع الحقيق بالقسطنطينية (٥)

ومن اصحاب المؤلفات النحوية الذين جاءوا الى مصر ايضا (محمد بن
 محمد ابن الازهرى بن طلحة المعروف بالازهرى اللقى — الاديب (٢٨٢) —
 ٣٧٠ هـ) وهو صاحب كتاب التهذيب فى اللغة وتفسير مختصر المبنى والتعريب
 فى التفسير (٦) وكان الازهرى طالما بالنحو اماما فى الادب ، جيسد
 القياس ، صحيح الفريضة (٧)

(١) القفطى : انباء الرواة ج٢ ص ٢٢٧ — السيوطى : بنية الوعاء
 ص ١٣

(٢) السيوطى : بنية الوعاء ص ١٣

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ١٢٩

(٤) البى سميوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٣٠٦ — بنية الوعاء
 ص ٦

(٥) السيوطى : بنية الوعاء ص ٦٠

(٦) السيوطى : السابق ص ٨

(٧) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج١ ص ٢٤٨ — السيوطى : بنية
 الوعاء ص ٨

وقد كان استاذنا لكثير من المصريين فقد كان مقيط بالديار المصرية . (١) ومن اجل تلاميذه " على بن محمد الهوى المصرى - وهو اول من أدخل كتاب الصحاح للجوهري الى مصر ووجد فيه خلافاً لهذبه وأصله " . (٢)

ولاشك ان وجود هؤلاء النحاة قد اسهم فى ازدهار حركة النحو واللغة بالقسطاط وكان لهم الفضل فى شيوع المؤلفات اللغوية والنحوية بها .

الدراسة النحوية بمصر بين التثليد والتجديد :

تطورت الدراسات اللغوية والنحوية فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فقد نضجت العلوم على اختلاف مواضعها وظهرت الكتب الوافية نسي اكثرها . (٣) وكان هذا القرن حداً يفصل بين عهدين وطريقتين . (٤) ونفى هذا القرن تخلص علم اللغة من طريقة الفقهاء وما هجم حتى من الناحية الشكلية . وقد شمر ائمة اللغة فى القرن الرابع الهجرى بالطبعة الى منهج يشيرون عليه . والى تناول مادة بحثهم على طريقة منظمة . (٥) ويحسب القرن الرابع فتحاً جديداً فى كل من الناحيتين الرئيسيتين لعلوم اللغة العربية وهما : النحو وعمل المعاجم . (٦) وتشير كثير من القرائن الى شيوع اللغة العربية فى مصر فى القرن الرابع الهجرى . (٧) وقد ظهر بوضوح نفور الناس من اللحن السى حد ان اعتبر عيباً كبيراً ومن ذلك " ان الفضل بن عباس دخل على كافور فقال له : ادام الله ايام مولانا " بكسر الميم " فانكر كافور والحاضرون فى مجلسه ذلك فقسم رجل من الحاضرين من اوساط الناس ، ولمله النجوى وانشد ممثلاً عن لحن

(١) السيوطى : بشية الوطاء ص ٨

(٢) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ١ ص ٢٤٨

(٣) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٢٠

(٤) متر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٤١٧

(٥) متر : السابق ج ١ ص ٤١٧

(٦) متر : السابق ج ١ ص ٤١٦

(٧)

اللاحن • على أن يحفو كافور:

لا غرو ان لحن الداعى لعيدنا •• أو غنى من هيئته بالريق أو بهير
نمثل سيدنا حلت مهايتسه •• بين البليخ وبين القول بالحصير
فان يكن خفض الايام عن دهنش •• من شدة الخوف لا من قلة البصر • (١)

وفى تلك الفترة • اخذت الدراسات اللغوية المصرية تشق طريقها بنفسها
وتقف على قدميها وحدها • وتتأقن نظيراتها فى سائر انحاء العالم الاسلامى • وظهر
لاول مرة مؤلفون مصريون متفوقون انضمت جهودهم الى جهود الوافدين من البلاد
الاخرى فخلقت حركة لغوية نشطة اثار لها انتباه العالم الاسلامى كله • (٢)

وكان اللغويون والنحاة المصريون كثيرين ويتفاوتون من حيث الشهرة وغزارة
الانتاج الملقى وكان فى مقدمة هؤلاء (كراع النحل — أبو الحسن على بن الحسن
الهنائى الدوسى الازدى من اهل مصر وتوفى بها سنة ٣١٠ هـ • (٣) • وكان كوفى
المذهب وقد أخذ عن مسن البصريين وغلط المذهبيين وكان الى قول البصريين
أميل • (٤) • وكانت كتبه فى مصر مرغوب فيها • (٥) • فقد كان كراع النحل مسن
اصحاب المصنفات وله مؤلفات عديدة مثل " المنجد فى اللغة " • (٦) • قال القفطى:
" ورأيت جزءاً من كتابه " المنجد " من خطه وقد كتب فى آخره " انه اكمل تصنيفه
وورق فى سنة تسع وثلاثمائة " • (٧) • وله كتاب مجرد الغريب على مثال الميسر
وهلى غير ترتيبه — وقد ألف فى غريب كلام العرب ولفاتها على عدد حروف

(١) ابو الطاهر : النجوم الزاهرة ج٤ ص ٢ — حيدة كاشف : مصر فى عصر
الآخمينيين ص ٣٣٢

(٢) احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية فى مصر ص ٦٢

(٣) القفطى : انباء الرواء ج١ ص ٢٤٠

(٤) القفطى : انباء الرواء ج١ ص ٢٤٠ — السيوطى : بغية الوفاء ص ٣٢٣

(٥) ابن النديم : الفهرست ص ١٣١ — السيوطى : السابق ص ٣٢٣

(٦) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٩٠

(٧) القفطى : انباء الرواء ج١ ص ٢٤٠ — حاجى خليفة : كشف الظنون

الهجاء الثانية والمشرين * (١) " وقد بث كرام النحل في ثنايا كتبه آراء نافذة
في كثير من مشكلات علم اللغة وأصوله * (٢)

كان أعظم علماء اللغة والنحو في مدينة القسطنطينية في القرن الرابع الهجري
" أبو المباسم بن ولاد وأبو جعفر النحاس * وكان ابن ولاد — أبو المباسم — أحد
بن محمد بن الوليد التميمي المصري نحوي مصري وقاضيا وقد أقام بها بفيد ويصنف
إلى أن مات سنة ٣٣٢ هـ * (٣) وكان شيخ الديار المصرية مع أبو جعفر النحاس * (٤)
وهو من أسرة بنى ولاد التي استأثرت أهلها بعلم اللغة والنحو وقد تتلمذ على علماء
القسطنطينية في أول مراحل حياته * فسمع من أبيه بعصر — ثم رحل إلى بغداد فأخذ
عن الزجاج — أبو اسحق إبراهيم بن السري ولزمه وسمع عنه مع أبي جعفر النحاس وكان
الزجاج يفضل على ابن النحاس وشيخه عليه عند من يقدم ببغداد من المصريين — فكان
يقول : " عندكم تلميذ من صفته كذا كذا " فيقال له : أبو جعفر النحاس — فيقول
بل أبو المباسم بن ولاد * (٥)

وقد اشتدت المنافسة بين ابن ولاد هذا ومحاصره أبو جعفر النحاس
فقد كانا دائما على نفور — وقد حدث أن جمع بعض ملوك مصر بينهما في مظاهرة
احتدم فيها النقاش واشتد الشجار * (٦) وكان لابن ولاد مجالسة المليحة
التي يرتادها طلاب العربية * وكان عبدالله بن يحيى بن سعيد الشاعر المصري

(١) ابن النديم : الفهرست ص ١٣ — القفطي : انباء الرواء ج ١ ص ٢٤ —
طنجي خليفة : السابق ج ١ ص ١٨٦

(٢) أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر ص ٦٣

(٣) القفطي : انباء الرواء ج ١ ص ٩٢ — السيوطي : بغية الوفاء ص ١٦٩ —
سيدة كاشف : مصر في عصر الاخشيديين ص ٢٤

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨

(٥) السيوطي : بغية الوفاء ص ١٦٩ — الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٣٨

(٦) القفطي : انباء الرواء ج ١ ص ٩٩ — ياقوت الحموي : معجم الادباء ج ٤

احد من لازموا مجلسه وأخذوا عنه " (١) وكان ابن ولاد على جانب كبير من العلم بالصربية بصيرا بالنحو خبيرا بأسرار اللفظ طارنا بمفرداتها " (٢) وكان لابن ولاد كثير من المؤلفات العلمية في النحو واللغة ومن مؤلفاته " كتاب الانتصار لسيويه على المبرد " (٣) وهو من احسن الكتب " (٤) وله ايضا " كتاب المقصور والمدود " وهو مرتب على حروف المصموم ومعالج مشكلات الكلمات المقصورة والمدودة ويذكر طريقة هجائها ويحصر مفرداتها وكان لابن ولاد آراء تقدمية في كيفية تقديم القواعد وفي أصول النحو تمتد من أنفع ما قيل في هذا الموضوع " (٥) وقد تضمن هذا الكتاب لنقد المتنبي (الذي جاء الى مصر في نهاية النصف الاول من القرن الرابع الهجري) — فقد قرئ على المتنبي في مجلسه كتاب المقصور والمدود — فصحه ورد فيه على ابن ولاد اغلاطا واستشهد عند بعضها • وذلك سنة ٣٤٢ هـ " (٦)

ونبع من النحويين بالفسطاط ففى بداية المصر الاخشيدى ايضا " ابو جعفر النحاس — احمد بن محمد بن اسماعيل المرادى المصرى النحوى المتوفى

(١) السيوطى : بغية الوفاء ص ١٢٢ •

(٢) السيوطى : الزهر جا ص ٩١

(٣) مخطوطا بدار الكتب المصرية رقم ٢٠٥ نحو تيمور — وقد بدأ الكتاب بمصا نعه : (٠٠٠) هذا كتاب نذكر فيه المسائل التى زعم ابا المباسم محمد بن يزيد ان سيويه غلط فيها — ونبينها وترد القبه التى لحقت بها) •

(٤) السيوطى : حسن المطهرة جا ص ٢٨٨

(٥) احمد مختار عمر : تاريخ اللغة المصرية فى مصر ص ٦٢

(٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان جا ص ٨٢ — القفطى : انباء الرواء جا

ص ١٠٤ — السيوطى : حسن المطهرة جا ص ٢٢٨ — الزبيدى :

طبقات النحويين ص ٢٣٩ — سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٣٤١

سنة ٣٣٨ هـ — الذي ارتحل الى العراق واخذ عن الزجاج والاخشبالاصغر والمبرد ونقطويه * . وحده رجوع ابو جعفر النحاس من العراق تصدر للتدريس بالجامع — بالقضاة وكان يحضر حلقة ابن الحداد الفقيه الشافعي وكان لابن الحداد ليلة في كل جمعة يتكلم فيها عدة في مسائل الفقه على طريقة النحو * وكان لا يدع حضور مجلسه في تلك الليلة * (١) وكان قلما حسن من امانه وكان لا ينكر ان يسأل اهلي النظر ويناقشهم عما اشكل عليه في تصانيفه وجلب الى الناس الاخذ عنه وانتفع به خلق * (٢) وكان ابو جعفر واسع العلم كثير التأليف * (٣) قال ابن يونس في تاريخه : كان ابو جعفر النحاس عالما بالنحو طرزا وكتب الحديث عن الحسن بن ظيب وطبقته * ولما آتى الى مصر مع بها من ابن عبد الرحمن النسائي وغيره (٤) وتصانيفه تزيد على الخمسين مصنفا * (٥) ومن ابرز مصنفاته " كتاب معاني القرآن وكتاب أعراب القرآن — وهما كتابان جليلان اغنيا عما صنف قبلهما في معناها * (٦) ولا يـ جعفر النحاس ايضا كتابا جليلا هو " التفاحة في النحو " (٧) ويقول د ١٠ احد مختار عمر * انه ذو اهمية كبيرة وقد وضع تلبية لطاجة الناشئة وكتب في اسلوب مبهر بطريقة سهلة مبسطة * والكتاب يلخص النحو كله في بضعة ورقات ويقدم للسداس المبتدئ عبارة القواعد النحوية العلمية منحيا جانبا كل ما لا يفيد في تفهيمهم

(١) القفطي : انباء الرواه ج١ ص ١٠١ — الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٤

(٢) السيوطي : بنية الوطاء ص ١٥٧

(٣) القفطي : انباء الرواه ج١ ص ١٠١ — ياقوت الحموي : معجم الادباء

ج٤ ص ٢٢٤

(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٨٢ — السيوطي : بنية الوطاء ص ١٥٧

(٥) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج٤ ص ٢٢٤

(٦) القفطي : انباء الرواه ج١ ص ١٠١ — ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٨٢ — انظر

(٧) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج٤ ص ٢٢٤ — القفطي : انباء الرواه

ج١ ص ١٠١ — ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٨٢ — طحي خليفة

كشف الظنون ج١ ص ٤٠٦

النطق وتصحيح البيان وكل الخلافات اللفظية والمناقشات الفلسفية التي تتلخص بها كتب السابقين ويعد هذا الكتاب ثورة على الطريقة التقليدية في دراسة النحو العربي . (١)

وهكذا كان لابي جعفر النحاس دور كبير في التجديد في مجال الدراسات اللغوية والنحوية وكانت مؤلفاته تشير الى عدم اقتصاره على التأليف والتنقيب والاقتداء بالمدسة الهندادية وانما تجاوز ذلك الى تمثيل هذه الثقافة وضمها ثم اخراجها في صورة مبتكرة .

كانت مدينة القسطنطينية التي عرفت عليها الثقافة العربية ، فسي دراسات النحو واللفظ من الشرق الى الغرب عن طريق النحاة المصريين امثال ابو العباس رابين ولاد ومعاصره ابو جعفر النحاس — فقد كانت تلك المدينة ملتقى الدارسين من بلاد المغرب والانديلس للاخذ عن علماء الفحوبها . وكان لهؤلاء الدارسين فضل كبير في رواج المؤلفات النحوية المصونة في بلاد المغرب والانديلس فقد نقلوها معهم الى بلادهم وحتى نهاية القرن الرابع الهجري كانت بلاد المغرب والانديلس تعتمد اعتمادا كليا في دراسات العربية الاسلامية على مصر . ولم تنفج تلك الدراسات هناك الا على يد المبعوثين الذين زاروا مصر ورسوا فيها . ثم عادوا الى اوطانهم يدرسون تلك المؤلفات . (٢) ومن اشهرهم هؤلاء الدارسين فضل الله بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن نجيج الكونى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ من اهل قوطبة ورحل الى المشرق ولقى ابا سن ولاد وابن النحاس ومصر وسمع منهما . (٣) ومنهم ايضا قاض قضاة الاندلس منذرين سعيد بن عبد الله البلوطى الذى رحل حطبا سنة ثمان وثلاثمائة وروى بمصر كتاب المين عن ابي العباس بن ولاد بعد ان بخل بل عليه ابو جعفر النحاس . (٤)

(١) احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر ص ٦٤

(٢) احمد مختار عمر : السابق ص ٦٤

(٣) ابن الفرضى : تاريخ العلماء والوفاء للعلم بالاندلس ج ١ ص ٣٦٦

(٤) القفطى : انباء الوفاء ج ١ ص ١٠٢ — ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ١ ص ٨٣ — ابن الفرضى : تاريخ العلماء والوفاء للعلم بالاندلس ج ٢ ص ١٢٢ — الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٠٤

ومن أشهر التلاميذ الآخذين عن علماء القسطنطينية " عبد الكبير بن محمد بن (١) سعيد الجزري القوي " الذي رحل إلى المشرق وسمع بمصر من أبي جعفر القسطنطيني ومن نسخة الاندلس الذين أخذوا عن المصريين أيضا " محمد بن اسحاق بن منذر بن ابراهيم بن أبي عكرمة الداخل إلى الاندلس قاضي الجماعة بقرطبة — رحل سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة • فسمع بمصر من أبي جعفر القسطنطيني والنحوي وانصرف إلى الاندلس ومات سنة ٣٦٢ هـ " (٢) .

(١) ابن الفرضي : تاريخ الملوك والملوك للعلم بالاندلس ج١ ص ٢٤٩
 (٢) ابن الفرضي : السابق ج٢ ص ٨٠ — الزبيدي : طبقات النحويين ص ٣٣٦

٨- ديوان الرسائل ودوره فى

تدعيم التعبير فى عصر الاسلامى

كان الشعر يشغل مكانة هامة بين علوم اللسان العربى السائدة بمد ينفذة
الفسطاط .. الا ان التقدير والاحلال كان للكلام المنشور الى جانب تقدير الشعر ،
وكانت ملكة الخطابة تعتبر شيئاً آخر مطلقاً للملكة الشعرية . (١)

وكان الانشاء أو الكلام المنشور فى صدر الاسلام مقصوراً على مكاتبة الخلفاء
وأمرائهم وقوادهم أو مع سواهم فى طلب حرب أو صلح .. فلما صار الاسلام دولة
تفرعت الكتابة الى أقسام اقتضاها تعدد مصالح الدولة وتفرع احتياجااتها . كان
اهمها بالنظر الى الانشاء والبلاغة كتابة الرسائل ، صاحبها يعنى كاتب السر .
وهو يد الخليفة ويستودع أسواره . (٢) وكانت طريقة كتابة الرسائل مجالا
للتعمير على اظهار صور البلاغة وأساليبها . (٣) التى تضمنى على حد قول العلامة
ابن خلدون (مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه — أو بمعنى آخر — تركيب
الالفاظ المفردة للتعبير بها عن المعانى المقصودة ومراعاة التأليف الذى يطبق
الكلام على مقتضى الحال ليلغ التكلم حينئذ الفاية من أفادة مقصوده للسامع) (٤)

كان للكتابة والكتاب شأن عظيم فى الدولة الاسلامية منذ أيام الرسول عليه
الصلاة والسلام .. فقد كان على بن أبى طالب وعفان بن غاف من كتاب وحسى
النبي (صلعم) كما كان أبى بن كعب وزيد بن ثابت وخالد بن سميد بن العاص
ومعاوية بن أبى سفيان يكتبون بين يديه فى حوافه .. وكان المغيرة بن شعبه ،
والحسين بن نمر بكتبان طبيين الناس . كما كان زيد بن ثابت يكتب الى الملوك
مع ما كان يكتبه من وعى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان حنظلة بن الربيع يسن

(١) متر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج١ ص ٤٢٢

(٢) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج٢ ص ١٢٢

(٣) متر : الحنارقالا اسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج١ ص ٤٢٦

(٤) ابن خلدون : المقدمة — الفصل السابع والثلاثون ص ٥٥٤ — ٥٦٠

صفي خليفة كل كاتب من كتاب النبي اذا غاب عن عظه • فطلب عليه اسم الكاتب وكان رسول الله (صلم) يضع عنده خطته • ولما تولى الخلافة أبو بكر الصديق رضى الله عنه كان يكتب له عثمان ابن عفان وزيد بن ثابت وعبد الله بن الارقم وحظلة بن الربيع • وكان يكتب لعمر بن الخطاب زيد بن ثابت • وعبد الله بن الارقم • (١)

ومعد اتساح رقعة الدولة الاسلامية بعد الفتوحات الاسلامية احتيج الى نظام يخطط امورها • • • وكان عمر اول من ندون الدواوين من العرب في الاسلام • (٢) وربما أخذ هذا النظام من الفرس الذين كانوا قد سبقوا الدولة الاسلامية بزمن وبلغوا من الحضارة شأنًا عظيمًا • فتذكر الروايات انه بعد ان وفد ابو هريرة الى أمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب نادى من البحرين بمال كثير • احتار الخليفة في عسده فأقترح عليه احد الاشخاص • فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت هؤلاء الاطعاس يدنون ديواننا لهم • فقال : دونوا الدواوين • (٣) ومرار الزمن تعددت الدواوين في الدولة الاسلامية فكان منها ديوان الخراج والجند والخطم (انشاء معاوية بن ابى سفيان • ثم كبرت وزاد انتشارها في الدولة العباسية مثل ديوان الاحداث والبريد والزام • • • وديوان الانشاء او الرسائل الذى كان اهل تلك الدواوين ممن الناحية الادبية وكانت مهمة متولية اذاعة المراسيم والبيانات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة • • • (٤) وقد استوجبت حلة مصر بعد ان تم فتحها على يد عمرو بن العاص واستقرار العرب بها ضرورة وجود مثل هذا الديوان • فقد كانت مصر مقسمة اداريا الى مصر الحليا والصعيد ومصر السفلى أو اسفل الارض • وهذان

(١) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ٩ و ١٠

(٢) الجهمشيارى : السابق ص ١١

(٣) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ١١ — الديوان فى الاصل كلمة فارسية الجواليقى : المصر ص ١٥٤ — اما معناه " فهو سجل او دفتر او مجتمع الصحف يكتب فيها اسماء رجال الجيش واهل المطاع " وهو موضع لخط ما يتعلق بحقوق السلطنة من الاعمال والاموال ومن يقوم بها من الجيش والعامل •
الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٩١

(٤) حسن ابواهم حسن : النظم الاسلامية ص ٢٢٣

القسمان الرئيسيان كانا قسمين أقساماً أو كوراً • وكان بها ثمانون كورة وهــهـهـه
 قصعة الى قرى تبعا لتقسيم الرومان ونظمهم الادارية • • وكان يحكم الكورة طـاـحـسـب
 الكورة الذى يعمل تحت اشرافه موظفون • وكانت اللامركزية متعددة فى الولايات اى ان
 جميع موظفى الولاية ووطـاـ الكور تحت سلطة الوالى الذى كان تحت سلطة الخليفة
 مباشرة • • ولقد احتاج الامر الى ان يكون للوالى كتبة كثيرون يستعين بهم فى
 تحرير رسائله الى مختلف اقسام هـرو وكورها والى الخليفة نفسه • ولذا نرى فى آخر
 الرسائل والكتب اننى كان يرسلها الولاـه اسماـ الكتبة الذين كانوا يحرونها مـا
 يدل بوضوح على انه كان يصرف فى ذلك المهد ديوان رسائل هـأود ديوان انشاء هـ (١)
 ويبدو انه كان هناك مراسلا بين القسطنطينية ودار الخلافة سواء فى المدينة أو دمشق
 أو بغداد • ولكن يبدو ان ذلك كان بسيطاً فى اول الامر وكانت تلك الرسائل
 قليلة معدودة لضعف شأن ديوان الانشاء بالقسطنطينية فى بداية عهد السلـواـه •
 قال القلقشندي : (• • •) لم يكن لديوان الانشاء بالديار المصرية فى هذه المدة
 صرف غاية قاصرة عن التشبيه بديوان الخلافة هـاذ كانت الخلافة يومئذ
 فى غاية العز ورفعة السلطان • ونياية هـر • بل سائر النيابات مضمحلة فـسـسـى
 جانبها • والولايات الصادرة عن النواب وتضاغرة متضائلة بالنسبة الى ما يصدر من
 ابواب الخلافة • فلذلك لم يقع ما كتب منها ما تتوفر الدواعى على نقله ولا تنصرف
 الهم لتدوينه • • (٢) وربما ترجع ضالة هذا الديوان وعدم قيمته فى اول الامر
 الى ان القاضين بأمر الدواوين فى تلك الفترة كانوا من الاقباط الذين يعرفون
 لغة اهل البلاد • وظل هذا الامر قائما حتى كانت خلافة الوليد بن عبد الملك
 وكانت ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان فأمر بالادواوين ففسخت بالمصرية وصرف
 الكاتب القبطى " اشناس " وجعل عليها ابن يروح القوارى من اهل حـسـسـ

(١) سيدة كاشف : هـر فى فجر الاسام ص ٢٨-٣١ وما ذكرته من المصادر القديمة •

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٢٨ — سيد تكاشف : هـر فى فجر الاسام ص ٢٩

سنة ٨٧ هـ . . (١) وكان المصريون المسيحيون قد انتشروا في وظائف البلاد وكان منهم بمصر ولاية الاقاليم حتى عهد عبد العزيز بن مروان " مثل بطريرك الوالى على الصعيد " وحكم مريوط الذى كان يدعى ثاقفى — كما كان فى ديوان الحكومة المركزية فى القسطنطينية او حلوان كاتبان قبطيان لادارة مصر العليا ومصر السفلى وهما " اثناسيوس واسحاق اللذين كانا فى عهد عبد العزيز بن مروان " (٢) وقد اقتضت الحاجة العامة فى البلاد قبل تعريب الدواوين ضرورة وجود مثل هذا النظام حتى يتسنى للحاكمين والمكسومين مرحلة انتقالية لتدبير امور الدولة التى كانت لفتها الرسمية " اليونانية " والعامة القبطية " وتشهر اوراق البردى حتى عهد تعريب الدواوين (٨٦ هـ — ٩٦ هـ) فى عهد الوليد بن عبد الملك وولاية عبد الله ابن عبد الملك الى وجود تلك اللغات الثلاثة " اليونانية — القبطية — العربية " والجزء الاول من مجموعة اوراق البردى العربية يشير الى التدريس بتلك اللغات فنجد احيانا نص الوثيقة باليونانية وشرح باللغة العربية ومجموعة اخرى بالعربية والقبطية . (٣) وكانت الكتابات العربية فى معظم هذه الطرز فى تلك الفترة ، لا تعتمد سطرًا او سطرين تتضمن " بسم الله الرحمن الرحيم " ، لا الله الا الله وحده ومحمد رسول الله ثم اسم الوالى او بعض الايات القرآنية . (٤)

كانت أول الرسائل (رسالة عمرو بن العاص الى أمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب بعضها يتصل بالفتح وطلب العدد وبعضها يتصل بوصف البلد وما فيها من مدن . . فكان منها رسالته اليه فى وصف مصر بعد فتحها . (٥) ووصف

(١) الكندى : الولاة ص ٨٨ هـ ٥٩ — القيرى : الخط ج ١ ص ٩٨ — أبو المطمن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٠

(٢) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١٩٩ — وما ذكرته من المصادر القديمة

(٣) جروهمان : المرجع السابق ج ١ ص ١١١ — طراز ٣٢

(٤) جروهمان : المرجع السابق ج ١ ص ١١١ — ٢٧

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥٦ — أبو المطمن : النجوم الزاهرة

ج ١ ص ٣٢ — الصيوطى : حسن المطهرة ج ١ ص ٨٨

الاسكندرية في رسالة اخرى . (١) — كما كتب اليه يصف البحر . (٢)

وكان لولاية مصر الاقوياء كتاب ينوبون عنهم في تحرير الرسائل والكتب لرسائلها الى الولايات المختلفة وقد تهرأ هؤلاء الكتاب أرفع المناصب وصار لهم شأن عظيم فبى ولاية مصر . فقد كان مجاهد بن جبر مولى بنى نوفل كاتباً فى مصر أيام عمرو بن العاص . وقد استخلفه عمرو على الخراج حينما خرج الى المدينة فسأله عمرو بن الخطاب من استخلفت ؟ فقال : عمرو استخلفت مجاهدا . فقال عمر : نعم كاتب وان القلم ليرفع صاحبه . (٣) وكان وردان الروسى مولى عمرو بن العاص كاتباً له وكان يحرف اليونانية وهو الذى كتب عهد الامان الذى أعطاه عمرو للصيريين . (٤)

وفى عهد والى الاموى عبد العزيز بن مروان ٦٥٦هـ — ٦٨٦هـ جمعت له الصلاة والخراج ولفنت مصر فى عهده ثأوا عظيما . وقد جمعت له المضرب . (٥) فكثرت مراسلاته واحتاج الى كتاب ينوبون عنه فى تحرير رسائله فكان له كتاب عد يدون أشهرهم (بناس بن خنابا وكان كاتباً ماهرا من أهل الرعا . (٦) ومن كتساب عبد العزيز بن مروان ايضا " ابن رمانه الذى بلغ مكانة عالية عند عبد العزيز بن مروان وجمع ثروة طائلة وقد بنى له عبد العزيز دارا وغرس لهم نخيلهم الذى كان لهم بناحية حلسوان . (٧)

(١) ابن سعيد : المضرب ج١ ص ٣٧ — المقرئى : الخطوط ج٤ ص ٢٧
(٢) المسعودى : موج الذهب ج١ ص ٢١ — ابن سعيد : المضرب ج١ ص ٣٧ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٩
(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٢ — الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج٤ ص ٢٢٩ — القلقشندي : صبح الاعشى ج١ ص ١٢ — ابو المطاسن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٤ — سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١٧ — ١٨

(٥) الكندى : الولا ص ٤٨ — ٥٢
(٦) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ٣٤
(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٣

وفى عهد قرة بن شريك الذى ولى مصر (٩٠-٩٦ هـ) كان لديه عسدد من الكتاب " لان الوالى كان يتعامل مع عماله فى الكور والاقاليم عن طريق الكتابة والمراسلات وكان الكتاب هم الذين يتولون هذه الاعمال . فجدد يرسل كتابا الى عامله فى كورة أشقوه (من اعمال السيوط يوصيه بدفع الجزية الى جسطال كورتسه والى موازيت القرى " العمدة " . وفى رسالة أخرى يوصيه فيها بالعدل بين الناس والا يفعل شيئا يكرهونه . وفى رسالة ثالثة يأمره بالقبض على المجرمين " (١) وكان للخصيب بن عبد الحميد كتاب يكتبون عنه (وكان الخصيب امير مصر على الخراج من قبل امير المؤمنين هارون الرشيد وتنسب اليه منية الغصيب بالوجه القبلى " (٢) وكان جابر بن داود جد البلادى يكتب له " . (٣)

ولم يكن أمر الكتابة قاصرا على الولاة فقد كان العلماء والوجهات يتخذون كتابا يتولون الكتابة عنهم ومنهم من صحب هؤلاء العلماء وصارت له مكانة علمية مرموقة . ومن أبرز هؤلاء " عبد الله بن صالح (المتوفى سنة ٢٢٢ هـ) الذى كان يكتب لليث بن سعد وجيه مصر وعالمها " . (٤) وكان عبد الله بن صالح أقرب رجل الى الليث وكان يدخل معه فى ليله ونهاره وفى سفره وحضره ويخلو معه فى أوقات لا يخلو معه غيره " . (٥) وقد استمرت صلة عبد الله بن صالح بالليث بن سعد ما يقرب من عشرين عاما " . (٦)

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٧٠

(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٠٥

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٥٦

(٤) الجهشيارى : المرجع السابق ص ٥٤٥ - السيوطى : طبقات الحفاظ

ج ١ ص ٨٨ - الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٤٦

(٥) ابن سرور المقدسى : الكمال فى أسماء الرجال ج ٢ ص ٢٥٦

(٦) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢٥٨

وكان للقاضي البكري (هاشم بن ابي بكر البكري) الذي ولي قضاء مصر من قبل محمد الامين سنة اربع وتسعين ومائة . (١) اكثر من كاتب مشـل احمد بن هـشـع الهـذاني من الكوفة ، ومحمد بن عـبـرة النـخـعي كوفي ايـضـا . وكان عمرو بن خالد يلزمه ويترسل اليه ، وكان ايـضـا يكتب له . (٢) ويبدو انه كان للقاضي البكري بعض الكتاب الاقباط الذين كانت لهم مكانة في نفسه . فيذكر الكندي عن حديث لهـشـي بن عثمان (. .) انه لم يكن احدا . أحب الى البكري من ادريس الخولاني ومقارة الكاتب وظالما ما كان يحضر مجالسه . (٣)

وما ان شارت الدولة الاموية على نهايتها حتى كانت الكتابة الديوانية قد صار لها اصول وقواعد تقننت ووضعت اصولها على يد احد ممن نهضوا من طائفة كتاب الرسائل بها وهو آخر هؤلاء الكتاب (عبد الحميد بن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب - كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين . وقد كان عبد الحميد هذا في بداية حياته محلم صبية ينتقل في البلدان وعنه اخذ المترسلون ولطريقته لزموا وهو الذي سهل البلاغة في الرسل . (٤)

وقد أوضح في رسالة موجهة الى الكتاب بيان بما يكون عليه هؤلاء الكتاب من أخلاق وفـضائل . وبيان بما كانوا يقومون به وما يلتزمون بأدائه من الاعمال منها قوله : (. . .) فـجـمـلـكـم مـمـشـر الـكـتـاب في اشرف الجهات ، أهل الادب والعزات والزانة ونصحهم بقوله : أروا الاشمار وأعرفوا عريـسـها ومـمـانـهـيـها وأيام الصرب والمجم واحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسموا اليه نفسكم . . .) (٥) - كما نصحهم بالمنافسة في صنوف العلم والادب والتفقه في الدين وان يبدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض . (٦) ويبدو ان

(١) الكندي : الولاة والقضاء ص ٤١١-٤١٢

(٢) الكندي : الولاة ص ٤١٥-٤١٦

(٣) المرجع السابق ص ٤١٦

(٤) ابن النديم : الفهرست ص ١٧٦ - ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ١ ص ٤٢٦

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٨ - الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٧٤

(٦) الجهشيارى : السابق ص ٧٤-٧٥

ديوان الرسائل بمصر قد صار له شأن منذ أواخر عهد الولاة الامويين بمصر — وبداية عهد الولاة العباسيين بها وصار يدمج في ديوان الانشاء او يهرف بديوان الانشاء وكان متولى هذا الديوان لا يقل شأنًا عن القاضي — قال الكندي (٠٠) لما قدمت المسودة ردوا خير بن نصيم من القضاء فأتاه عبد الملك بن مروان يخاصم ابن عم له فقدم على مقره فقال : قم مع ابن عمك فقال : كأنك وجدت علينا ان صيرناك كاتبًا بعد القضاء ٠٠ وقام ولم يخاصم وكان عبد الملك بن مروان النصيري قد ولى خيرا ديوان الرسائل بعد ان كان قاضيا ٠٠) ويشهر القرظي الى وجود هذا الديوان وان كان لم يحدد لوجوده تاريخا معيناً — فيقول (٠٠) انه لما كانت مصر امارا كان بها ديوان البريد ، ويقال لمتوليه صاحب البريد كما كان لبعض امراء مصر كتاب بنشئون عنهم الكتب والرمائل (٠٠) (٢)

كما يشير القلقشندي ايضا الى وجود ديوان الرسائل ويوضح مدى ارتباطه بديوان الانشاء — فيقول (٠٠) وكان هذا الديوان " ديوان الانشاء في الزمن المتقدم يهبر عنه بديوان الرسائل " تسمية له باشهر الانواع التي تصدر عنه لان الرسائل اكثر الانواع كتابة للانشاء وأعضاها ٠٠) (٣)

وصار لهذا الديوان (الانشاء) شأن كبير بمصر ، ونبغ بعض الكتاب المصريين الذين صار لهم شأن عظيم في ميدان الكتابة الانشائية (فقد كان فيلان بن مهران بن مسلم الدمشقي كاتباً من أصل مصري وكانت له شهرة واسمعة وذاعت رسالته ٠ وقد عدّه الكندي من مفاخر مصر وفضائلها ٠٠ وأطلقوا عليه لقب رئيس البلاغة ٠٠ (٤)) واليه تنسب الفيلافة الذين زعموا ان الایمان

(١) الكندي : الولاة ص ٣٥٦

(٢) القرظي : الخطط ج ٢ ص ٢٦٦

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٩

(٤) عرب بن محمد الكندي : فضائل مصر ص ٤٢

هو المصرفة الثابتة بالله وقد تولى غيلان سنة ١٥٠ هـ (١) وكان رجال الادب والكتاب يقتبسون من رسائله ويستعينون بها في كتبهم وأخذ يشتم (٢) وقد حرص الادباء على الاستعانة برسائله في تنقيح اصولهم في الكتابة والترسل ويشير الجهمشيارى الى ما يريد ذلك فيقول (٣) وقد عبيد الله بن الحسن الهاشمى على المهدي مخزيا عن ذلك فيقول (٤) وقد عبيد الله بن الحسن الهاشمى على المهدي مخزيا عن المنصور ومهنتا بالخلافة فتكلم بكلام قد أعده اعجب الناس به واستحسنوه فبلغه ذلك فقال لشبيب بن شبه انى والله ما ألفت الى هؤلاء ولكن سل أبى عبيد الله عما تكلمت فسأله شبيب فقال له : ما أحسن ما تكلم ولكنه لم يتعد بكلامه ان اخذ مواعظ الحسن ورسائل غيلان فلقح بينهما كلاما فأخبر شبيب عبيد الله بذلك فقال له أبوه : فوالله ما أخطأ حرفا ولا تجاوزت ما قال (٥) (٦)

ديوان الرسائل في العصر الطولونى :

كان ظل ديوان الرسائل (الانشاء) في مصر بادي ذى بدعهم الاضطراب والجمود . حتى ظفر ابن طولون بولاية مصر فأنشأ فيها لنفسه ديوان رسائل وبذلك وجدت الوسيلة لنشوء حركة ادبية تماثل ما نشأ في بغداد حول دواوين الرسائل (١) فقد كانت الرسائل الديوانية هي مقياس المرفى اللغوى العام (٢) ولهذا كان حظ النثر الفنى أكبر من حظ الشعر (٣)

(١) عرب بن محمد الكندى : فضائل مصر ص ٤٢

(٢) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ٤٤١

(٣) الجهمشيارى : المرجع السابق ص ٤٤١

(٤) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٦١-٦٢

(٥) منز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٦١

(٦) احمد امين : ظهر الاسلام ص ١٢٣

وكان لقيام ديوان الانشاء بمصر في هذا الوقت أكبر الاثر في حياة النشر الفني بها لا لتطابق الكتاب المهر به • وكان وجود هذا الديوان دافعا قويا في تنافس كتاب النشر الفني للاتطابق به ما كان له اعمق الاثر في نهضة النشر الفني في تلك الفترة • ويبدو ان التفكير في انشاء هذا الديوان كان طبيعيا لاستكمال عناصر النهضة بمصر في عصر الطولونيين • وخاصة بعد استقلال ابن طولون بمصر حتى تكون لامارته المستقلة مراسلاتها ولغتها الدبلوماسية الخاصة بها • ويشير القلقشندي الى ذلك فيقول (ان احد بن طولون هو اول من أخذ في ترتيب الملوك واقامة شعار السلطنة بالديار المصرية • ولما شمع سلطانه وأرتفع شأنه أخذ في ترتيب ديوان الانشاء لما يحتاج اليه في المكاتبات والولايات) (١)

وقد اشتهر عدد كبير من كتاب الدواوين في عهد الدولة الطولونية مثل "ابن عبد كان" (٢) • واحمد بن محمد الواسطي • (٣) • وعقوب بن اسحاق (٤) • واحمد بن ايمن • (٥) • وغيرهم وقد كان أشهر هؤلاء الكتاب وأعظمهم مكانة هو (ابن عبد كان — ابو جعفر محمد بن مودود وكان احد بن طولون قد استكتبه فأقام منار ديوان الانشاء ورفع مقداره • (٦) • وقد كان بليغا مترسلا فصيحاً وله ديوان رسائل كبير) • (٧) • وقد بلغ من علو منزلته الادبية ان اهل مدينة السلام (بغداد) كانوا يحسدون اهل مصر • عليه ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لامير المؤمنين بمدينة السلام مثله • • (٨) • ومحمد هذا الامر ذو دلالة ادبية خطيرة فبعد ان كانت المراق تستأثر بالادباء والكتاب المهره • أصبح

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١١ ص ٢٩ — النسيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٧٣

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١١ ص ٢٨

(٣) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٢ — ابن سعيد : المغرب ص ٨٣

(٤) الجهمشيارى : السابق — ابن الداية / المكافاة ص ٢٢

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٠٩ — وكان ابن ايمن يكتب للمعتمد بن خالد البرمكي

(٦) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١١ ص ٢٩

(٧) ابن النديم : الفهرست ص ٢٠٣

(٨) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ١٧

للولايات المستقلة ومنها مصر الطولونية شأن آخر في اجتذاب هؤلاء الادباء مشـل ابن عبدكان هذا الذي لم تقتصر شهرته الادبية في كتابة الرسائل على مصر فقط بل تمدتها الى بلاد الشام — قال ياقوت الحموي (١٠٠) ان صاحب بن عباد سأل رجلا من أهل الشام : رسائل من تقرأ عنكم ؟ فقال الرجل رسائل ابن عبدكان — قال ومن ؟ قال رسائل الصابن (١) .

وقد بلغ من شهرة ابن عبدكان الادبية ان صارت رسائله تقاليد يسير عليها الكتاب من بعده . ويتابعوه فيها (٢) . وبعد تقلد ابن عبدكان ليد يوان الانشاء صار له أثر بعيد في عالم الادب — فكان يقوم باشتان من يرفب في الالتحاق بد يوان الانشاء الذي كان قد بلغ منزلة رفيعة جعلت الكثير من الكتاب العراقيين يتلمسون السبل للالتحاق به . فيبوي ياقوت حد يثا عن ابن زولاق المؤرخ المصري فـحـوا : " ان ابا يعقوب اسحق بن نصير البغدادي قدم من المراق على ابن عبدكان . والتص التصرف — فقال ابن عبدكان فيم تتصرف ؟ فقال في المكاتبات والاجوة والترسل وكان بين يد ي ابن عبدكان كتب قد وردت فقال له خذ هذه واجب عليها فأخذها ومضى الى ناحية الدار . فأجاب عنها فلما رآها وتأملها الحقه وأجرى عليه اربعين دينارا في كل شهر فلم يزل معه حتى توفي ابن عبدكان (٣) .

ومن أشهر رسائل ابن عبدكان ا رسائله التي كتبها احمد بن طولون الى ابنه العباس اثناء تمرده وخروجه على طاعة ابيه (٤) . بدأها بقوله : (من احمد بن طولون مولى امير المؤمنين الى الظالم لنفسه الماصي لربه . الملم بذنبه

(١) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج١ ص ٢٥٨

(٢) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ٤٧ — القلقشندي : صبح الاعشى

ج ١ ص ١٦٠ — ١٦٤

(٣) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج ٢ ص ٢٢٢

(٤) الكندي : الولاء ص ٢٢ — ٢٢٤

الفسد لكسبه المادى لطوره الجاهل لقدره الناصر على غبه الموكوس فى فتنتسه المنجوس من حظ دنياه وآخرته . . . (١) يقول الدكتور محمد كامل حسين (ان فى هذا الخطاب تتجلى صورة الكتابة المربية السليمة التى تنأثرت بها كان فى مصر من آثار الثقافة اليونانية وآثار الثقافة الاجنبية التى نقلت الى المربية) . (٢)

وان كان ابن عبدك نقد وصل الى مكانة ادبية رفيعة فى عهد الدولة الطولونية فكان ذلك واجما الى اهتمام الطولونيين الزاكن بكتابهم ، وقد لمسب بعض هؤلاء الكتاب دورا خطيرا فى النزاع والصراع الذى قام بين العباس بن احمد بن طولون ووالده حين تمرد العباس وشق على الطاعة عن ابيه . وكان كل من احمد بن محمد الواسطى وابن جدار قد لعب دورا بارزا فى هذا الصراع — فقد كان الواسطى مختصا باحمد بن طولون — فقد كان رفيقا له قبل تقليده مصرود خل معه سنة ٢٥٤ هـ عند تقلده الحكم فيها) . (٣) كما كان ابن جدار مختصا بالعباس بن احمد بن طولون ووزيرا له) . (٤) ويبدأ تمرد العباس وخروجه على والده حينما عزم احمد بن طولون على فتح الشام فخرج فى جيشه سنة اربع وستين ومائتين واستظف ابنه العباس على مصر وضم اليه احمد ابن محمد الواسطى مدبرا ووزيرا) . (٥) وكان ابن جدار وطائفة معه من حوزوا العباس بان يعتمد من ابيه ويخرج عن مصر . فلما علم الواسطى بذلك كتب الى احمد بن طولون يخبره بذلك وبلغ العباس ذلك فمزم على ما اشار عليه اصطبه وترك العباس الواسطى بمصر مقيدا . . . (٦) ويبدو ان احمد بن طولون كان مقدرا لاخلص الواسطى له وخاصة فى ظروف خرج ولده العباس عليه . فجعله كاتبه الخاص ووزيره وكسيرا

(١) ابن سميع : المغرب ص ٢٥٠ — القلقشندي : صبح الاعشى ج ٢ ص ٥ —

الهلوى : صورة ابن طولون ص ٢٥٦ — ٢٦٠

(٢) محمد كامل حسين : فى الادب المصرى الاسلامى ص ٩١

(٣) الهلوى : صورة ابن طولون ص ٢٣ — ٤٢ — ابن سميع : المغرب ج ١ ص ٨٣

(٤) الكندى : الولاء والقضاء ص ٢١٩

(٥) الكندى : السابق ص ٢١٩

(٦) الكندى : السابق ص ٢٢٠ — ٢٢١

ما كان يرسله نائباً عنه الى بغداد . (١) — ولم يبلغ الواسطي تلك المعانة بمطسه
أو قدراته الادبية لانه كان ضعيفاً في اللغة ، ليس على دزاية كافية بالثقافة الادبية
الواسعة ، اذا ما قورن بابن عبد كان (وقد كان كليل احمد بن طولون يزورون على
الواسطي ويحكوا عنه ان الفاظه عامية وانه يغلط في كتبه ويكثر فاللحن فيها) . (٢) ،
وقد أورد البلوى بعضاً من رسائله . (٣)

أما ابن جدار فقد كان أرفع من الواسطي شأنًا ، فقد كان من الكتاب
المتأزين (قال الصولي عنه : لم يكن يحضر مثله في وقته حسن البلاغة وكانت له
مكتبات كثيرة حسنة) . (٤) فكان قد كتب رسالة الى احمد بن طولون على لسان
ولده العباس حينما خرج على طاعة ابيه . يقال انها أثارت خفق احمد بن طولون
كثيراً على ابن جدار . وهي رسالة طويلة تبدأ بـ (. . الى امير المؤمنين ابي
العباس احمد طولون مولى امير المؤمنين من محمد الله مولى الله المتمسك بطاعة
الله المنحرف عن زيغ ظلم المعصية الى وضوح سر البصيرة القابل من الله موظنته
والعامل بما امر به . ان يقول جل ثناؤه " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا
مع الصادقين " . . . سلام على الامير وعلى من استرجع وادكر وفكر وازدجر) (٥)
ثم تفيض باقى الرسالة في سرد ما يصفيه كاتبها منها وتوضح كتابته ما ينطوى عليه
أسلوبه في الكتابة — فقد برهنت على طول نفسه وقد رته على الاسترسال والتوسع
في مناحي القول مرة بالترادف ومرة باختراع المعاني . . مع التفت الى القرآن
أو اقتباس منه . . . (٦)

(١) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ٥٤ — البلوى : سيرة ابن طولون
ص ٣٩ — ٤٢ — ابن سميد : المغرب ص ٢٥١

(٢) البلوى : سيرة احمد بن طولون ٢٤٦ — ٢٤٧

(٣) البلوى : السابق ص ٢٦٥

(٤) باقوت الحوى : ومعجم الادباء ج ٧ ص ١٨٢

(٥) البلوى : سيرة احمد بن طولون ص ٢٥٦

(٦) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٦٨

وقد كان لبعض المصريين مكانة أدبية رفيعة خولتهم شرف تلقى هذا الديوان في عهد الدولة الطولونية مثل أسرة بنى المهاجر التي شاركت في ديوان الانشاء بأكثر من فرد مثل: " الحصن بن محمد بن ابن المهاجر وأخوته بنو المهاجر على وأبو القاسم وأبو عيسى " (١) وهم ممن ينتمون إلى عبد الحميد الكاتب وكانوا من عقبة الذين استوطنوا مصر بعد موقعة القراب (٢)

وقد كان لأحمد بن طولون أثر كبير في تشجيع أمثال هؤلاء المصريين على الكتابة والالتحاق بديوان الانشاء رغم مستواهم الأدبي المتواضع إذا ما قورنوا بأسلافهم ممن تقلدوا هذا الديوان. وكانت غلبة ابن طولون من ذلك توغى ما يحمده عقباؤه منهم. وتذكر الروايات أنه لما استكتب جعفر بن عبد الفغار المصري حينما أنفذ أحمد بن محمد الواسطي إلى بغداد - اضطرب ولم ينهض بها أسند إليه. فقال ابن خاقان لأحمد بن طولون صديقه: الأمير أيداه الله يحتاج إلى كاتب أوفى وزنا من هذا الكاتب. فقال ابن طولون: أنا أحمله وأقنع به لأنه مصري. فقال له ابن خاقان: والأمير أيداه الله يرى أن الكاتب المصري أكتب من المراقى. وأنهض بها يتولاه. فقال له: أعلم أن أصلح الأشياء لمن ملك بلدا أن يكون كاتبه منه. فإنه يجمع بذلك أشياء تحدد طقيتها منها: أن عيال الكاتب وشمله وكل ما يملكه معه في بلده ومنها أن جميع ما يكسبه فيه. وأن كان ممن يرغب في تجارة كانت تجارته فيه أوفى شراء غار أو بناء كان منه وهم مستقون في خدمته. والكاتب الغريب ليس كذلك لأنه يحتقد المستغلات في البلد النائي عن روعه ويستعطن الرباع - ومن يشير عليه أن يعمر بلده الذي يعمل فيه وهو كذلك في كل حال متطلع إلى بلده فهذا الذي زهدني في كتاب المراقى بما فهم من الصلابة وتقدمهم في الكتابة " (٣)

(١) D. Zaky Hassan: Les Tulunides, PP. 286 - 287.

الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٤٥٥

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٨٢

(٣) البلوى: أسيرة أحمد بن طولون ص ١٥٦ - ابن سعيد: الخرب جا

يتضح من النص السابق ان احمد بن طولون كان قد زهد في كسب
المراق خشية قتلهم — ويبدو انه كان لا يأمن جانبهم — فقد كشف خروج المباس
عن طاعة ابيه عن تمرد ابن جدار وانضمامه للمباس فقتله ابن طولون وفي الواسطى
الى المراق وقتل خمارويه الحسن بن مهاجر . . . (١)

كان ابن طولون يأمن بالكتاب المصريين ، فقد كانوا عند حسن ظنه وكان
يشملهم برعايته (فقد كان احمد بن طولون يعجب بالحصين بن مهاجر وسأل
عنه) (٢) وقد تشجع بن مهاجر بكثير من الخلل الحيدة التي ظلمها صارت ترفع
من قدره — وتذكر الرواية (انه قد جرى ذكر الحصين بن مهاجر في مجلد
ابن عبد كان فقال عنه . عندما طعن عليه الحاضرون : " الصديق اجل ما يؤثر عنه ،
فيه فضل وانه لعل أفضل طريقة . . . وابن مهاجر وفور النفس صتصفر لنصيحة من
ينصحه بعيد الخور ، لا يؤثر على تدبير مال صاحبه وعلى ما زين حظه ، عنه ، شيئا
من أعراض الدنيا . " (٣) ولا شك ان اتاحة الفرصة للكتاب المصريين كان له اثر
كبير في النهوض بالعلم الفنى بمصر فان كان هؤلاء الكتاب لم يملفوا مكانة الكتاب
المراقبين لادبها الا ان وجودهم بدوان الانشاء كان حفزا لهم في اتقان الاساليب
الادبية العربية ليملفوا مكانة هؤلاء الكتاب المراقبين .

ديوان الرسائل في عهد الدولة الاخشيدية؛

وفي عهد الدولة الاخشيدية نشطت الكتابة الديوانية نشاطا لا يقل عما كان
في عهد الدولة الطولونية — فقد كانت رسائل القرن الرابع الهجرى مصفة عامة " وهو
القرن الذى كانت تماسره الدولة الاخشيدية بمصر هي أدق آية من ازدهار

(١) الجهشبارى : الوزراء والكتاب ص ٨٢-٨٣

(٢) ابن سعيد : المغرب ج ١ ص ١٠٤

(٣) الهلوى : سيرة احمد بن طولون ص ١٤٦

الفن الاسلامي ومادتها هي أنفوس ما عالجته يد الفنان وهي اللغة (١) . ومصدر
كان أحد ائمة اللغة والنحو وهو " ابو جعفر النحاس " . قد وضع كتابا يقدم فيه ألوانا
من الدراسة الواسعة وما يحتاج اليه المشتغلون بها من أدوات وأرشادات وهو كتاب
(صناعة الكتاب) . (٢) وقد فقد هذا الكتاب . واورد القلقشندي نقفا من هذا
المؤلف المفقود يتبين منها ان غاية ما يصبو اليه النحاس في مؤلفه هو سلامة اللغوية
والالفاظ حتى تأتي الرسائل كاملة الرواء بينة الاعراب واضحة الاداء . . . (٣) كما
يخبر الكتاب انواع هذه الرسائل بحسب المكتوب اليهم بها وموضوعاتها كما بين مما
يجمل في افتتاح رسائل الامراء وما يلزم ذلك من دعاة وما يجب في الكتابة الى القضاة
والنظرية . وما يحسن الى الابناء والفتيان والنساء . كما بين الفاظ الافتتاح والفاظ
الختام . (٤)

كان هناك عدد من الكتاب في ديوان الاخشيديين ويبدو هذا واضحا حينما
طلب الاخشيد من كتابه ردا على رسالة ملك الروم . فكتب له عدد من كتابه اجوبة
" رسائل " فاختر منها كتاب النجوى . (٥) ومن كتاب الاخشيد بين محمد بن
عبد الرحمن الروياري وكان يماون الفضل بن جعفر بن الفرات (ابن خنزابيه)
كما كان على بن صالح من كتاب كافور والكتاب الهندادي سهل بن محمد وابو الحسن
ابن جابر وكان يكتب لمبيد الله بن طنج الاخشيد . (٦)

(١) متر: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج١ ص ٤٢٩

(٢) ياتوت الحوى : معجم الادباء ج٤ ص ٢٢٤

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج٨ ص ١٢٨-١٤٥

(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ١٤٤

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٦٧ - القلقشندي : صبح الاعشى ج٢ ص ١ -

سيدة كاشف : ص ٣٢٥

(٦) ابن سعيد : المغرب ج١ ص ١٨٨-١٨٩

وقد وفد الى القسطنطينية احد الكتاب المشهورين ملتحقاً بديوان الانشاء وهو
 " على بن محمد بن نصر بن محمد بن سام " الكاتب الذي كان حسن البديهة شاعراً
 طامحاً ، أديباً لا يسلم مسمن لسانه أحد ، وهو من أهل بيت الكتابة وله ديوان
 رسائل وتقليد الديوان بمصر . (١)

وكان لبعض هؤلاء الكتاب شأن عظيم في تنبؤ أعلى المناصب في مصر فسي
 تلك الفترة فقد كان على بن محمد المشهور بابن كلا " بوشابة وزير وسفير للاخشيدي
 فقد بلغ منزلة رفيعة عنده وكان كاتبه في دمشق قبل ان يتولى مصر فلما استقر
 بمصر ارتفع شأنه في دولته . (٢)

كان اهم وأعظم هؤلاء الكتاب شأناً في عهد الدولة الاخشيدية (ابراهيم
 بن عبد الله بن محمد النجيري الكاتب وكان لما يحلم العربية . فقد أخذ
 النحو عن الزجاج في العراق وتخرج عليه من المصريين أبو الحسن المهلب وجناد
 اللغوي) . وأعظم رسالته الكتاب الذي ارسله الاخشيدي الى المانوس عظيم الروم
 وكان قد ورد الى الاخشيدي كتاب المانوس عظيم النصرانية يخوف فيه . ويزعم ان له
 المنقطيه في خطبة اذا جرت عادته الا يخاطب الا خليفة . فقرأ هذا الكتاب
 على الاخشيدي فطلب الى كتابه اعداد رد عليه . وكتب جماعة منهم . ووقع اختيار
 الامير على الرد الذي اعداه النجيري . فأرسله الى حاكم بيزنطة . وقد أعجب
 النجيري نفسه بالكتاب فنسخ منه نسخاً وانفذها الى البصرة وأعمالها بفتخسر
 بها . (٣) . وهي رسالة طويلة تظهر فيها ثقافة النجيري التاريخية . (٤)

-
- (١) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج ١ ص ١٣٩
 (٢) ابن اسعدي : المغرب ج ١ ص ١٥٦ - ١٦٥ - ١٩٠
 (٣) أبو المظن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ - السيوطي : بغية الوفا
 ص ١٨١ - سيده كاشف : مصر في عصر الاخشيديين ص ٣٢٥
 (٤) ابن اسعدي : المغرب ص ١٦٢ - ١٧٢ - سيده كاشف : مصر في عصر
 الاخشيديين ص ٣٢٥

— مصادر الرسالة —

- اولا — المصادر الاصلية
 - ثانيا — المراجع العربية الحديثة
 - ثالثا — المراجع الافرنجية المترجمة الى العربية
 - رابعا — المراجع الافرنجية.
-

أولا : المصادر الاصلية

١- ابن الاثير (ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المتوفى سنة ٦٣٠هـ)

أ- اسد الغابة في معرفة الصحابة - ٥ اجزاء - القاهرة ١٩٣٨م

ب- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - القاهرة -

١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م

ج - الكامل في التاريخ ١٢ جزء - بولاق ١٢٩هـ

٢- الازرقسي (المتوفى ٦٠٤هـ / ٨١٩م) او (٦١٩هـ / ٨٣٤م) أو

(٣٢٣هـ / ٨٣٨م)

- اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار - جزآن - المطبعة

الماجدية بمكة ج١ ص ١٣٥٢هـ - ج٢ سنة ١٣٥٣هـ

٣- الاصطخرى (ابراهيم بن محمد المتوفى في النصف الثاني من القرن الرابع

الهجري - النصف الثاني من القرن الماشر الميلادي)

- كتاب مسالك الممالك - ليدن ١٩١٢م

٤- الاصفهاني (ابو الفج - المتوفى سنة ٣٥٦هـ)

- الاظنى - القاهرة (دار الكتب المصرية)

٥- ابن ابي اصيبعة (موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم الخزرجي

المتوفى سنة ٦٦٨هـ)

- عيون الانباء في طبقات الاطباء - جزآن - القاهرة ١٣٠٠هـ

٦- الانصارى (صفى الدين احمد بن عبد الله الخزرجي المتوفى بحد ٦٠٣هـ)

- خلاصة تذهيب الكمال في اسما الرجال - القاهرة ١٢٢٢هـ

- ٧- ابن اياس (ابو البركات محمد بن احمد الخفي المتوفى ٩٣٠ هـ)
— كتاب تاريخ مصر المعروف باسم " بدائع الزهور في وقائع الدهور "
١٣ جزءا — القاهرة — بولاق ١٣١٢ هـ — ١٨٩٤ م
- ٨- البخاري (محمد بن اسماعيل المتوفى سنة ٢٥٦ هـ)
أ- الجامع الصحيح — مطابع دار الشعب ١٩ جزءا — القاهرة ١٣٢٨ هـ
(*عبد الحليم*)
ب- فتح الباري بشرح صحيح البخاري — الطبعة الاولى — القاهرة ١٣٢٥ هـ
- ٩- الهلوي : (ابو محمد عبدالله بن محمد الدين الهلوي — المتوفى فسي
القرن الماخر الميلادي)
— سيرة احمد بن طولون — تحقيق محمد كرد علي — دمشق /
المكتبة المصيبة ١٣٥ هـ / ١٩٤٠ م
- ١٠- البلاذري (ابو الحسن احمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي
المتوفى ٢٢٩ هـ)
— فتح البلدان — القاهرة ١٣١٨ هـ — ١٩٥٦ م
- ١١- ابن تيمية (ابو العباس احمد بن عبد الحليم)
— مقدمة في اصول التفسير — دمشق / مطبعة الترقى ١٩٣٦ م
- ١٢- الثعالبي (ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري المتوفى
٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م)
أ- بتيمة الدهر — ٤ اجزاء — القاهرة ١٩٤٧ م
ب- لطائف المعارف — لندن ١٨٦٧ م

١٣- الجطح (أبو عثمان عرب بن بحر بن محبوب المتوفى ٢٥٥هـ)
- البيان والتبيين ج ١ - القاهرة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م .

١٤- الجرجاني : التمرينات - القاهرة ١٢٨٣هـ

١٥- ابن الجوزي : (شمس الدين محمد بن محمد المتوفى ٨٣٣هـ)
أ - النشرفي القراءات المشرو - دمشق ١٣٤٥هـ
ب - طية النهاية في طبقات القراء - نشر برجفستراسر - القاهرة
١٩٣٣م .

١٦- ابن جطل : (أبو داود سليمان بن حسان الاندلسي)
- طبقات الاطباء والحكام
القاهرة - طبع المعهد العلمي الفرنسي - تحقيق الأستاذ /
فؤاد سيد ١٩٥٥م .

١٧- ابن جماعة : (بدر الدين بن إبراهيم ابن جماعة المتوفى ٧٣٣هـ)
- تذكرة السامع والمتكلم في أدب المالم والمعلم
الهند - ١٣٥٣هـ .

١٨- الجهشماري : (أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشماري الكوفي المتوفى
(٣٣١هـ / ٩٤٢م)
- الوزراء والكتاب
الطبعة الاولى - القاهرة ١٩٣٨م .

١٩- الجواليقي : (أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الخضر)
- المصرب مع الكلام الأعجى على خوف المصم
القاهرة ١٩٣٨م .

٢٠- لبن الجوزى (ابو الفرج عبد الرحمن بن طلى البغدادى - المتوفى ٥٩٧هـ)

— نقد العلم والعلماء او تلخيص باليس

ادارة الطباعة النصرية بالقاهرة

٢١- ابن ابى حاتم الرازى (المتوفى ٣٢٧هـ)

— الجرح والتعديل (حيدرآباد ١٩٥٢م)

٢٢- طحى خليفة (المتوفى ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م)

— كشف الظنون عن اسامى الكتب والقون

١٣ اجزاء - استنبول - ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م .

٢٣- ابن حبان (محمد بن حبان البنى المتوفى ٣٥٤هـ)

— مشاهير علماء الاصار - القاهرة - لجنة التأليف والترجمة

والنشر ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .

٢٤- ابن حجر المصقلانى (احمد بن على المتوفى ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)

أ - الرحمة الفيضية بالترجمة اللبثية فى مناقب سيدنا وولانا

الامام بن سعد - القاهرة - المطبعة الاميرية - ١٣٠١هـ

بولاقي .

ب - توالى التأسيس بمعالى ابن ادريس

القاهرة - بولاقي ١٣٠١هـ .

ج - الاصابة فى تميز الصحابة - ١٨ جزء / القاهرة -

مطبعة السعادة ١٣٢٣هـ .

د - تهذيب التهذيب - الهند ١٣٢٥هـ - طبعة بمسوت /

١٣٢٥هـ

هـ - الدر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة - حيدرآباد

١٣٤٩هـ

٢٥- الحصرى القيروانى (ابو الحسن على بن عبد الفنى الفهرى المتوفى ٤٨٨هـ /

١٠٩٥م)

زهر الاداب وشعر الالباب - القاهرة ١٩٥٣م .

٢٦- ابن حوقل (ابو القاسم محمد بن حوقل البغدادى المتوفى فى النصف الثانى

من القرن الرابع الهجرى - النصف الثانى من القرن الماشر

الميلادى) .

- كتاب صور تالارس - القاهرة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م .

٢٧- ابن خرداذبه (ابو القاسم عبدالله بن عبد الملك المتوفى ٣٠٠هـ)

- المسالك والممالك - ليدن ١٨٨٩م .

٢٨- الخطيب البغدادى (ابو بكر احمد بن عبدالله بن ابي الخير بن على بن حسن)

- تاريخ بغداد - القاهرة ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م .

٢٩- ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد المشيخ - المتوفى ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ -

١٤٠٦م) .

أ - المقدمة - القاهرة - المكتبة التجارية

ب - المبرود يوان المبتدأ والخبر ج ١ القاهرة ١٢٨٤هـ .

٣٠- ابن خلكان : (ابو المباس احمد بن محمد بن ابراهيم - المتوفى ٦٨١هـ /

١٢٨١م) .

- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان - القاهرة

تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - الطبعة الاولى - مكتبة

النهضة المصرية ١٩٤٨م - وطبعة عيسى البابى الحلبي .

٣١- الخوازي (ابو عبد الله محمد بن احمد بن يوسف)

— كتاب مفاتيح العلوم — القاهرة ١٣٤٤هـ — لندن ١٨٩٥م .

٣٢- الداني (ابو عمرو عثمان بن سعيد المتوفى سنة ٤٤٤هـ)

— التيسير في القراءات السبع .

تحقيق اتومر نزل — استانبول ١٩٣٠م .

٣٣- ابن الداية (ابو جعفر احمد بن يوسف المتوفى ٣٤٠هـ / ٩٤١م)

— المكافاة وحسن العقبى — صححه وضبطه الاستاذ احمد امين بك

وعلى الجارم بك — الطبعة الاولى — القاهرة — المطبعة

الاميرية — ببولاق سنة ١٩٤١م .

٣٤- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن ايدمر الملائى المتوفى سنة ٨٠٩هـ)

— كتاب الانتصار بواسطة عبد الاهار — بيروت — المكتب

التجارى قسم ١ ج ٤ — بولاق — المطبعة الكبرى ١٣١٠هـ —

١٨٩٣م .

٣٥- الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان المتوفى ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)

(١٣٤٨م)

أ — تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام

١٥ جزء — القاهرة — مطبعة السمادة ٣٦٨هـ

ب — تذكرة الحفاظ — طبع حيدرآباد / الهند ١٣٢٣هـ

ج — سير اعلام النبلاء / القاهرة ١٩٥٢ / ١٩٦٢م .

د — ميزان الاعتدال في نقد الرجال — القاهرة ١٣٢٥هـ

هـ — المير في خبر من غير — الكويت — دائرة المطبوعات

والنشر ج ١ ص ١٩٦٠م .

٣٦ — الرازى (ابن ابن حاتم الرازى المتوفى ٣٢٧ هـ)

أ — اديب الشافعى ومناقبه / تحقيق الشيخ عبدالغنى عبدالخالق

القاهرة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م

ب — كتاب الجرح والتعديل — مطبع المعارف العشانية — حيدر

آباد — بالهند ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م

٣٧ — الراغب الاصبهاني (ابو القاسم حسين بن محمد)

— منظومات الادباء وخطرات الشعراء والبلغاء

القاهرة ١٣٧٦ هـ

٣٨ — ابن رسته (احمد بن عمر المتوفى ٣٣٢ هـ)

— الاغاني النخبة — لندن ١٨٩١ م

٣٩ — ابن رشيقي (المتوفى ٤٦٢ هـ)

— النعماء في صناعة الخمر ونقدها — القاهرة ١٩٢٥ م

٤٠ — الزيدى (ابو بكر بن الحسن)

— طبقات النحويين واللغويين — القاهرة ١٩٥٤ م

٤١ — الزركشى (الامام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشى)

— الهرهان في علوم القرآن — الطبعة الاولى — تحقيق ابو الفضل

ابراهيم — دار احياء الكتب العربية — "مجلس الطبى وشركاه"

القاهرة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م

أى طبعه؟ وكم عدد الإجزاء؟

٤٢ — الزركلى (خير الدين)

— الاعلام — القاهرة ١٣٧٣ — ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٤ — ١٩٥٩ م

- ٤٣ — ابن زولا (أبو محمد الحسن بن إبراهيم المتوفى ٣٨٢ هـ / ٩٩٧ م)
— اخبار سيوفه العصرية — نشر الاساتذة محمد إبراهيم محمد
وحسين الديب — الطبعة الاولى — القاهرة ١٣٥٢ هـ —
١٩٣٣ م) .
- ٤٤ — ابن الزيات (أبو عبدالله محمد ناصر الدين محمد لابن عبدالله بن عمر — المتوفى
٨١٤ هـ / ١٤١١ م) .
— الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرائن الكبرى
والصغرى — القاهرة — الطبعة الاميرية بمصر —
١٣٢٥ هـ / ١٩٥٢ م .
- ٤٥ — ساويرس بن القفج (المتوفى في أواخر القرن الرابع الهجري)
— سير الالباء البطارقة ٤ مجلدات — هبوع ١٩١٢ م /
باريس ١٩١٥ م .
- ٤٦ — السبكي (تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن علي الدين السبكي — المتوفى
٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م)
— طبقات الشافعية الكبرى — ١٦ جزء — القاهرة — الطبعة
الحسنية ١٣٢٤ هـ .
- ٤٧ — السخاوي (الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي
المتوفى ٩٠٢ هـ)
— الاعلان بالتوسيع لمن قدم التاريخ — القدس مطبعة
الترقى ١٣٤٩ هـ .
- ٤٨ — ابن سعد كاتب الواقدي (أبو عبدالله محمد بن سعد — المتوفى ٢٤٠ هـ /
٨٤٥ م) .
— الطبقات الكبرى — ١٣ جزء — بيروت ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٢ م
وطبعة ليدن ٨ أجزاء ١٩٠٥ / ١٩٢١ م .

٩- ابن سعيد (على بن موسى المقرئ المتوفى ٦٨٥هـ / ١٢٢٥م)

— المغرب في حلى المغرب — الفرار الرابع — ليدن ١٨٩٩م
نهر تل كوست — اكمل تأليف المغرب في حلى المغرب الجزء الاول
من القسم الخاص بنصروني بنشره والتعليق عليه الدكتور
محمد حسن — د — مودة كاشف — د — شوقي ضيف —
القاهرة / مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣م

١٠- سعيد بن البطريق (المعروف باسم اوتريظ المتوفى ٣٢٨هـ / ٩٤٠م)

— التاريخ المجموع على التحقيق والتصدق جزان في مجلد —
بيروت ١٩٥٥ — مطبعة الالباء اليسوعيين —

٥١- السمرقندي (ابو الليث نصر بن محمد الخوافي ٣٢٥هـ)

— بستان العارفين — الاستانة ١٢٩٦هـ —

٥٢- السلي (ابو عبد الرحمن السلي المتوفى ٢٤٢هـ)

— طبقات الصوفية — الطبعة الاولى / دار الكتاب العربي —

مكتبة الخانجي بصر ١٩٥٣م ^{١٤٧٤هـ} نور الدين كريمة

٥٣- السمعاني (ابو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني

المرزوي — المتوفى ٥٦٢هـ — ١١٦٦م)

— انساب العرب — ليدن ١٩١٢م —

٥٤- السهيلي :

— الروض الاتف والمشرح الروي في تفسير ما اشتمل عليه —

حديث الصيرة النبوية لابن هشام — القاهرة —

بدون تاريخ —

طبعة الجالية بمصر ١٤٤٢هـ
١٩٤٤هـ

٥٥- السبوطي (الحافظ جلال الدين عبدالرحمن - المتوفى ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)

١- تاريخ الخلفاء - تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبدالحميد

القاهرة ١٢٨٩ هـ / ١٩٦٩ م.

٢- الاتقان في علوم القرآن - القاهرة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م.

٣- تحذير الخواص من اكاذيب القصاص - القاهرة

٤- حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة.

(المطبعة الشرقية بالقاهرة ١٣٢٧ هـ - جزآن)

٥- طبقات الحفاظ - تحقيق علي محمد عمر - القاهرة -

الطبعة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م.

٦- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة.

القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م.

٧- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي - القاهرة ١٩٦٦ م

الطبعة الثانية.

٥٦- الشافعي (ابو الحسن علي بن محمد المتوفى ٣٨٨ هـ)

- الكيارات - بغداد ١٩٥١ م.

٥٧- الشافعي (ابو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي المتوفى ٢٠٤ هـ بمصر)

١- الام - لاجزاء او ٣ القاهرة ١٩٦٩ م.

ب- الرسالة / تحقيق الشيخ احمد شاهر - القاهرة ١٣٥٨ هـ /

١٩٤٠ م.

ج- احكام القرآن (جمع البيهقي المتوفى ٤٥٨ هـ) تحقيق

عزت المطار - القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م.

٥٨- ابن شاکر الکلبی : (المتوفى ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م)

- فوات الوفیات

جزآن - القاهرة ١٢٩٩ هـ

٥٩ - الشمراني (عبد الوهاب)

— كتاب الطبقات الكبرى المصاه " بلوائح الانوار في طبقات
الاخبار " او طبقات الشمراني
المطبعة الشرفية / القاهرة ١٢٩٦هـ

٦٠ - الشيرازي (ابو اسحق ابراهيم بن علي (المتوفى ٤٧٦هـ)

— طبقات الفقهاء — بغداد — المكتبة الصربية ١٣٥٦هـ

٦١ - صاعد بن احمد الاندلسي (المتوفى ٦٤٢هـ)

— طبقات الامم — مطبعة السعادة بمصر

٦٢ - طاش كبرى زاده (احمد بن مصطفى)

— مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات الملوك
٣ اجزاء — مراجعة وتحقيق كلام بكري — عبد الوهاب ابو
النور — القاهرة — دار الكتب الحديثة — مطبعة
الاستقلال الكبرى

٦٤ - الطبري (ابو جعفر محمد بن جرير المتوفى ٣١٠هـ)

— تاريخ الام والملوك ١١ جزء — القاهرة ١٩٣٩م
ب — جامع البيان عن تأويل آي القرآن — القاهرة —
١٣٧٩ هـ — ١٩٦٠م

٦٥ - ابو الطيب : (عبد الوهاب بن علي)

— مراتب النحويين واللغويين — القاهرة ١٩٥٥م

٦٦ - الطوسي (السراج)

— اللمع بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور
القاهرة ١٩٦٠م

٦٧ - ابن عبد البر القرطبي (أبو عمر يوسف الشافعي ٤٦٣ هـ)

- أ - جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحله ج ١
- المطبعة السلفية - المدينة - الطبعة الثانية -
١٣٨٨ - ١٩٦٨ م . والطبعة الاولى / القاهرة
ادارة الطباعة المنيرية .

- ب - الاستيعاب في معرفة الاصحاب / تحقيق محمد
الخطابي - مطبعة النهضة المصرية - القاهرة
ج - مختصر جامع بيان العلم وفضله - القاهرة - ادارة
الطباعة المنيرية .

٦٨ - ابن عبد ربه الاندلسي (المتوفى ٣٢٢ هـ)

- المقد الفريد - بتحقيق احمد امين وآخرون - القاهرة
١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م . لجنة التأليف والترجمة والنشر

٦٩ - عبد الله بن عبد الحكم (ابو محمد عبد الله بن عبد الحكم المتوفى ٢٠٤ هـ)

- سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الامام مالك ابن انس
برواية ابنه (محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى
٢٦٨ هـ) .

٧٠ - ابن عبد الحكم (ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله المتوفى ٢٥٧ هـ)

- فتوح مصر واخبارها - طبعة توري - ليدن ١٩٢٠ م .
مكتبة المثنى ببغداد .

- فتوح مصر والمغرب - لجنة الهان المرين بالقاهرة
١٩٦١ م .

- فتوح مصر واخبارها - المعهد العلمي الفرنسي - القاهرة
١٩١٤ م .

٧١- ابن المبرى (ابو الفرج بن هون الططى المعروف بابن الصيرى المتوفى

٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) .

— تاريخ مختصر الدول — الطبعة الاولى — المطبعة الكاثوليكية

بيروت — لبنان ١٨٩٠م .

٧٢- عرب بن سعد (القرطبي — المتوفى ٣٦٦هـ — ٩٧٦م)

— صلة تاريخ الطبرى — الجزء الثانى حرر من كتاب " الطبرى

— تاريخ الام والملوك — الطبعة الاولى / المطبعة

الحسنية بمصر .

٧٣- ابن عساكر (ابو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين

بن عساكر الشافعى المتوفى ٥٧١هـ / ١١٧٥م) .

— التاريخ الكبير ج ١ و ٢٥ — مطبعة روضة الشام — دمشق

١٣٢٩هـ .

٧٤- ابن المماد الخبلى (ابو الفلاح عبد الحى بن احمد بن محمد الصالحى

المتوفى ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م) .

— شذوات الذهب فى اخبار من ذهب ٨ اجزاء — القاهرة —

١٣٥٠ — ١٣٥١هـ .

٧٥- العمري : شهاب الدين احمد بن فضل الله المتوفى ٧٤٢هـ .

— مسالك الابصار فى مسالك الامصار ج ١ و ٢ القاهرة —

دار الكتب المصرية ١٣٤٢هـ — ١٩٢٤م .

٧٦- القاضى عياض (المتوفى ٥٤٤هـ)

— ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك /

تحقيق د . احمد بكير محمود — بيروت .

٧٧— الفزالي (الامام ابو حامد محمد بن محمد الفزالي المتوفى ٥٠٥ هـ)
— احيا علوم الدين ج ١ و ٢ و ٣ مطبعة لجنة نشر الثقافة
الاسلامية — القاهرة ١٣٥٦ هـ .

٧٨— الفارابي (الفيلسوف ابو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي)
— احصاء العلوم — تحقيق د . عثمان امين — القاهرة
— الانجنيو المصرية — الطبعة الثالثة ١٩٦٨ م .

٧٩— الفخر الرازي (المتوفى ٦٠٦ هـ)
— مناقب الامام الشافعي — القاهرة ١٢٧٩ هـ .

٨٠— ابو الفدا (الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماء المتوفى ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ —
١٣٢٢ م) .
— المختصر في اخبار البشر ج ١ و ٢ — القاهرة ١٣٢٥ هـ .

٨١— ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم ابن علي بن محمد بن فرحون البعصري
المدني المالكي المتوفى ٧٩٩ هـ) .
— كتاب الدياج المذهب في معرفة اعيان المذهب — الطبعة
الاولى مصر ١٣٥١ هـ (المطابع الجاهلية بمصر)

٨٢— ابن الفرضي (الحافظ ابي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الازدي —
المعروف بابن الفرضي المتوفى ٤٠٣ هـ) .
— تاريخ الملوك والرواء للملم بالاندلس — ج ١ —
— مكتبة الخانجي — تحقيق عزت الحسيني المطاوع
١٣٧٢ هـ — ١٩٥٤ م .

٨٤ — القابسي (علي بن محمد بن خلف القيرواني المتوفى ٤٠٣ هـ)
— الرسالة المفصلة لآحوال المسلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين
ذيل لكتاب د . أحمد فؤاد الأهواني (التعليم في رأسه .
القابسي — القاهرة ١٩٤٥ م)

٨٥ — ابن قتيبة (أبي محمد عبد الله بن مسلم المتوفى ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م أو ٢٢٦ هـ /
٨٨٩ م)

- ١ — ادب الكاتب — القاهرة ١٣٤٦ م .
- ٢ — عيون الأخبار — القاهرة ١٩٢٥ م .
- ٣ — المصارف : طبعة دار الكتب المصرية — القاهرة
١٩٦٠ م .

٨٦ — قدامة بن جعفر (المتوفى ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م أو ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م أو ٣٣٢ هـ /
٩٤٨ — ٩٤٩ م) .

- نقد النضر — القاهرة ١٩٥٩ م .
- نقد النثر — القاهرة ١٩٣٣ م .

٨٧ — القرآن الكريم —

٨٨ — القفطي (جمال الدين علي بن محمد بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب
المتوفى ٦٤٦ هـ)

- أ — مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب
أخبار الملوك بأخبار الحكماء / بفداد مكتبي المثنى —
مصر — مؤسسة الخانجي .
- ب — انباء الرءاء على انباء النطة — جزآن — القاهرة —
١٩٥٠ م — ١٩٥٥ م .

(٧) نشر دار الكتب الأولى ١٩٤٤ و الثاني ١٩٤٦
والثالث ١٩٤٨ والرابع ١٩٤٠ م
والخامس نشره مؤسسة الخانجي ١٩٦٤

٨٩ — القلقشندي (ابو الميلاس احمد المتوفى ٨٢١ هـ)

— صبح الاعشى فى صناعة الانتقاء ج ٢ — القاهرة ١٩١٣ — ١٩٢٥ م.

٩٠ — ابن قيم الجوزية (شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي بكر المتوفى ٧٥١ هـ) ولد ٦٩١ هـ

أ — اعلام الموقعين عن رب العالمين — القاهرة ١٣٢٥ هـ — والطبعة

الثانية — مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥ م.

ب — مدارج السالكين — القاهرة ١٩٥٦ م. تحقيق محمد حامد رفقى — السنة المحمدية
١٢٧٥ هـ — ١٩٥٥ م

٩١ — ابن كثير (علاء الدين ابو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى المتوفى ٥٢٤ هـ)

— البداية والنهاية فى التاريخ — طبعة السعادة بمصر — الطبعة

الاولى ١٩٣٢ م.

٩٢ — الكندى (ابو عمر محمد بن يوسف الكندى — المتوفى ٣٥٠ هـ)

— الولاء وكتاب القضاء — الاباء اليسوعيين — بيروت ١٩٠٨ م.

— ولاية مصر — دار صادر — بيروت ١٣٢٩ هـ / ١٩٥٩ م.

٩٣ — الماوردى (ابو الحسن على بن محمد بن جبيب البصرى المتوفى ٤٥٠ هـ)

— الاحكام السلطانية والولايات الدينية — القاهرة ١٣٩٣ هـ —

١٩٢٣ م.

٩٤ — ابو المطسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الاثباكي المتوفى ٨٢٤ هـ)

— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — الاجزاء ١ : ٤ —

القاهرة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ م.

٩٥ — الصمودى (ابو الحسن على بن الحسن بن على المتوفى ٣٤٦ هـ)

أ — مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ — القاهرة ١٣٢٢ هـ —

١٩٥٨ م.

ب — التنبيه والاشراف : القاهرة ١٩٣٨ م.

٩٦- المقدسى (المعروف بالبشارى ابو عبدالله محمد بن احمد - المتوفى -
٣٧٥هـ أو ٣٨٨هـ)
- احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم (الطبعة الثانية -
لهدن ١٩٠٩م)

٩٧- القيرزى (تقي الدين احمد بن على بن عبدالقادر بن محمد المتوفى ٨٤٥هـ)
أ - البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب - تحقيق
د - عبدالعجيد عابدين - القاهرة ١٩٦١م
ب - المعاظ والاعبار فى ذكر الخطط والاثار - طبعة
بولاق - جزآن ١٢٧٠هـ - طبعة مؤسسة الطبى
بالقاهرة - جزآن

ج - انعاظ الخفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء
جا - القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م - نسخة اخرى
تحقيق - د - جمال الدين الشبال - القاهرة ١٩٤٨م

٩٨- ابن التديم (محمد بن اسحق - المتوفى ٣٨٣هـ)
- الفهرست - القاهرة - المكتبة التجارية الكبرى

٩٩- الحافظ ابو نعم (احمد بن عبدالله الاصبهانى المتوفى ٤٣٠هـ)
- حلية الاولياء وطبقات الاصفياء - الطبعة الاولى -
القاهرة ١٣٥١هـ - ١٣٥٧هـ / ١٩٣٢ / ١٩٣٨م

١٠٠- النوى : (محى الدين بن مسعود المتوفى ٦٧٦هـ)
أ - تهذيب الاسماء واللغات - القسم الاول - ادارة الطباعة
المنيرية - بالقاهرة

بـ التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير (مختصر
من كتاب الارشاد لابن الصلاح المتوفى ٦٤٣ هـ ـ على
هامش الجزء الاول لشرح الكرمانى على البخارى) - القاهرة
بدون تاريخ .

١٠١ ـ التويرى : (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب المتوفى ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ -
١٣٣٢ م) .
ـ نهاية الارب فى فنون العرب ـ الاجزاء ١ الى ٤
القاهرة ١٩٦٣ م .

١٠٢ ـ ابن هشام (ابو محمد عبد الملك بن هشام المتوفى ٢١٣ او ٢١٨ هـ)
ـ تهذيب سيرة ابن هشام ـ تحقيق عبد السلام هارون -
دار محمد بن مصر ١٣٧٤ هـ ـ السيرة النبوية - القاهرة
١٩٣٦ م .

١٠٣ ـ الباقى (عبدالله بن اسعد بن على بن سليمان المتوفى ٧٦٨ هـ)
ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان - الطبعة الاولى - حيدر اباد
الهند - ١٣٣٧ هـ .

١٠٤ ـ ياقوت الحموى (شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومى - المتوفى
٦٢٦ هـ) .

(٧)
أ ـ معجم البلدان ٨ اجزاء - القاهرة ١٩٣٦ م .
ب ـ معجم الادباء (ارشاد الارب الى معرفة الاديب)
٢٠ جزء ١ - القاهرة ١٢٥٧ هـ - ١٩٣٨ م

١٠٥ ـ ابن وهب (عبدالله بن وهب بن مسلم القرشى - المتوفى ١٩٧ هـ)
ـ الجامع فى الحديث ج١ تحقيق دافيد ويل - مطبعة المعهد انسلى
الفرنس بالقاهرة ١٩٣٩ م .

(٧) ضريح دارى صادر وبيروت
١٤٧٤ هـ
١٩٥٥ م

ثانياً - المراجع العربية الحديثة

١- ابراهيم احمد المدوى (الدكتور)
ابن عبد الحكم - رائد المؤرخين العرب - الانجلى المصرية
١٩٦٣م

٢- احمد امين بك:
١- فجر الاسلام ج١ - القاهرة ١٩٤١م
٢- ضحى الاسلام ج٢ - الطبعة الاولى - لجنة التأليف
والترجمة والنشر - القاهرة ١٣٥٣ - ١٩٣٥م

٣- احمد تيمور باشا:
نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الفقهية الاربعة (الحنفى
والمالكي والحنبلى وانتشارها عند جمهور المسلمين) القاهرة
دار الكتاب العربى ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥م

٤- احمد شلبسى : (الدكتور)
تاريخ التربية الاسلامية - بيروت ١٩٥٤م

٥- احمد هيمسى : (الدكتور)
تاريخ البيمارستانات فى الاسلام - دمشق ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩م

٦- احمد فريد الرفاعى (الدكتور)
- عصر المأمون - جز ١ - الطبعة الاولى - مطبعة دار الكتب
المصرية ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧م

٧- احمد فكسرى:
- مساجد القاهرة ومدارسها ج١ - دار المعارف بمصر ١٩٦١م

- ٨- أحمد مختار عمر (الدكتور)
— تاريخ اللغة العربية بمصر — الهيئة المصرية العامة للتأليف
والنشر — القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م
- ٩- أمين الخولي
— المجددون في الإسلام ١٩٦٥ م
- ١٠- جرجي زيدان
١- تاريخ آداب اللغة العربية — الأجزاء من ١ : ٣
القاهرة ١٩٣٧ م
٢- تاريخ التمدن الإسلامي — ج ٣ — القاهرة — دار الهلال
١٩٥٨ م
- ١١- جواد علي (الدكتور)
تاريخ العرب قبل الإسلام — الأجزاء من ١ إلى ٨
المجمع العلمي العراقي — ١٣٣٧ هـ — ١٩٥٦ م
- ١٢- حسن الباشا (الدكتور)
— الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار — القاهرة ١٩٦٥ م
- ١٣- حسن الباشا (الدكتور) وآخرين
— القاهرة — تاريخها وفنونها — آثارها (القاهرة — مطبعة
الاهرام التجارية ١٩٧٠ م)
- ١٤- حسن إبراهيم حسن : (الدكتور)
١- تاريخ الإسلام السياسي — الأجزاء من ١ : ٣ القاهرة ١٩٣٥ م
٢- تاريخ عمرو بن العاص — القاهرة ١٩٢٢ م

- ٣- تاريخ الدولة الفاطمية - القاهرة ١٩٥٨م .
- ٤- الفاطميون في مصر (وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص
- المطبعة الاميرية بمصر - القاهرة ١٩٢٢م) .
- ١٥- حسن ابراهيم حسن (الدكتور) وعلى ابراهيم حسن
الطبعة
- النظم الاسلامية - القاهرة ١٩٢٩م .
- ١٦- حسن ابراهيم محمود (الدكتور)
- حضارة مصر الاسلامية في العصر الطولوني
القاهرة ١٩٦٣م .
- ١٧- حسن عبدالوهاب
- تاريخ المساجد الاثرية - طبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٦م .
- ١٨- حسين مؤنس (الدكتور)
- فجر الاندلس (دراسة في تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامي
الى قيام الدولة الطولونية - القاهرة - الشركة العربية
للطباعة والنشر ١٩٥٩م) .
- ١٩- الخربوطلى (الدكتور على حسنى)
١- مصر المربية الاسلامية - القاهرة - مطبعة الانجلو ١٩٦٣
٢- الحضارة المربية الاسلامية - القاهرة ١٩٦٢م .
- ٢٠- دائرة المعارف الاسلامية
١- مادة / علم التاريخ (مطبعة الاتحاد بالقاهرة ١٣٥٢هـ /
١٩٣٨م)
٢- مادة / ابن عبد الحكم / طبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر - القاهرة ١٩٣٣م .

٢١ — دراسات عن ابن عبد الحكم

— اعداد مجموعة من الاساتذة — القاهرة — المكتبة العربية —

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م •

٢٢ — زكى مبارك (الدكتور)

— النشر الفنى فى القرن الرابع الهجرى — جز ١ — القاهرة ١٩٥٧م •

٢٣ — زكى محمد حسن (الدكتور)

١ — الفن الاسلامى فى مصر جا — القاهرة ١٩٣٥م •

٢ — مصر والحضارة الاسلامية — القاهرة — ١٩٤٢م •

٣ — الرحالة المسلمون فى المصور الوسطى — القاهرة ١٩٣٧م •

٤ — كتوز الفاطميين — القاهرة — ١٩٣٧م •

٥ — فنون الاسلام — القاهرة — ١٩٤٨م •

الشيخ

٢٤ — ابو زهرة — الدكتور محمد •

١ — الشافعى — حياته وعصره • آراؤه وفقهه — القاهرة ١٩٣٣م •

٢ — تاريخ المذاهب الاسلامية جا — دار الفكر العربى
بالقاهرة • سلم

٢٥ — سماد باهر (الدكتور)

— مساجد مصر وأولياؤها الصالحين جا المجلس الاعلى

للشئون الاسلامية بالقاهرة •

٢٦ — السيد عبد العزيز سالم (الدكتور)

١ — تاريخ الاسكندرية وحظرتها فى العصر الاسلامى — الطبعة

الثانية — دار المعارف — القاهرة ١٩٦٩م •

٢ — التاريخ والمؤرخون العرب — القاهرة ١٩٦٧م •

٢٧ — سيدة اسماعيل كاشف (الدكتور)

١ — مصرفى عصر الولاة — القاهرة

٢ — مصرفى فجر الاسلام — الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٧٠ م

٣ — مصرفى عصر الاخشيديين — الطبعة الثانية — القاهرة
١٩٧٠ م

٤ — احمد بن طولون (القاهرة — لجنة التأليف والترجمة والنشر
— القاهرة ١٩٦٥ م)

٥ — عبدالعزيز بن مروان — القاهرة ١٩٦٧ م

٦ — الوليد بن عبد الملك — القاهرة — المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٢ م

٧ — مصادر التاريخ الاسلامى ومناهج البحث فيه . الطبعة
الثانية — القاهرة ١٩٧٦ م

٢٨ — شوقى ضيف (الدكتور)

١ — الفن ومذاهبه فى الشعر العربى — القاهرة ١٩٤٣ م

٢ — الفن ومذاهبه فى النثر العربى — بيروت — ١٩٥٦ م

٣ — المدارس النحوية — القاهرة ١٩٦٨ م

٢٩ — الشيا (الدكتور جمال الدين)

— تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربى الى نهاية العصر

الفاطمى ج ١ دار المعارف بمصر ١٩٦٧ م

٣٠ — طه حسين (الدكتور)

— مع المتنبى — القاهرة ١٩٣٣ م

٣١ — عبد الرحمن بدوى (الدكتور)

— التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية — دراسات لكبار

المستشرقين — الف بينهما وترجمها د . عبد الرحمن بدوى . (الطبعة
الثانية — مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٦ م)

- ٣٢ — عبد الرحمن زكي (الدكتور)
١ — الفسطاط وضاحتها (القطائع والعسكر) القاهرة — الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٦ م.
٢ — ثروت القاهرة العلمي والفني في العصر الاسلامي — مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٩ م.)
- ٣٣ — عبد المزيذ الدوري (الدكتور)
— بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب — بيروت ١٩٦٠ م.
- ٣٤ — عبد اللطيف حمزه (الدكتور)
— الحركة الفكرية في مصر — القاهرة ١٩٤٧ م.
- ٣٥ — عبد الله غورشيد الهري (الدكتور)
١ — القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الاولى للهجرة — القاهرة — دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧ م.
٢ — القرآن وعلمه في مصر من ٢٠ هـ : ٣٥٨ هـ (القاهرة — دار المعارف)
- ٣٦ — علي باشا مبارك
— الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة — جز ١ — القاهرة ١٣٠٦ هـ
- ٣٧ — فليب حتى (الدكتور)
— تاريخ العرب مطول جز ١ (بيروت ١٩٥٨ م.)
- ٣٨ — محمد الصادق عرجون
— التصوف في الاسلام — منابعه — أطواره — القاهرة ١٩٦٧ م.

٣٩ — محمد عبداللہ خان

١ — مصر الاسلامیہ وتاریخ الخطط المصریہ — طبع دار الکتب
المصریہ ١٣٥٠ھ / ١٩٣١م

٢ — مؤرخو مصر الاسلامیہ ومصادر تاریخ المصری — القاہرہ
— لجنة التألیف والترجمة والنشر — الطبعة الاولى ١٣٨٨ھ /
١٩٦٩م

٤٠ — محمود احمد

— جامع عمرو بن العاص — القاہرہ ١٩٥٣ — ١٩٦٣م

٤١ — مراد کامل (الدكتور)

— حضارة مصر في العصر القبلي — القاہرہ

٤٢ — مصطفى منير آدم

— رحلة الامام الشافعي الى مصر — القاہرہ ١٩٣٠م

٤٣ — ولفسون اسرائيل (الدكتور)

— تاريخ اللغات السامية — الطبعة الاولى — القاہرہ —

مطبعة الاعتماد ١٣٤٨ھ / ١٩٢٩م

ثالثا : المراجع الافرنجية المترجمة الى العربية :

١- ارنولد (توماس)

— الدعوة الى الاسلام — ترجمة د . حسن ابراهيم حسن

ود . عبد الحميد عابدين واسماعيل النهر اوى (القاهرة

١٩٥٧م) .

٢- سيز بتشر (أ . ل)

— تاريخ الامة القبطية وكتبتها ٢ اجزاء — ترجمة اسكندر

تادرس — القاهرة ١٩٠٠م .

٣- بتلر (الفريد . ج)

— فتح العرب لمصر — تمريب محمد فريد أبو حديد — مطبعة

دار الكتب المصرية بالقاهرة — لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٠هـ / ١٩٣٣م .

٤- بروكلمان (كارل)

١- تاريخ الشعوب الاسلامية — تمريب د . نبيه فارس وشير

بعلبكي — بيروت ١٩٤٨-١٩٤٩م .

٢- تاريخ الادب العربى الاجزاء من ١ : ٤ تمريب

د . هبة الطيم النجار — القاهرة ١٩٦٢م .

٥- بل (هـ . آيدرس)

— حضارة مصر اليونانية الرومانية وعلم الهرمى (من الاسكندر

الاكبر حتى الفتح العربى) دراسة فى انتشار الحضارة

واضمحلها — تمريب د . محمد عواد حيون — د . عبد اللطيف

احمد على . (القاهرة ١٩٥٤م) .

٦- جروهان (ادولف)

— اوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية — الاجزاء من ١ الى ٥
مترجمة د • حسن ابراهيم حسن — القاهرة ١٩٣٤ م •

٧- دى كاسترى :

— الاسلام خواطر وسوانح — ترجمة احمد فتحى زغلول — القاهرة
— ١٣١٥ هـ / ١٨٩٨ م •

٨- روزنتال (فرائز)

— علم التاريخ عند المسلمين — ترجمة صالح احمد الملى —
مراجعة توفيق حسين — بغداد مكتبة المثنى — ١٩٦٣ م •

٩- على بهجت والبير جبرائيل

— كتاب خفيات القسطنطينية على بهجت وسعيد عكوش —
الطبعة الاولى — القاهرة — دار الكتب — ١٣٤٠ هـ / ١٩٢٨ م •

١٠- فلهوزن : (يوليوس)

— احزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الاسلام (الخواص
والشيعية) — ترجمة د • عبدالرحمن بدوى — القاهرة / مكتبة
النهضة المصرية ١٩٥٨ م •

١١- ويل (ولهم)

— موجز تاريخ القبط — ترجمة د • مؤد كامل — القاهرة

١٢- وهيب كامل (الدكتور)

- ١- استرابون فى مصر (القاهرة ١٩٥٣ م)
- ٢- ديودور الصقلى فى مصر (القاهرة ١٩٤٧ م)
- ٣- هيروت فى مصر (القاهرة ١٩٤٦ م)

١٣ — متز (آدم)

— الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى — جزان
(ترجمة محمد عبدالمهادى أبو زيد — القاهرة ١٣٧٧هـ —
٠ (١٩٥٧م)

١٤ — نيكولسون (رينولد)

١ — فى التصوف الاسلامى وتاريخه (ترجمها وألف بينهما —
وخونها د • ابو الملا عفيفى (القاهرة ١٩٤٧م — ١٩٥٦م)
٢ — الصوفية فى الاسلام — ترجمة نورالدين شريه (القاهرة
٠ (١٩٥١م)

١٥ — هرنشيو :

علم التاريخ (الرسالة السابعة) ترجمه وعلق حواشيه وأضاف
اليه فصلا فى التاريخ عند العرب — د • عبدالحميد المهادى
— القاهرة ١٩٣٧م •

١٦ — هوروفتش (يوسف)

— المفازى الاول ومؤلفوها — ترجمه الدكتور حسين نصار —
القاهرة ١٩٤٩م

رابعاً : المراجع الأفرنجية :

- 1) Butler-Alfred, J.:
The Ancient Coptic Churches of Egypt. 2 Vols.,
Oxford, 1884.
- 2) Bevan : History of Egypt under the Ptolemic Dynasty.
- 3) Geswell (K.A.C.) :
Early Muslim Architecture (Umayyads, Abbasids
and Tulunids), Vol.1, 2., Oxford 1932-1940.
- 4) Encyclopaedia of Islam. (Vol.III, Leiden, London, 1936).
- 5) D. Georgy Sobhy Bey :
Lectures in the History of Medicine., Cairo -
Fuad I University Press, 1949.
- 6) Lane-Pool (Stanley) :
A History of Egypt in the Middle Ages, London,
1924.
- 7) Milne, (J. Grafton) :
A History of Egypt under Roman Rule, London, 1924.
- 8) Munier: (Henri) :
L'Egypte Byzantine. (Precis de l'hist. d'Egypte,
T. Vol. II, 1932.
- 9) Quatremère: (Et.) :
Recherches Critique et Historiques sur la langue
et littérature de l'Egypt; Paris, 1808.
- 10) Farag Rofail Farag :
Sociological and moral studies in the field of
Coptic monasticism, Leiden, 1964.
- 11) Gastón Wiet :
Catalogue général du musée Arabe du Caire.
Stèles funéraires, Vol.1: IV; Le Caire, 1932.

12) D. Zaky Mohamed Hassan :

Les Tulunides. Etude de l'Egypte Musulmane
à la fin du ix^e siècle, Paris, 1933.

13) Woolner (H.C.) :

Languages in history and Politics.
